ذاكرة الأشياء

د. اعتقال الطائي

الكتاب : ذاكرة الأشياء
المؤلف : د. اعتقال الطائي
الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٠
رقم الإيداع : ٢٠١٠/١٣٧١٨
الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 044 - 7

الناشر
شمس للنشر والتوزيع
٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى- المقطم- القاهرة
ت/فاكس: ٢٧٢٧٠٠٠٤(٠٢)- ٠١٨٨٨٩٠٠٦٥(٠٢)
www.shams-group.net

تمثال الغلاف : د. اعتقال الطائي
تصميم الغلاف : الفنان رضا حسن رضا

حقوق الطبع والنشر محفوظة
لا يسمح بطبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل
أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت
إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

ذاكرة الأشياء

فصول من سيرة ذاتية

د. اعتقال الطائي

شمس
للنشر والتوزيع

إلى هانّا ابنتي

باقلاء الفرات

الموت في الشتاء يقترن بالأشجار العارية في هذا البلد البارد النائي عن الوطن، إلا أن الوطن لم يعرف الموت في الأشجار، بل اقترن اسمه بالأحبة والغرباء في كل فصول السنة، لنظلَّ نسمع خبر مأساة انتقالهم إلى اللحدِ البارد. حزن دفين يُكبِّل روحي كلما تذكرتُ وجوه من غابوا، فكل وجه أو اسم ارتبط بشيء رصعته في ذاكرتي.

نهران ضما إليهما نهرًا ثالثًا كلما عبرته رأيتهما فيه، رأيت وجه الطفلة والمراهقة في الفرات، والشابة في دجلة، ثم الدانوب. حتى مرت السنون ومعها العمر.. فهل سأظل أرى الوجه يشيخ في مرآته؟.

على الجسر أرى وجه رضية النحاتة الوديعة، في قيظ ظهيرة تموز والريح اللافحة تعبث بشعرنا، ومازال صدى صوت العمال الساخرين منا بتعليقاتهم اللاذعة يخدش أذني، كان الجسر ملكنا؛ لأنه لا يوجد معتوه غيرنا يتمشى في عز الظهيرة على جسر الجمهورية الذي قُصف بعد غيابنا وأعيد بناؤه، وشهد ويلاتٍ وحروبًا، وظلت مياه دجلة تنساب غير آبهة بكل ما جرى ويجري. لكن رضية رحلت إلى الأبد ولا يمكن استرجاعها.

أين هو الخضر الذي طالما انتظرناه مع أمي إذ كانت تسميه بصاحب الزمان؟.. عبثًا نذرتْ له الشموع حيث بقيت تطفو وتطفو في نهر الفرات حتى ذابت وانطفأت شعلتها، وبقي الزمن على حاله، لا بل تغير من سيئ إلى أسوأ، ورحلت أمي وبقي الفرات يأخذ شموع جيل بعد جيل لتنطفئ قبل أن تلتقي صاحب الزمان... ويطول الانتظار.

طائر بلون الرمل المعشّق بالأحمر، الفاختة رفيقة العمر، لكم كانت فرحتي عارمة بها، لم أصدق أذني يوم سمعتها تنشج أغنيتها في شرفة البيت في المدينة البعيدة بعد وصولي إليها بيومين. تذكرت أنها أنا، وأنا هي يوم وقع الاختيار علي للقيام بدور لا دور له في تمثيلية في مناسبة ربما كانت وطنية في مدينتنا الحلة، لم أنطق بحرف واحد وإنما تُسأل المرأة من المرأة الأخرى التي أرافقها بـــ:

- من وين هاي الفختاية؟

وصار الصغار يسخرون مني وينادونني بالفختاية. لكن الفاختة ظلت وتظل بنت مدينتنا لأنها تسأل في كل زمان ومكان نائحة:

كوكوكتي وين أختي؟

بالحلة

وشتاكل؟

باگلّة

وشتشرب؟

مي الله

بعد خمسة وعشرين عامًا وطئت قدماي أرض الوطن ولكن ليس جسر الجمهورية، ولا الجسر الجديد في الحلة (كان اسمه آنذاك). في السيارة عددت بسرعة أعمدته وكانت ثمانية عشر، ملأتني الغبطة، لا تزال كما هي وذاكرتي لم تخدعني يوم عددتها في العاشرة من عمري كل يوم أعود فيه من المدرسة إلى البيت في حي بابل. وتذكرت باقلاءها الشهيرة، وقررت ألا أعود بدونها. لكن الوقت لم يسمح لي بشرائها من مدينتها.

حان موعد العودة والباقلاء بقيت في أكياس سوق الشورجة الذي حدث فيها انفجار كبير ورفضت أختي اصطحابي إلى هناك، وظلَّت حسرة رؤيته في قلبي إلى هذا اليوم. قبل السفر بيوم، صممت على شراء بذور الباقلاء لأزرعها في حديقة دارنا، وأخيرًا حُلَّت المشكلة بالذهاب إلى محل قريب من بيتهم، صاحبه شاب صديق لابن أختي. دخلنا الدكان وبعد دقائق انقطع التيار الكهربائي وعلى ضوء شمعة صغيرة بحث عن الباقلاء، لكنا انتظرنا عودة الكهرباء ورحت أسأل البائع مازحة معه:

- أكيد راح تنبت وناكل منها باگلة؟

فأكد لي ضاحكًا بأنني سأشبع من محصولها وسأتذكره.

غرستُ البذور في التربة ومع كل بذرة كنت أتذكر كل ما رأيته في الوطن ووجه الشاب الطيب، ويا للبهجة! نبتت الباقلاء وكبرت في أرض تجهل لغتها، لكنها تفهم لغة من زرعتها، فكنت أكلمها كل

يوم وأدعو الله أن يحميها من برودة الجو التي تباغتنا غفلة. أزهرت ونَمَتْ وحان قطافها، وكانت كالكنز، لم أصدق ناظري، وكأنها كومة من الأحجار الثمينة. وضعتها على المائدة وطلبت التقاط صورة لي معها، كنت فخورة بها وبنفسي وكأنني خلقتها بيدي وأطلقت عليها اسم: "باقلاء الفرات" كان بودي أن يراها البائع الطيب الذي أضاف عليها حفنة أخرى كهدية.

قبل بضعة أسابيع حكيتُ لأختي عن مجهودي في الحديقة.. صمتتْ ثم قالت:

- قتلوا الشاب الذي اشتريتِ منه الباقلاء.

سألت عن السبب، فقالت: - لأنه شيعي.

لم أزرع هذه السنة الباقلاء حزنًا عليه، حتى أننا لم نذق طعم باقلاء الفرات المجففة بعد.. خزنتها في قنينة وأغلقت عليها الباب.. أخرجتها، وضعت يدي على خدي أنظر إلى تلك الحبات التي ستظل في مكانها تعيدني إلى الوطن، لكني لن أرى الشاب الطيب الذي نام تحت التراب. وذرفت دمعة كبيرة. لم أعرف اسمه، سيّان عندي، ليكن محمد أو علي أو عمر أو عيسى أو موسى، أعرف شيئًا واحدًا هو أنه عراقي طيب.

بودابست

٦-٧-٢٠٠٦

ولمسة الرمانة...

كنتُ فرحة بانتقالي إلى شقة صغيرة تحوي على غرفة واسعة نسبيًا وحمام ومطبخ بركن إضافي لتناول الوجبات. الغرفة جنينة صغيرة امتلأت بنباتات الظل، حتى أنني ربطت النبات المتسلق والموضوع في أصيص فخاري جميل على رف الكتب بخيط ليمتد فوق سريري حتى الجدار، معيدًا بي إلى تعريشة العنب في بيتنا بالحلة. لتلك الغرفة نافذة تطل على باحة مدرسة كلما جلتُ بنظري فيها، يأخذني الترحال بعيدًا عبرها خارج حدود الزمان والمكان، فهؤلاء الصغار ليسوا هم أولئك الذين تسلقوا الأشجار، وهي ليست شجرة التين التي كنا نلعب عليها في مدرستنا. شيطنتهم وصراخهم والكلام البذيء الذي يرددونه أمام المعلم غير آبهين بهيبته، ليسوا كما كنا نرتعد خوفًا من معلماتنا.

كان التفرج عليهم متعة لا مثيل لها في نهارات بعد الظهيرة عقب عمل متعب في كتابة الأطروحة. كنتُ دائمة المقارنة بين عالمهم وعالمنا، أندهشُ حينما أرى المعلم يلعب مع تلميذته الصغيرة رافعًا بها في الهواء وهي تكركر، ومثلتْ أمام عيني صورة

مديرتنا البدينة وثقل يدها وهي تضرب كفي الصغيرة النحيفة، أو صفعة المعلمة لي بسبب تسلق شجرة التين.

وتذكرتُ الشاعر الفلسطيني يوم ألقى قصائده أمامنا في بغداد فحلقتْ عصافير الجليل فارة من بين أصابعه، وأراد رسمَ الوطن، فاحترف الذكرى، وارتشف قهوة سرحان في الكافيتريا، مستنشقًا عبق رائحة الوطن فيها...

أكثر من عشر سنوات خلَتْ على رؤيته. اليوم في هذه المدينة الباردة، وبلا موعد انتشلني من باحة المدرسة طرق على الباب، فتحته، وجه أسمر، إنه جاري الفلسطيني. ابتسامة حميمة عريضة ارتسمت على وجهه الداكن اللون. فاجأني بقوله:

- أغمضي عينيك وافتحي يدك!

وفعلت.

وضعها في كفي، ورحت أتحسسها شادة بأصابعي عليها. أشرتُ إليه بالدخول، وجلسنا في المطبخ، وبالرغم من أنني أغمضت عينيَّ، لكني رحت أحدق في الجدار الذي انشطر ثم انفلق، فدخلتُ عبر فجوته حديقة دارنا في الحلة مادة يدي كمن يسير في الحلم لأقطفها من الشجرة المتدلية أغصانها الفتيّة على نافذة غرفة أبي حيث كان يرتدي ملابس بيضاء وكوفية، لقد احتفظتْ زرقة عينيه بصفائها، خشيت منه، لست أدري لماذا.. لم أكلّمه، علّه غاضب مني لأنني هجرتهم بلا إذنٍ أو وداع. ركضتُ باحثة عن أشجار

التين والليمون وأخوتي.. ناديتهم، وكأن صوتي يتهادى من قاع بئر عميقة. لا صوت ولا حركة، عدت إلى شجرة الرمان أعدُّ فاكهتها ثمرة.. ثمرة، استهوتني إحداها فقطفتها، وبينما كنت أتأمل جمالها، سمعت صوت أخواتي يرددن:

- دحرج الرمان، نبّع الريحان..

خالتي تصفق على إيقاع اللحن، ومن دحرج وتكوّر رمّانها تركض وراءهن لتضربهن متوردة الوجنتين حياءً من تدفق أنوثتها.

تسلل صوته رويدًا - رويدًا إلى مسامعي:

- هل عدتِ ؟

راح يردد اسمي.. لم أع وجوده إلا بعدما شدّ على يدي.. تطلعت إلى وجهه الداكن السمرة وعينيه السوداوين، ابتسم وسألني:

- أين كنتِ؟

لم أبح له بسر المكان، شعرت بالحياء لسهوي وتجاهل ضيفي، وضعتُ الرمانة على المائدة، شكرته لأخفي مرارتي. وقلت:

- أدركتُ للتو وشعرتُ من الأعماق الآن وفهمتُ معنى بيت شعره: "ورائحة البُن جغرافية".

ضحك الصديق الفلسطيني قائلاً: آه! ملعون هذا الدرويش.. محمود!

بودابست ١٩٨٥

شاي عراقي

في أحد مساءات الشتاء الباردة زارنا المراسل الصحفي الذي رافقته إلى بغداد التي أحبَّ أهلها وشايها. طلبَ مني ضاحكًا أن أعمل له شايًا عراقيًا جلبته معي من العراق. أخرجت نصف كيلو الشاي من خزانة المواد الغذائية، فتحت الكيس وامتلأ انفي بعبقه الذي أعادني إلى....

منتصف ليلة صيف عام ١٩٨١..

حيث وضعت القلم جانبًا، قبل أن يسقط في البئر بطل أول قصة قصيرة ترجمتها، بعد أن شعرت بإعياء أطبق على رأسي فجأة، همدت في سريري وغبت في نوم عميق. بعد ساعات لم أكن أعلم أنني كنت في حلم أم يقظة، صحوت على صوت اعتقدته نابعًا من أعماق البئر، لكنه اقترب أكثر فأكثر وصار يدنو من سريري. طرق على باب غرفتي المقفلة، وصوت رجل ينادي:

- افتحي الباب آني جاي من بغداد!

نهضتُ فزعة، ماذا أسمع، هل احترقت بغداد؟ هل ماتت أمي؟ هل حل الخراب بأرض الوطن؟ ووو... رحت أتخبط باحثة عن شيء لائق أرتديه لأستقبل صاحب الصوت البغدادي. رتبتُ سريري

فاتحة الباب وإذا بي أمام رجل أسمر في خريف العمر أنهكه السفر يرتدي كوفية بلا عقال، وقميصًا أبيض ذا خطوط سوداء وبنطالاً أسود. وقف إلى جانبه صاحب البيت فاغرًا فاه وابنه الصغير يختبئ خلفه مرتعبًا يكاد يبكي، وعيناه جاحظتان من شدة هلعه. لم يبدُ المشهد حقيقيًا للوهلة الأولى وكأنه لقطة من أحد الأفلام العربية ولا ينقصها سوى عبارة يوسف وهبي الشهيرة "يا للهول".

- آني أبو أحمد جيت من طرف أختك وجبتلك چاي(شاي). گالت تگدرين تساعديني.

- بأي شي؟

قبل أن يجيب، سألني صاحب البيت إذا كانت لديه رغبة في تناول القهوة. كنت في حيرة من أمري هل أدخله غرفتي التي لا تتجاوز مسافتها سبعة أمتار مربعة، والتي تحتوي على سرير، خزانة ملابس، مائدة للكتابة وكرسي وتليفون؟

استقبل الدعوة بكل رحابة صدر، شغل مكانه على الكرسي اليتيم، وجلست أنا على سريري الذي ما زال دافئًا.

شربنا الشاي، ودخل الحمام ليغسل وجهه ويخفف من أعباء السفر، ثم استعجل الأمر بقوله:

- اتصلي بالخطوط الجوية البولندية لأني أريد أسافر اليوم لهناك!

في الحقيقة آني كذبت عليهم بقصة سفرتي إلى هنغاريا.

- وين أغراضك؟

- بمحطة القطار.. بقسم الودائع، جيت عن طريق تركيا.

اتصلتُ بالخطوط الجوية البولندية، ووقع الخبر على رأسينا كالصاعقة:

"لا توجد اليوم رحلة إلى هناك"

رحتُ أقنعه بالبقاء ليوم واحد كي يستريح بعض الشيء ويكمل الرحلة، لكني لم أعرف بعد لماذا العجلة وما هي المهمة التي جاء من أجلها. وأخيرًا اقتنع مؤكدًا عليَّ أنه بالفعل يجب عليه أن يكون بأحسن حال وكفئًا لأداء المهمة التي تنتظره.

اصطحبته إلى مكتب السياحة لتأجير غرفة سعيت أن تكون على مقربة من مكان سكني. وأخيرًا وافق على غرفة صغيرة لم تكلفه ثمنًا غاليًا، وبينما هو يدفع الحساب في مكتب السياحة لمحتُ في محفظته صورةً لشاب بزي التخرج من الجامعة. وقبل أن أسأل سبقني قائلاً:

- هذا ابني أحمد بهذي السنة تخرّج من الجامعة ناوي أخطب له بنت أختِك... وعندي غيره خمسة.

- الله يخليهم.

- في الحقيقة اضطرّيت أجي لهنغاريا لأن أختك الله يخليها بعد ما كَدّبتْ على أم أحمد وأولادي، طلبتْ مني أوصلّك نص كيلو چاي عراقي. وبالنتيجة جيت لهنغاريا، وبعدين صارت فكرة زينة وما راح يعرفون آني رايح لبولونيا.

رافقته إلى غرفته وقدمته إلى أصحاب البيت، واتفقت معه على موعد في ظهر اليوم التالي كي نذهب إلى محطة القطار لاستلام حقائبه والتوجه نحو المطار.

كان أبو أحمد دقيقًا في موعده، وقف عند بوابة البناية التي بات فيها. كان يبدو بأفضل حال، لقد خلع كوفيته التي خبأ تحتها شعرًا مصبوغًا فاحم اللون. كان وجهه يلمع وكأنه حلقه لثلاث مرات متتالية، مرتديًا قميصًا ناصع البياض لا تزال بصمات يد أم أحمد عليه حينما كوته باعتناء. سبقني بالتحية مضيفًا:

- والله يابة صحيح، نمت ١٢ ساعة، وشوفيني شلون صرت أحسن!

طلبت منه أن يحث الخطى كي نلحق بالترام الذي سيقلنا مباشرة إلى محطة القطار. ركضت لأصعد الترام قبل أن ينطلق وأبو أحمد يركض خلفي، ركبت الترام وأغلق السائق الأبواب وبقي أبو أحمد على الرصيف. نزلت في المحطة المقبلة وعدت لأجده واقفًا كالطفل الخائب.

أخيرًا وصلنا المحطة لنبحث عن مكان الودائع. سلّمهم الرقم واستلم البضاعة، كانت بالفعل بضاعة نادرة.. فتح الحقائب الكبيرة وكانت تحوي على كل ما لذ وطاب من رز وعدس، سكر وشاي، الفستق الأخضر والبندق، الفاكهة المجففة من تين وتمر وما لم تره عيناي من قبل.. الرزمة الثانية: مساحيق الغسيل والصابون،

ثم ملابس نسائية كقميص نوم مخصص للإثارة، ومن بين كل تلك الأشياء رفع كيسًا صغيرًا وضعه في يدي:

- أخذي يابه، هذا الچاي العراقي.

بقيت في حيرة من أمر هذا الرجل، ماذا يعمل؟ ربما في منظمة إنسانية؟

كان عليه أن يقدم جواز سفره ليستلم حقائبه، وبينا هو منشغل بترتيب البضاعة استلمت جوازه، لم أفتحه ومع ذلك سقطت منه صورة له وهو بملابسه العسكرية. "إنه إذن من حماة الوطن" - فكرت -.

طلبت منه أن يسرع وإلا تركته الطائرة. كانت يداه ترتعشان من شدة الانفعال وهو يحزم حقائبه مرددًا:

- مساكين ما عدهم أكل، جواعة، هسة تفرح من تشوف الهدايا.

غادرنا المحطة، وركب أبو أحمد الحافلة المتجهة إلى المطار..

وصل إلى العاصمة البولندية والغبطة تملأ قلبه، لم يصدق أن وجوده هناك حقيقة ساطعة، لقد قطع آلاف الأمتار برًا وجوًا، وكذب ولفق القصص كي ينال مراده. أخرج العنوان الذي احتفظ به إلى جانب صورة ابنه بيد مرتجفة، وبدأ يستعيد بعض الكلمات البولندية التي تعلمها قبل سنين هناك، وهو على يقين بأنها الآن على بعد عشرات الكيلومترات.. لقد استغرقه التفكير في حل مشكلة الوصول إليها خاصة وأن الشمس قاربت على المغيب.

استجمع قواه مشيرًا إلى سيارة أجرة، خذله لسانه فمد يده مناولاً العنوان للسائق. ابتسم السائق محاولاً إفهامه بأن المكان خارج العاصمة، فانفكت فجأة عقدة لسان أبي أحمد ليُعلمَ السائق بأنه على دراية بكل شيء مؤكدًا له بحركة خفيفة لوح بها المائة دولار أمام عيني السائق الذي سُرَّ للمشهد غير المتوقع. وانطلقت السيارة، وبعد مسافة قصيرة داهمتهما ريح عاصفة وأمطار كادت تحجب الرؤية. ارتعش قلب أبي أحمد لأن السائق كان يسوق سيارته بسرعة غير معقولة حتى دخلا حدود القرية التي خلت شوارعها من البشر. أبطأ السرعة وراح يبحث عن العنوان ويحملق في شوارعها الضيقة، وكمن يرى حورية في حلمه صاح أبو أحمد بلغته البولندية الفقيرة:

- قف.. قف.. هذه.. هذه المرأة أختها!

ارتعب السائق ولم يصدق أذنه حتى اعتقده معتوهًا. ومع ذلك ضغط على المكبح متوقفًا. نزل أبو أحمد من السيارة كالمجنون راكضًا نحو المرأة التي كانت بالفعل أخت من يبحث عنها. جفلتْ، وكاد يغمى عليها في ذلك الليل المخيف، لكنه كان ودودًا وحاول بهدوء أن يستفسر عن بيت أختها. فهمتْ الوضع وعادتْ بها ذاكرتها إلى سنوات مضت حيث صاحبت أختها هذا الرجل الغريب الذي عكر صفو حياة عائلتها القروية. ركبتْ معه السيارة واصطحبته إلى بيت أختها.

اعتراه شعور غريب لم يفهم كنهه في البدء، أهي اللهفة أم الخوف من أن تصده أو ربما تنكر معرفتها له... أم.. أم ؟

فتحت الباب وتسمرت في مكانها، لم تصدق عينيها. تلعثم الغريب المبلول بالمطر ككلب عجوز يحاول بابتسامته وتوددِه لها أن تأويه في بيتها.. التفتَ نحو السائق كي ينزل البضاعة، وراح لاهثًا يأخذها من يده ليضعها أمام قدميها. كادت تطير من فرحها لرؤية الهدايا، لكن الحبور لم يدم لأكثر من بضع دقائق، فها هو الزوج يترك عشاءه ليرى ماذا يدور في بيته. لم تتغير ملامح وجهه في البداية، لكنه فجأة أحس بالإهانة خاصة أنه لم يتعرف على الرجل الذي يقف أمامه، لذا لم يستطع كبح جماحه صائحًا:

- من هذا الرجل... وما هذه الأشياء؟!

كانت فرحة زوجته بالهدايا تفوق وجود الزوج وسؤاله، فلم تبال به، واشتد غيض الزوج مهددًا بقتلهما واصفًا إياها بالعاهرة. لكنها في خضم غبطتها وتخيلها للدولار الأخضر راحت تُري زوجها الهدايا مرددة دون وعي منها:

- أنظر.. أنظر ماذا جلب لنا، هل كنت تستطيع توفير كل هذا؟

رفع الزوج يده ليسدد لها الصفعة وللكلب العجوز، ولكن لحسن حظهما مازال السائق واقفًا يتفرج خافيًا ابتسامته بين الحين والآخر حاسبًا لحساب العودة بعد أن يُطرد الغريبُ ويحصل على

مائة دولار جديدة. وهذا ما حصل بالفعل لقد رماهما الزوج في الشارع:

- اذهبي أيتها العاهرة مع هذا الكلب العجوز الغني!!

بعد شد وجذب حاولتْ جمع بعض حاجياتها لتلتحق بالزائر الذي استأجر لها غرفة في فندق راق في العاصمة وها هو يفوز برفقة الشابة الشقراء ويحقق حلمه الذي طالما رافقه طوال سنوات الفراق، هذه الشقراء التي جعلت منه إلهًا تعبده وتقبله من رأسه حتى أخمص قدميه، حتى قضت على مئات الدولارات، مما أثار غضب فراشات الليل اللاتي يعملن في الفندق، وعلى حد قول أبي أحمد الذي روى الحكاية:

"عبالهن هي وحدة مثلهن"

بعد ثلاثة أيام حمراء، أفقتُ على صوت جرس الهاتف.. ياإلهي الساعة الثالثة صباحًا.. رفعت السماعة وقلبي كاد يقفز من مكانه. صوت نسائي ناعم:

- ألو... ألو.. هههههه.. إتكال؟

كنت أعتقد أن أحدًا ما يلعب أو يمزح معي، وقبل أن أضع السماعة وإذا بصوت رجالي:

- مرحبة اعتقال، آني أبو أحمد هاي تريد تتكلم وياچ. وآني بعد يومين أرجع لبودابست.

- أهلا وسهلاً.. بس خبرني بأي وقت توصل.

ركنت السماعة ولعنت الشقراء واليوم الذي وصل فيه العقيد المتقاعد أبو أحمد مع نصف كيلو شاي إلى بودابست.

لم يمر أكثر من يوم وإذا بأبي أحمد يشخص ثانية في الساعة السادسة صباحًا أمام باب غرفتي دون سابق إنذار. دخل الغرفة وكأنه يدخل غرفة أم أحمد. وضع حقائبه الفارغة من البضاعة وسط الغرفة ورما بجسده المنهك على الكرسي وراح يتطلع إلى وجهه في المرآة الصغيرة الموجودة على المنضدة. رفض تناول أي شيء لأنه أفطر في الطائرة وكان همه أن يعود إلى العراق فورًا.. لكنه لا يعرف كيف وظل يردد:

- لازم أرجع اليوم عن طريق تركيا، ما ريد أبقى بهنغاريا، ما عندي فلوس كافية.

بدا لي أن هذا الرجل لا يعرف ماذا يفعل واستغربت سلوك رجل في هذه السن، وكيف يسمح لنفسه أن يفعل ذلك مع ابنة بلده، ورحت أتساءل في نفسي عن المُثل والقيم التي ينادي بها رجالنا الذين فقدوا عقولهم بين أفخاذ الشقراوات. لذا لم أبادر بمساعدته وتركته في غرفتي وبدأتُ نهاري مع العائلة المجرية وأخذتُ أوراقي وكتابي إلى المطبخ لأعمل هناك. لكني سمعت نشيجًا حادًا، سرت نحو مصدره، كان أبو أحمد يتحسس تجاعيد وجهه محدقا في المرآة الصغيرة وينوح كامرأة ثكلى. جلست على سريري أرقب المأساة. توقف عن البكاء ولمح جهاز المسجل الصغير فأخرج

شريط كاسيت وضعه فيه وكان لسعدي الحلي، وعندما تعالى صوت الأغنية التي كما أتذكر تقول كلماتها:

يا مدلولة ش بُگة بعمري

غير الألم والحسرة

جسمي عايش ببغداد

وروحي ساكنة البصرة

رافقه نحيبه قائلاً بحسرة:

- تحب هاي الأغنية... آخ.. يايابة.

مضى نهار بأكمله ونحن على هذه الحال حتى وصل صديقي الشاعر وزوجته التي جاءت من أجل أن تغسل شعرها عندي. استقبلتهما بابتسامة عريضة ودعوتهما للدخول، تاركة وجود الضيف مفاجأة لهما. نظر صديقي الشاعر في غرفتي وبطريقته العنجهية المعهودة سألني:

- هذا شنو؟

أخذتهما إلى المطبخ ورويت لهما الحكاية بشكل مقتضب، وكان رد فعل الشاعر.

- ما شاء الله وأنتِ تتفرجين عليه من الصبح لحد الآن؟

اقتحم الغرفة مؤديًا التحية وسائلاً منه عن وجهته، فكان الضيف مصرًا على العودة إلى تركيا. وافقه الرأي وطلب منه أن يستعد لأننا سنأخذه إلى المحطة.

خرجنا بسرعة وكانت عينا الشاعر تقدحان شررًا.. وصلنا إلى محطة القطار فأخذه الشاعر وقطع له تذكرة ولم يهمه بأي اتجاه سينطلق القطار، وضعه فيه قائلاً:

- مع السلامة، هذا يوديك لتركيا.

وكان القطار ذاهبًا إلى يوغسلافيا.

تألمت على أبي أحمد ولم أعرف لحد الآن ما حل به، ربما عاد العقيد المتقاعد إلى الخدمة بعد بدء الحرب العراقية الإيرانية بعد عودته بأسابيع إلى الوطن، وظل يحلم بشقرائه في الجبهة. أم غاب أبدًا.

رحت أصب الشاي العراقي لضيفنا الصحفي، لقد تلاشى صوته لأن صدى صوت أختي ذاتها التي أرسلت لي الشاي مع أبي أحمد، طغى في أذني على كل الأصوات وهي تسأل في التلفون من أختي الأصغر التي سكنتُ عندها وقت عودتي إلى العراق بعد خمسة وعشرين عامًا:

- عدكم چاي؟ لأن ردت أنطيهة چاي عراقي..

بودابست

شباط ٢٠٠٧

حفنة تراب من النجف

تضبّبت زرقة عيني أبي فارس خلف دمعة. لم يكن كما عهدته، إنه الآن غاية في الكآبة، قلت: حدثني يا أبا فارس عن الوطن!
لم يستطع، فالحديث صعب..

قبل عام ونحن نتناول الغداء في بيته الجميل الذي ينعم بدفء المشاعر، وابتسامة أم فارس الجميلة وروحها الطيبة، وولديهما فارس وسامر. قلتُ لأبي فارس بينما كان كالفتى يطلب صورتي ليضعها على الرف بين العدد الكبير من الكتب: هل سمعت؟ أم فارس ترغب الهجرة إلى بلد آخر فماذا تقول؟
أجابني وبحدة: لا يا عزيزتي! لو انقلبت الدنيا لن أترك بلدي. وُلِدتُ هنا وسأموت هنا.
واليوم يبكي أبو فارس.. بعد عام يتجاوز الستين.. لكنه قبل ثمانية وثلاثين عاما كُتب في "شهادة جنسيته" - إيراني بالتبعية - لم يكن يعلم أنه سيولد ذات يوم ولد سيلقب "بفارس الفوارس" وسيبيد كل من يسميهم بالأعداء.

ترتجف يد أبي فارس، ويخفق قلبه بحدة أمام الهاتف.. يبتهج، لكن الصوت الآتي من بغداد البعيدة خذله عندما قال: آسفون، لا

أحد يرد. لم تعد ركبتاه تحملانه، اعَتقدَ بأن بيته أُقتحم من قبل حراس السلطة. لكن الصوت البعيد صار يتردد كالصدى ليسعفنا بقوله: بإمكانكم إعطاء رقمًا آخر.

رن جرس الهاتف، وارتعش صوت أبي فارس : ألو.. ألو مَنْ جارنا يتكلم؟ أنا أبو فارس عبد الغني الخليلي. الله يخليك..

لم يكمل عبارته وإذا بصوت الابن البكر فارس يأتي من بعيد: أبي لا تقلق، لماذا تكلف نفسك؟ نحن بخير..

كنتُ فألاً حسنًا لأبي فارس، طار من فرحته وقبَّل رأسي... لكنه كاد ينهار، وما علي إلا أن أتماسك أعصابي وأخفف من الحزن الذي تغلغل في روحه.

فكرتُ.. لندخل مكانًا جميلاً في هذه العاصمة الأوربية، فالعالم مختلف تمامًا، والمكان الجميل على الجبل وناسه الطيبون، والطبيعة الساحرة التي يعشقها هل ستغسل الأسى والكآبة من روح أبي فارس؟

كنتُ على يقين بأنه لن يشعر بكل ما حوله، ولو وضعته في ما يسمونها الجنة فلن يجد الفرح مكانًا لديه. وأعود بذاكرتي.. حينما كنت أقرأ الشعر أمامه ويزل لساني بغلطة صغيرة فيوقفني في الفور صائحًا: احذري!! هذا خطأ. وأخشاه لأصححه.

يجلس الآن أمامي مكدّرًا، حزينًا، يتأبط كتاب "مذكرات بابلو نيرودا" الذي رافقني هجرتي. أعطيته له كي أخفف من همّه. لقد

حفظ أبو فارس معظم شعر العرب، فقلت له لأغير الحديث عن الوطن: لو سألتك عن أجمل بيت شعر، فقل لي بسرعة أي بيت سيأتي كومضة سريعة إلى ذهنك الآن؟

لكنه يجيبني حزينًا يائسًا: الحالة التي أنا فيها يا عزيزتي تحدد أجمل بيت، إضافة إلى أنني لا أؤيد الآن قول العرب في أن هذا أجمل بيت شعر في الغزل، والمدح أو الهجاء قالته العرب.

ويردد أبو فارس بيت شعر لكنه يحوّره ويغير الأسماء والأماكن، فيصف بيت أخيه الذي كان زاهيًا كيف اجتاحته الظلمة الآن بل الموت إن استطعتُ القول.

"لقد أخرجوا جميعًا من البيت تحت إرهاب حراس السلطة.. وربما هم الآن في إحدى المخيمات في إيران.. بعد خدمة ثلاثين عامًا للوطن أخرجوهم يا عزيزتي".

افتقد كتبه ومجالس الأدب في بيته: أسفي وحزني على كُتبي سيعبث بها ناس أميون لم يقرؤوا بيت شعر في حياتهم، اعتادت أياديهم الضغط على الزناد وليس على القلم.

نسي من فرحته بعائلته أن يسأل عن شيبوب كلبه، وكان متأكدًا بأنهم سيرمونه في الشارع، أولئك الأوغاد. ومات شيبوب.

عبثًا أردتُ إضحاك أبي فارس، نسيت معه كل ما يُضحك.. ألف لعنة في رأسي، وألف حسرة في صدري وأنا أبتسم، وفي داخلي نابض يصرخ:

لماذا.. لماذا كل هذا الظلم؟؟!

بودابست

٢-٤-١٩٨٠

"لم أكن أعلم ذات يوم بأن ما كتبته قبل خمسة وعشرين عامًا سينشر الآن لأنحني أمام إنسان كان مثالاً للطيبة والعطف والصداقة الحميمة، لا أتحدث عن عبد الغني الخليلي الكاتب والمثقف. كان بمثابة الأخ والأب والصديق. وقوله: "وُلدتُ هنا وسأموت هنا". مات أبو فارس وفي قلبه حسرتان، الأولى: كان القدر قاسيًا معه، لم يمهله حتى التاسع من نيسان ٢٠٠٣ فقد رحل في تشرين ثاني - نوفمبر - ٢٠٠٢. والثانية: بالرغم من أنه دفن في بلد كرَّمه، احترم إنسانيته، تنفس فيه الحرية، لكنه لم ينعم بحفنة تراب حارّة من أرض النجف.

ونواسي أنفسنا في الغربة لنتساءل: وهل نعم من اختفى في الوطن بقبر؟"

بودابست

تشرين اول - ٢٠٠٥

خصلة شعر

بالرغم من صغر سنها، إلا أنها كانت تعلم جيدًا أن شعرها الحنائي الطويل ملفت للانتباه. لذا بقيتْ مصرة على عنادها بأن تُطلقه، وبعد التوسل إليها وإقناعها، اتفقنا على ربط الخصلتين الأماميتين كيلا تزعجاها عندما تلعب.

في ذلك النهار الأيلولي المشمس، لم نذهب بعيدًا، كان ملعبها المفضل ساحة قريبة من دارنا مطوّقة بأشجار الزيزفون والكستناء البرية وشجيرات البندق، إلا أنها كانت تفضل تسلّق فروع الشجيرات. كنت أراقبها وأتذكر بستان النخيل قبالة دارنا فأتفاخر بمهارتي أمامها يوم كنت في سنها وكيف تسلقتُ النخلة بسرعة السنجاب.

بينما هي تلعب، كنت أنا أيضًا أطلق ذاكرتي لتخرج من دهاليزها تارة، وتارة أخرى أغيب بين ثنايا الكتاب الذي يسرقني منها فأغفل عنها. وفجأة تعالى نداؤها:

" ماما.. ماما الحگيلي.. العنكبوت.. العنكبوت بظهري"

ارتعبتُ، رميتُ الكتاب على المصطبة وهرعتُ لمساعدتها. أنزلتها من على الشجيرة، باحثة عن العنكبوت وقلبي كاد يقفز من بين

أضلاعي ليس خوفًا من الحشرة الصغيرة، بل خوفًا عليها من الخوف. لم أجد عنكبوتًا، كانت خصلة شعرها قد تسللت إلى ظهرها فأرعبتها.

وضعتُها في حضني أهدهدها. وأخاطبها أحيانًا بالفصحى:

"لا تبكي يا ابنتي الحبيبة"

انحنيت عليها دافئة وجهي في شعرها البني القاتم، فقادتني دكنته إلى عتمة شارع مدينة الضباط المؤدي إلى حي "زيّونة" في بغداد حيث كنت أسكن عند كبرى أخواتي.

في ليلة من ليالي أيلول ١٩٧٩ الذي أضفت عليه النجوم جمالاً لا غير لتلك الظلمة. وكانت بغداد مضطربة، حزينة كأهلها. والأمهات ينتظرن بفارغ الصبر عودة الأزواج والأولاد. وتنتشر الحكايات.

"أخذوا فلانًا من دائرة عمله. هاجموا أحد البيوت من سطح الدار في منتصف الليل وانتزعوا الأب من دفء فراشه. واختطفوا فتاةً من الشارع في وضح النهار ورأى الناس جسدها في السيارة وأرجلها ترفس خارجًا محاولة الدفاع عن نفسها".

منذ صغري وأنا أعشق السير في الظلمة ليتلاشى العالم من حولي وأظل أتأمل السماء وسكانها.

في ذلك الليل القاتم، أين اختفى البشر؟ كنت بأمَّس الحاجة إليهم. انطلقتُ مشيًا من بيت أختي الأخرى في مدينة الضباط حتى وصلتُ إلى مفترق الطريق كي أدخل شارعنا وإذا بضوء ساطع يُوَجَّه

نحوي من سيارة رابضة في الركن كـوحش متـربص بغنيمتـه. أصِبتُ بالذعر، لم أعد أرى أي شيء ولم أسمع سوى دقات قلبـي الذي كاد يتوقف.

"ها هم قادمون لا محال، لحظات وأكون بين أيديهم، وسيفعلون بي ما يشاءون، وأمي ستموت في الفـور. ولكـن لمـاذا، أي ذنـب اقترفت؟"

حثثت الخطى، دون جدوى. كنت أتعثر كمن كُبلتْ قدماه بـسلاسل من حديد. رفعت يديَّ المرتجفتين عاقفة شعري إلى الخلف حتى لا يحجب الرؤية. كنت أعرف تمامًا عـدد الخطـوات مـن الـشارع الرئيسي إلى البيت، ورحت أعدها خطوة.. خطوة، وأنا في غمـرة هلعي ساورني إحساس بـالفرح عنـد وصـولي إلـى خطـوتي الثلاثمائة، وبأنه لم يتبق غير خمسين خطوة للنجاة مـن الخطـر. وسرت كالعمياء باسطة ذراعي، حابسة أنفاسي حتى كدت أختنق، مددت يدي لأدفع باب الحديد الباردة، وإذا بي أشعر وكأن أصـابع تمتد من الجانب نحو وجهي وستشد على عنقي. ارتعبت وانتفضت كالطائر الذبيح.

"هذه هي نهايتي.. النهاية الحتمية".

ازدردتُ ريقي بصعوبة، تجمدتُ في مكاني بانتظار النهاية. سمعتُ خشخشة اعتقدتها صادرة من ملابسهم. ثم حـل صـمت مخيـف كالموت. التفتُ بتوجس أرقب المكان. لم أرَ أحدًا.

لم تكن سوى خصلة شعري النافرة في نسمة أيلول النعسانة.
أخَذْتُ نفسًا عميقًا دافعة الباب بعناء. جرجرتُ خطواتي بتثاقل نحو باب المطبخ الذي وجدته مواربًا... دخلت.
فوجئتُ بوجود أمي التي جاءت من الحلة في زيارة لبناتها، كانت تجلس كعادتها على السجادة واضعة يدها على خدها كأي أم عراقية أضناها الهم. كان بودي لو وضعت رأسي في حضنها ونمت. وبعد السلام ردت علي معاتبة:
"ليش يمة.. ليش تجين بالليل؟ مو آني أخاف عليكم!"
حاولتُ ستر خوفي أمامها وسألتها ضاحكة بلا مبالاة:
"من شنو تخافين علينه؟"
تنهدتْ بعمق.
"أخاف عليكم من الخوف"
عادت أمي إلى مدينتنا الحلة، وتركتْ صدى عبارتها يرن في أذني والخوف ينهش روحي. وأيقنتُ وقتذاك أنها كانت محقة في قولها عندما خشيتْ علينا من الإصابة بداء الخوف.

وبعد أقل من شهر، حملتُ تمثالها الصغير ورحلتُ دون أن أودعها. وظلَّت تبكي، ولم تكف عن البكاء إلا ساعة احتضارها عندما سألتْ إحدى شقيقاتي التي انحنت عليها، تتلو القرآن، وكانت رؤيتها قد تضببت ظانة أنها أنا فتمتمتْ سؤالها الأخير:
"رجعتي؟"

"إي رجعتْ" أجابتها أختي.

ونامت مطمئنة أبدًا.

شعرتْ ابنتي بحرارة دموعي، فاضطربتْ هازة كتفي مواسية ومقلدة إياي بقولها:

"لا تبكي يا أمتي الحبيبة!"

عبارتها أضحكتني، ويا للمصادفة الغريبة في خطئها حينما خلطت بين كلمتي أمي وأمتي.

"لا تبكي يا أمتي الحبيبة؟"

راحت ابنتي تمسح دموعي بأناملها الصغيرة، مرددة بنبرة حزينة:

"ماما.. ماما.. لا تبكين.. هسة نروح لبغداد ونشوف بيتكم بالحلة ونصعد النخلة"

أيلول ١٩٩٦

كذبة الحزام الأبيض

عندما فتحتُ اليوم العلبة الزجاجية الزرقاء رأيتُ أعز ما احتفظ به، وهو خاتم ذهبي مرصّع بحجر ياقوت أحمر، كان أول خاتم اشترته أمي لي في السادسة من عمري. إلى جانب الخاتم وفي قعر العلبة رقصت لآلئ صغيرة، هي أسنان ابنتي اللبنية التي بدأت تفقدها في السادسة من عمرها، عزّ علي رميها حينما ركضتْ نحوي شادة بين أناملها الصغيرة على أول سن لبني غادر فمها، وكانت الشمس تسطع عبر النافذة فقلت لها: ارميه في عين الشمس وقولي لها، خذي سن الحمار وأعطيني سن الغزال!

نظرت ابنتي إليَّ بذهول اتسعت فيه حدقتا عينيها لتقول وبلهجتها العراقية الجميلة من فمها:

- ماما، آني مو حمار وما أريد سن الغزال! ماما صحيح إحنه زغار بس مو ما نفتهم.

أخفيت ارتباكي أمام ذكائها وقلت لها: إنها مجرد حكاية.

فردت : لا انتو تكذبون عالزغار، انتو شنو ماما؟

أجبتها مبتئسة: إحنة حمير يا بنتي! نرمي أسناننا في عين الشمس.

ركضتْ إلي، احتضنتني وبصوت مرتعش قالت: العفو ماما، آني ما أقصد، العفو!

* * *

تلك اللآلئ أعادتني إلى كلمة ابنتي "تكذبون"..
الكذب ليس في كل الأحيان يعني الإساءة للغير، أغمز لزوجي عندما يقول لأمه إن ما تقوله غير صحيح، خاصة عندما تروي عن زوجها المتوفى قبل اثنين وثلاثين عامًا أجمل الحكايات وكأنه لم يخطئ في حياته قط، ما تزال تتحدث عنه كالعاشقة عن حبيبها، لتؤكد لنا وهي في التسعين من عمرها "لو عشقتُ الآن فلن أعشق سواه". وتعيد لنا مرارًا وتكرارًا وصف أحفادها المفضلين لتُضفي صورة مثالية متكاملة لهم أمامنا. يستاء ابنها ليقول: أمي تؤلّف.
شرحت لابنتي بأن جدتها لم تكذب وإنما تقول ما تتمنى أن تراه في الواقع وبهذا تُشبع رغبتها بالحديث عنه. هذا هو الوهم بعينه الذي يجعلنا نمتلك القدرة على تحمل الصعاب. أي الكذب على النفس. قلت لها اسمعي هذه الحكاية..

* * *

خمس بنات، وأنا الصغرى بينهن.. نتعلم في مدرسة واحدة، كنتُ فخورة لأنني دخلتُ المدرسة، وفي الأسبوع الثاني من بدايتها حلَّت الكارثة على ابنة الست سنوات يوم فتشت المعلمة ملابسنا، واستفسرتْ عن عدم لبسي للحزام الأبيض على الزي الموحد

(الصدرية السوداء.. ياقة بيضاء وحزام أبيض) كانت عقوبتي هي أن أقف في الزاوية أمام الصف، سألتني عن الحزام بصوتها الحاد وجسدها العملاق وهي تلوِّح بالمسطرة، ارتعبتُ وكان لابد من الدفاع عن النفس فقلت لها وأنا الهزيلة النحيفة أقف أمامها بلا حماية:

- ماتت جدتي ولم يشتروا لي حزامًا.

كنتُ اعتقد أن موت جدتي سيبعث في قلبها الرأفة وتتركني بلا عقاب وهو إذلالي أمام الطالبات. بدأت انتحب ليس لأنها لم تعر أهمية للمصاب الأليم وتركتني واقفة في الزاوية، بل لأنني صرت أشبه بممثل بارع يتقمص شخصية مسرحية يسكنها ليشعر بمكامن روحها، هكذا عشت حدث الموت وصرت أنوح على جدتي التي وأدتها وهي حية.

انتهى الدرس، جلست في الفرصة مكسورة، ذليلة، لم ألعب مع البنات، وصرت لا أرى منهن سوى أحزمة بيضاء تكسر سواد حِداد زيّهنّ الموحّد. ومنذ تلك اللحظة لم يهدأ لي بال. ماذا أقول لأمي لو عرفتْ بكذبتي؟

في البيت لم أشتكِ من العقاب، كيف وأنا المذنبة؟! وهل تسنح الفرصة أو الوقت للتحدث في مثل هذه الأمور مع ست بنات وخمسة أولاد؟..

ركضتُ أبحث عن الثعبان الأبيض، وجدته على الفراش، هو منقذي الوحيد. رفعته برقّة وطوّقت به خصري، عليّ أن أتعّود على صحبته.

قررت أن أكون مجتهدة كي أبعد الشبهة عن كذبتي، تعلمتُ الألف والباء وأول كلمة - باب - هي المنفذ الوحيد الموصد في وجهي للخروج من المحنة التي وقعت فيها.

تعبتُ كطفلة أثقلت روحها بهمٍّ كبير، فهمدتُ في الفراش وقت الغروب والحزام والياقة نائمان عند رأسي. رأيتها تحمل الحزام الأبيض بديلاً للمسطرة، وأنا أرتجف بين يديها متوسلة لها بأن تُعيده إليَّ. كنت أتولول في منامي حتى أيقظتني أختي الكبرى. نهضتُ فزعة، مسكت بالحزام في الفور لأربطه على جسدي النحيل، ضحكت أختي قائلة: أولاً الصدرية وبعدين الحزام.

خرجنا جميعًا وكما كانت تقول أمي: "ناس تجر بالطول وناس تجر بالعرض". بين ركض ومشي حتى يمكننا استئجار عربة بخيول (تاكسي أيام زمان). كانت أختي الكبرى ترتعد حينما تعدو الخيول سريعًا.. لأنها كانت شاهدة على عجلة العربة التي انكسرت ذات يوم تحت ثقل وزن مديرة مدرستنا المفرطة البدانة.

كالرعد جلجل جرس المدرسة، دخلنا الصفوف، وحضرت المعلمة الجبارة، وصاحت المراقبة: قيام - جلوس!.. جلس الجميع إلا أنا كي أريها حزامي. لم تلتفت إلي.

مرت الأسابيع، وعُلّقتْ في نهاية كل صف من الرحلات صور الطيور، وكنت في صف الببغاء وهو الأفضل بالرغم من أنني كنت أفضّل شعبة البلبل لأنه ينشد ما يريده هو، وليس ما يردده بعد الآخرين. وكنت أراقبها، والغريب لم أحمل ضغينة أو كرهًا لها، كان شيئًا أفظع بكثير، صرت أنفر منها ومن كل حركة تفعلها. أتحاشى النظر إليها، وكانت ملاذي حروف الكتاب التي كنت أراها حتى وإن أغمضتُ عينَيْ.

بدأنا نتعلم التربية الدينية، فعلّمتنا سورة الفاتحة، كان اسمها "الست هدية"، كنت أفكر باسمها الجميل مقارنة باسمي. أجل هدية رب العالمين لي، أرسلها كي تعكر صفو طفولتي في مدرسة الفيحاء للبنات.

حل الشتاء ببرده ومطره، في ذلك اليوم الكئيب، لم أشعر بكفي المتجمدة، لم تدخل هديتنا الصف، رحتُ أراقبها خلسة، رأيتها بأم عيني تتكلم مع أكبر أخواتي، وصار هاجس الشك يساورني، لم ألمح طيف ابتسامة على وجهها، تُرى ماذا تقول، هل تعزّي أختي بموت جدتنا؟ كدت أدوخ من خوفي، وبلا وعي صارت أصابعي المتجمدة تضغط على شفرة الحلاقة التي كنا نستعملها بدل البرّاية، لم أشعر بالألم بل بحرارة الدم الذي منح الدفء ليَدي. وأخيرًا وطئتْ قدمها أرض الصف. دسستُ كفّي بجيبي عله يوقف النزف،

كان كل شيء يبكي في، إلا عيني. ومنذ ذلك اليوم وأنا أمقتُ درس الحساب ووحشة أيام الشتاء الحزينة.

قرُبَ امتحان نصف السنة الدراسية، حجبتْ الكلمات بأجمعها إلا كلمة واحدة وقالت: اقرأي! فقلت: دار...

كانت دارنا تقع على نهر الفرات. في ذلك النهار الدافئ أسرعنا الوصول إليها.

لم أعرف السرَّ إلا حينما قالت أمي في العصر:

- روحن العبن بحديقة النساء، بعد شوية توصل المعلمات!.

شهقتُ وكدت أموت، عن أي معلمات تتحدث أمي، ولماذا يأتين لزيارتنا؟! لقد آنت ساعة العقاب والتعري أمام الجميع، أي لعب وأي طفولة بائسة تستطيع أن تبدد الخوف الذي بات كالظل يلاحقني ليل نهار بلا هوادة؟!

ونحن نعبر الشارع تشبثتُ بيد أختي التي استاءت من تعثري بقدمي، كانت حديقة الفيحاء للنساء تعج بالأطفال والأمهات، البهجة.. البهجة لا سواها. أين منّي منها؟ أين زهور الخشخاش التي كنا نلتهم بذورها وننام كالمخدَّرين دون أن يعلمنا أحد عن كنه ذلك الخَدَر؟ لم أرَ جريذي النخل يتسلق النخلة فارًا أمام صيحاتنا. لا شيء غير غشاوة الخوف البليد، وكمن يسير في الحلم مشيت باتجاه الموج الناعم للفرات. ركعتُ على ركبتَّي ووضعتُ يدي في الغِرِيَن البارد الذي قامت منه جدران بابل، وأنا

أفركه بين يدي لألمس ببذرة الخلق، نسيت أنهن الآن يجلسن في غرفة الضيوف ويتألّبن ضدي. زحفتُ قليلاً لأمسك بالموجة عبثًا، سمكة صغيرة تحوّل لونها إلى الأرجواني، رفعتُ رأسي لأتأمل قرصًا من النار يهبط رويدًا.. رويدًا وقبل أن يغرق في النهر تعالى صراخ صديقتنا بديعة وهي تقف على سور الحديقة لتصيح بكل ما تملك من طاقة: الله أكبر.. الله أكبر، - وكأنها أصيبت بلوثة - اليوم ستقوم القيامة.

نهَرَتْها أختي الرصينة منذ صغرها: انزلي، لا تفضحينا أمام الناس! ومن قال لك ذلك؟

- أمي.. أمي.. والله العظيم أمي قالت.

ركضتُ نحوها، لم يهمني من القائل.

- أريد أن أعرف متى؟. انبعث الصوت من رئتي وكأنني أحتضر.

- اليوم نص الليل.

ها أنا، بعد ساعات سأدخل النار، فمن يكذب مكانه جهنم وبئس المصير. هكذا قالت الست هدية التي تمهد الآن طريقي إليها.

قبل أن يهبط الظلام أقفلت الحديقة أبوابها، دفعتني أختي إلى الدار، وصدى صوت تلك المعتوهة يتردد في أرجاء الحديقة ورأسي - اليوم نص الليييييييييل -.

لم يبدُ على وجه أمي وأخواتي الامتعاض أو الغضب، لكن أمي ليست كعادتها لم تخاطبنا بحنان، وقالت دون أن تنظر إلينا: تعشوا

وناموا! خوفًا من السؤال، أكلتُ قليلاً وصورة النار التي سأتلظى بلهبها لم تفارق عيني.

ناموا جميعًا، نص الليل، نحن لم نتعلم بعد قراءة الساعة، من أين لي أن أعرف الوقت، يبدو أن نص الليل لم يقترب، لم أرَ لهيبًا ولا نارًا، إذًا متى ستقوم القيامة؟

صرتُ أرتعد، فذا الشيطان يقترب، يدنو مني، أسمع مواءه، قالت جدتي يظهر بهيئة قط أسود. صممْتُ أذني وخبأت رأسي تحت اللحاف. لقد حانت الساعة، انشقّت السماء، نور، لهب، رعد، برق، ما الذي يئزّ؟ إنها النار. ألسنتها تلتهم كل شيء وكل ما يعترض طريقها، لكني لا أشعر بحرارتها بل العكس، أشعر بالبرد أكاد أتجمد، فتحتُ عيني تحسستُ ملابسي، كانت مبلولة والفراش. خبأتُ ثوب نومي وغطيت الفراش، وركضت لأرتدي الزي الموحد والحزام.

كان صباحًا ربيعيًا باردا، نديًا، يفوح منه عطر القدّاح في الحدائق النعسانة، التي تسكر وتنعش في الوقت ذاته أرواحنا الصغيرة، فنستفيق لنشد همّتنا بالوصول إلى المدرسة.

لمَ لوّنَ الأسى وجوه البنات بالشحوب، لماذا يبكين؟

- ماتت ست هدية...

لم أصدق أذني، ألم تكن ضيفتنا بالأمس؟ يبدو أنني لا أعرف غير سؤالين هما:

- متى وكيف؟!

- بالأمس كانت مريضة، حُقِنَتْ بإبرة البنسلين الذي قضى على حياتها بالخطأ.

حزن عميق.. ذهول.. أم انفراج؟ وروحي مخضبة بألف إحساس وإحساس، طفلة نجت من النار على حساب معلمة أخذتْ سرها - كذبتها الأولى والأخيرة - ودفنته معها إلى الأبد.

أضافت الدمعة إلى عين ابنتي بريقًا أكبر، تركتها تنساب على خدها لتقول بصوت متهدج تخنقه العبرات:

- ماما! آني أعرف انتو كلّش تحبون الزغار - وأكملت جملتها بلغة نصفها الثاني المجرية - لكنكم قساة معهم!!

ألقت رأسها على صدري وقد فتحت العلبة الزجاجية الزرقاء وراحتْ تدوّر على إصبعها النحيلة الخاتمَ الذهبي المرصع بحجر الياقوت. همست في أذنها:

- نعم يا روحي! هناك الملايين من نصفك الثاني رضعوا ويرضعون القسوة منذ عشرات السنين ولم يعرفوا طعم الرحمة بعد...

بودابست

أيلول – سبتمبر 2005

حمَّام النسوان

أشعر بالمتعة في تدريس اللغة العربية لأبناء وبنات بلد (المجر) الذي أقيم فيه وأنا أتلفظ مخارج حروفها وأشرحها كلمة.. كلمة، وكانت أكثر الكلمات التي يصعب على الأجنبي التفرقة بينها هي ثلاث: الحمَّام والحَمام والحِمام.

سألتني الطالبة المجرية اليوم عن الرابعة بضم الحاء "الحُمام"، لكن ساعتها انتهت. ودعتُها وأسرعتُ لأنزل من على الرف المعجم، فسقطت مجموعة صور طُبعتْ بشكل أنيق للفن التشكيلي العراقي. اصطحبتها معي إلى المطبخ لأتفرج عليها حتى ينضج الغداء، أول الصور كانت للنحات خالد الرحال، نحت بارز لنساء عاريات ممتلئات الأجساد وبحركات جميلة جدًا يستحممن في حمّام النساء كانت أمهاتنا يسمينه حمّام السوق. كان القِدر على النار ينفث البخار. رفعتُ الغطاء عنه لأضع قليلاً من الملح، لم أرَ الطعام فيه، بل كان شارعًا في حي الوزيرية صباح يوم ربيعي تكاثف فيه الضباب. عند باب أكاديمية الفنون الجميلة نزل النحات من سيارته وبيده جورية صفراء. صرتُ قبالته، سبقني إلى التحية

ثم ناولني الوردة بحميمية قائلاً: قطفتها من حديقة منْحَتي في الصباح الباكر.

ارتبكتُ بعض الشيء لكن سحر الوردة المندّى بالضباب راود أنوثتي فأنساني ارتباكي. شكرته وحثثتُ الخطى لأصل إلى قاعة النحت قبله، حيث كان يقف إلى جانبي أحد زملائي الذي قلّما نسمع صوته، له وجه كوجه الرهبان، وأصابع يكاد تمثاله ينطق من تحتها. لم ينظر مقبل جرجيس في عيون البنات، كنا جميعًا نحبه، لكن الشباب الملاعين يقرصونه بين الحين والآخر بالكلمات. هذا الفتى مقبل أذهلني بتمثال العجوز الشمطاء، تقرفص عارية وقد تيبّس جلدها على العظم. بحْلقتُ بوجهه تارة وأخرى بالتمثال ثم سألته: من هذه؟ ابتسم وقال: إنها عمشة. رأيتها بحمّام النسوان في الموصل وهي التي قالت لأمي عندما لمحتْ عيني تحوم بين النساء: هذا ابنك كبر، لا تجيبي معاك للحمّام.

بعد سنوات في نهارٍ صيفي ساخن كان مقبل جرجيس الصامت يركض خلفي في شارع السعدون. التفتُ إليه وارتسمتْ بسمة الفرح على وجهينا لذاك اللقاء غير المتوقع، لكنه لم يعد مقبل الصامت الذي عرفناه، لقد أسمعني كلامًا لم أسمعه خلال سنوات الدراسة الأربع. كانت الكلمات تندلق من فمه كماء الدلو، ولدهشتي لم أفقه وقتها معنى كلماته ورسختْ في ذهني عبارته التي رددها أكثر من مرة: أنا لن أتزوج لأن المسيح لم يأتِ عن

طريق الخطيئة. وغاب مقبل ولم أسمع أخباره قط حتى دار الحديث بيني وبين أختي التي كانت تعرف جميع زملائي قائلة: مات مقبل، قتلوه في السجن بتهمة التبشير. لم أملك إلا دموعًا أذرفها لخسارة راهب كاد يصبح أشهر نحات. أخذ الحِمام الراهب مُقبل ولم يرَ جسد المرأة إلا حينما كان طفلاً في حمّام النساء.

عدتُ أتأمل العمل النحتي البارز البديع لخالد الرحال. تجمّدتْ عيني على الليفة. في مطار بودابست قبل أكثر من ستة وعشرين عاما، كان موظفو المطار يفتشون حقائب شابتين فسقطت بأيديهم ليفتا الحمّام وصابون الغار. عرفتُ في الفور أنهن عراقيات لم يجرؤن التكلم أمام الآخرين وكان سؤالي خبيثًا لهن: جايات سياحة؟
اضطربتا ورددتا: طبعًا، طبعًا. وبالرغم من وضعي النفسي السيئ آنذاك فقد ضحكتُ بداخلي وتساءلت: أكو واحد يروح سياحة وما يستغني عن ليفته وصابونة الركي (الغار) لفترة قصيرة؟
انتهت مراسيم التفتيش وخرجتُ. لم يكن في استقبالي أحد حيث لا أعرف أي كائن في هذه المدينة، لكن شابًا قصير القامة شاحب الوجه اندفع نحوي لاهثًا:
- مرحبة.. ما.. ما شفتي.. خواتي؟
ابتسمت له وأجبته: شفتهن.. شفتهن وصلن. وأكملت بداخلي ما لم أجرؤ على قوله له.. "هنّ وليفهن".

من الجهة الأخرى تقدم مني رجل أسمر ابتسم منحنيًا أمامي: أهلاً يا فندم، الحمد الله عالسلامة، أنا كنت معجب بحضرتك في العراق. جيت مع صديقي الكردي نستقبل أخواته. أهلا، أهلا.

لا أنكر سروري بهذا الترحيب غير المُنتظر. لكن الحزن يحرق روحي. خرجتُ من قاعة المطار فاقتربَ مني رجال ببدلات أنيقة وشوارب وضحكات ماجنة كريهة. فقال أحدهم: أهلا وسهلا أكو أحد بانتظارك ؟ تعالي ويانة نوصلك.

كانوا من أمن السفارة العراقية. شكرتهم بأدب وجلست على عتبة الرصيف، انطلقوا بسيارتهم وصوت شريط الكاسيت يصدح بأغنية عراقية جميلة ما زلت أرددها:

يا حمامة شلون طرتي، شلون طرتي؟

وعلى عشّ الغير رحتي، شلون طرتي؟

وآني ربيتك، هوايك داريتك

شنو ذنبي لغيري صرتي؟

يا حمامة

دون وعي مني راحت أصابعي تتحسس الطاسة في صورة منحوتة الرحّال. إنها السلاح الوحيد الذي كنا نستخدمه ساعة العراك بالحمّام في طفولتنا.

كان يحزّ في نفسي عدم رؤيتي لحمّام النساء الذي كانت جدتي تتحدث عنه، فاقترحتُ على أخواتي في بغداد الذهاب إلى حمّام

الكاظمية. وكنت متلهفة وفي أشد التوق للتعرف على بنايته. استأجرنا قمارة (هكذا يسمونها) وهي حمّام صغير داخل الحمّام الكبير. ومن شدة الحياء وخوفنا من أن تدخل إلى قمارتنا إحدى المستحمات وضعنا المصطبة خلف الباب. ويبدو أننا لم نكبر بعد فبدأت المشادة بين أخواتي على الطاسة. احتبس البخار الكثيف في تلك الحجرة الصغيرة حتى أغمي على كُبرى أخواتي، فتركنا الصابون والليفة وانشغلنا بإسعافها ولم يبقَ للحياء في تلك اللحظات العصيبة أي أهمية ففتحنا الباب على مصراعيها وأخرجنا البخار وانتهت مراسيم الاستحمام بالنجاة من الموت "الحِمام".

لملمنا ليفنا ورمينا الطاسة في الحوض الصغير. ألبسنا أختنا وغادرنا الحمّام متعبات خائبات، وكان يقف الشباب على مقربة من بناية حمّام النساء ليسمعوهن التعليقات اللاذعة التي كان نصيبنا منها هو:

- هاي شنو ؟ ليش طلعن من الحمّام وجوهن صفر وما متفّحات ؟

أنقشع بخار القِدْر، ولم استنشق سوى رائحة الأكل المحروق، ارتعبتُ وشحبَ وجهي خوفًا من اللوم وعدم توفر الغداء. وضعتُ الصور جانبًا، فتحتُ نافذة المطبخ بقوة فهبّ من على الشجرة الحَمامُ وطار.

بودابست

١٣-٧-٢٠٠٦

قطرة العين

اقترحتْ علي طبيبة الأمراض الصدرية الذهاب إلى طبيب العيون بعد تجرعي كمية كبيرة من المضادات الحيوية التي قد تؤثر برأيها جانبيًا على النظر. بعد الفحص الدقيق ابتسمت الطبيبة الشابة التي كانت تلثغ بالسين موضحة:

"لا توجد أية مضاعفات وعيناك سالمتان قياسًا إلى عمرك.. وكما يبدو أنه عائد لقوة الجينات".

لكني أخبرتها بأنني أشعر بجفاف في عيني، فكتبت لي قطرة مؤكدة على جودتها.

شكرتها وغادرت العيادة.

في الصيدلية وأنا أقف في طابور طويل من المنتظرين، والذين بدا التذمر واضحًا على وجوههم لبطء حركة الدور، كانت امرأة عجوز تولول لاعنة الطبيب وصانع القطرة التي سببت لها حرقة في عينيها... وفجأة تهادى إلى أذني صوت أمي قادمًا من بعيد وهي تقول بحرقة:

"لعنة الله على الساعة المشؤومة اللي حطوا بيهة قطرة بعيونك بسجن نگرة السلمان!"

في عام ١٩٤٨ كانون الأول، ارتعش الجنين في رحم أمه، حين سمع صرختها وهي تبكي ابنها المنتفض مع رفاقه الطلبة ضد الاستعمار المستبد والملكية. لقد اقتادته الشرطة من مدرسته للتحقيق معه، وجاء الخبر اليقين: "اعتُقل في نـگرة السلمان".
بعد تعذيب طويل، حُكم عليه بالسجن لعامين ونصف.
كانت تحمد الله على أنه لم يُقتَل أو يُعدَم، إلا أنها بكت، صَامَتْ عن الزاد واعتصمت في غرفتها. كان يعزّ عليها رؤية النور وابن العام التاسع عشر يقبع في سجن الصحراء.
وبالرغم من أنها كانت تلطم وتضرب ظهرها بالجدار حزنًا على ولدها غير آبهة بمن تحمله في رحمها، فقد ظل الجنين متشبثًا بحبله السري الذي مازال يربطه بها حتى هذه اللحظة وهي ترقد في قبرها. لم ترأف به، تعلّم الجنين الصبر والحرمان والجَلَد المتسرّب من مشيمة أمه إليه كالغذاء. نما، كبر، وحانت ساعة المخاض في آذار ١٩٤٩. الولادة عسيرة، ليس للأم قوة تعينها على دفع الجنين إلى النور. نور محاط بجدران العتمة.

وُلِدتْ، كان تسلسلها الرابع عشر، والبنت الثامنة. لم يرق وجودها للقابلة التي أصيبت بخيبة أمل حال رؤيتها للأنثى.. كانت الطفلة هادئة، ترضع وتنام، هذا ما أثار قلق الجدة فكانت بين الحين والآخر تقرصها كي تتأكد من أنها مازالت على قيد الحياة مخاطبة إيّاها: "أنت تنامين مرتاحة وأخوكِ يتعذب بالسجن؟"

أربعون يومًا مضت، كانت الأم تعدها بنفاد صبر وتلهف. جهّزت حالها واستعدتْ مع والدي للسفر. حملتها وانطلقا باتجاه الصحراء إلى قضاء السلمان حيث نقرته "السجن". وبالرغم من أن الصيف لم يطرق الأبواب بعد، إلا أن نور الشمس المتسرب عبر النافذة لا يطاق في عربة القطار الذي أقلَّهم عبر الصحراء، فكانت تحجب نورها وذرات الرمل الذهبية المتطايرة عن الرضيعة بعباءتها، وكانت تهدهدها مندّية شفتيها بالماء المُحلّى بالسكر كلما بكت.

وصلوا في عز الظهيرة. توسلت الأم إلى حارس السجن طالبة السماح لإدخال الطفلة معها، دون جدوى، أجبرتْ على تركها خارج السجن، حيث كانوا يتركونها قرب الحارس في مكان على الرمل.

اندهش الابن لرؤية والده وقد احدودب ظهره من الهم، وأمه التي أنهكها الفراق، تساءل : "الطفلة"؟

"تركناها برّه، ما سمحوا لنا ندخّلها، يخافون إذا حطينا مناشير بقماطها".

انتحبت الأم، لطمت على وجهها حينما رأت ذراع ابنها التي كُويتْ بالحديد المتوقد. تسأله عن الطعام والشراب، وتناوله ما أعدته له من كل ما اشتهت نفسها له. والصغيرة في الخارج على الرمل، تنضاع كفرخ الطير، ولكن، ليس هناك من يزقها.

انتهت الزيارة. خرجت كمن أقْتُطعتْ نتفة من قلبها. أسرعت نحو ابنتها، رفعتها إلى صدرها، وظلت الطفلة فاغرة فمها باحثة عن ثدي أمها عبثًا، فالأم عاجزة عن إرضاعها وهي في تلك الحالة النفسية.

"ما كان غير مي البرميل المصدّي والحليب الصناعي تشربه وتكبر"

تعود أمي بعد سفرة شاقة طويلة لتدخل غرفتها مكسورة، حزينة، لم تسمح لنفسها بالنوم في سطح الدار مع العائلة.

"شلون يغمض لي جفن وأتنعم بهوا السطح وابني نايم بظلمة السجن".

كانت الطفلة تعيش ظلامًا آخرَ مع أخيها دون إدراكها بما يدور حولها.

مرت بضعة أيام، وأغمضت الرضيعة عينيها، لكنها هذه المرة لم تقو على فتحهما، وتلوب متوجعة باكية والرمص يسيل منهما، ارتعبت الأم وأسرعوا بها إلى الطبيب خشية من إصابتها بالتراخوما. جربوا أنواعًا عديدة من القطرة، لكن بكاءها يزداد يومًا بعد يوم. مرت ثلاثة أسابيع دون تحسن ملموس، مما ضاعف حزن الأم واشتد قلقها لأن وضع الصغيرة ربما سيمنعها من زيارة ابنها.

"شلون بينه، بعد أسبوع عالزيارة وعيون هاي الطفلة ما طابت، وأخاف أتركها برّه عالرمل!"

وحان موعد الزيارة، وكان هواء الصحراء ينفث لهبًا. وتكرر المشهد وتوسلت أمي إلى الشرطي كي يرأف بحال الصغيرة فعرّتها من ملابسها ولفتها أمامه بقطعة قماش، وأدخلتها السجن معها. قدِم المعتقلون ومعهم أخوها الذي تلقفها فرحًا برؤية أصغر أخواته.

"هذي يمه أختك اعتقال، سميناها مثل ما ردتْ"

لم يكن وحده سعيدًا بها، تسابق رفاقه لرؤيتها، وتصف أمي التي كانت وقتذاك في التاسعة والثلاثين من عمرها أحدهم:

"إجه شاب طويل مثل البطل، حلو، وجهه مثل فلعة الگمر، اسمه رافد.. يمكن كان طبيب لو صيدلي، سأل: وين اعتقال؟ خلي أشوفهه.. ولما شاف عيونها، راح ورجع بيده قنينة صغيْرة وگال: أخذي هاي القطرة، هذي مصنوعة بسجن نگرة السلمان، استعمليها.. وهسة تشوفين شلون راح تطلع عيونها قوية!"

واستعملتها أمي، وهكذا شفتْ عينيَّ قطرة الرافد الجميل.

شعرتُ فجأة بأن عينيَّ لم تعودا جافتين، وقبل أن تسقط دمعة صغيرة منهما، ارتفع صوت البائعة في الصيدلية:

"تفضلي سيدتي!"

استلمتُ القطرة، وفي طريقي إلى البيت دفعني فضول غريب لمعرفة مكان صناعتها، فأخرجتها من حقيبتي "صُنعت في ألمانيا"...

ولكن... ليس في معسكرات الاعتقال.

بودابست

ايلول ٢٠٠٦

التنور

يتشابك نسيج غربتي بكثافة عندما يمر نهار بأكمله دون أن أتفوه بكلمة من لغتي الأم، أو أسمع حرفًا واحدًا منها. لذا ألجأ في بعض الأحيان إلى القراءة بصوتٍ عالٍ. لكنني اليوم استعنت بالتليفزيون كي أسمع اللهجة العراقية، فاستوقفني برنامج ينقل الواقع العراقي بلا رتوش فتجمدت نظرتي على التنور.

امرأة تسعى لتوفير لقمة الخبز لعائلتها، ولابد من إطعام النار، لا حطب ولا خشب، فتضطر لحرق بعض قطع من أثاث البيت. لتضعها في التنور الذي أمسى جزءًا من التراث، وأصبح اليوم قطعة ثمينة لا يُستغنى عنها، وبينما تضع المرأة رقاقة الخبز، تراءت لي يد جدتي البيضاء تستند على التنور. كانت قصيرة القامة، حاولتْ الوقوف على مرتفع لتنحني على فوهته، وبينما هي تتضرع إليه، رفعت يديها طالبة من هذا المكان المقدس أن يعين ابنتها على الولادة فزلت قدماها ووقعت فيه. ومنذ تلك اللحظة اعتبرتني - وبالرغم من حبها لي - نذير شؤم لأنني وُلدت وأخي في السجن، وذنبي الآخر هو أنني البنت الثامنة فسلطت القابلة لعنة الرب علي، وأصيبت بعد ذلك بالعمى.

قبل ثورة الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ اجتمع أخوتي فمسك أحدهم بالطبشور وبدأ يرسم على بلاط الحوش خارطة تصميم بيتنا المُنتظَر، أصغت أمي لهم بكل حواسها وفجأة سألت:

"وين التنور؟"

اندهش الجميع خاصة وأنهم لم يتذكروا صورتها ذات يوم وهي تخبز، ولم يكن لنا أصلاً تنور في أي بيت سكناه، هكذا أملتْ علي ذاكرة الطفولة.

وكانت الفرحة فرحتين احتفالاً بالبيت وبالثورة. تربع التنور في زاوية الحديقة الخلفية، وكان من السهل شراء الحطب وأعداد هائلة من كرب النخيل، ولكن من سيخبز؟ أعلمتنا أمي منذ البداية بأنه ضروري لشواء السمك واللحم والباذنجان ولخبز فطائر العيد "الكليچة" بدلاً من حملها إلى فرن السوق، أو لصنع الخبز باللحم. ومع ذلك راحت تبحث عن الحل فصنعت مخدة مستديرة الشكل لا أعرف بماذا حشتها بحيث أصبحت صلدة متماسكة. وهكذا علّمتْ أخواتي كيف يمسكنَ بها بعد أن تُربطُ الذراع بقطعة من القماش وتكون الرقاقة جاهزة، وما عليهن إلا لصقها على جدار التنور. واستمرت الحال على هذا المنوال كلما صارت الرغبة ملحة لدى أولادها بأكل ما يشتهون من مشوي ومخبوز في التنور.

كان لإحدى أخواتي نصيبٌ وافرٌ من زيارة التنور، وكأنه عقاب لها لأنها لسبب ما تركت المدرسة، حتى جاءها العريس وهي بملابس

الخبز، توردت وجنتاها من نار جمرات التنور وتفجّر بركان أنوثتها. كانت في التاسعة عشرة من عمرها، وكانت لها غمازتان أضافتا لوجهها سحرًا قريبًا إلى الروح سواء ابتسمت أم لم تبتسم حتى رحيلها أبدًا وهي لم تطرق باب الخمسين بعد. وخفتت نار التنور وهمدت بعد زفافها.

مرت سبعة شهور على زواجها، وشبَّت النار في تنورنا وفي أرض الوطن في شهر شباط عام ١٩٦٣. ولكن هذه المرة لم تحضّر أمي العجين ولا اللحم، إذن ما الذي دعاها لإضرام النار فيه وفي ذلك اليوم الماطر؟

لم أنزل من غرفتي إلا بعد أن سمعتُ صوت والدي وأمي تترجاه أن يخفض صوته مرددة:

"إش إسكت! گبل مايجون ونتعزّه"

ركضتُ خارجة إلى الحديقة الخلفية فوجدت أمي تشد من جهة وأبي يحاول تخليص الكتب من ألسنة اللهب من جهة أخرى، سائلاً إياها:

"يا بنت الأوادم تعرفين منو هذا؟" مشيرًا إلى صورة الكاتب.

"لا.. لا ما أعرف... ما أعرف، بس أعرف شي واحد، هذا عنده لحية"

دفعني الفضول لمعرفة الرجل الملتحي، فانحنيت على التنور لأجد نصفًا من وجه الكاتب الروسي تشيخوف يحترق مع طائره

النورس. التفتُ متطلعة في ما يدور حولي فوجدت مجموعة من الكتب في كومة على الأرض لرجال ملتحين أنقذهم أبي من جحيم تنور أمي، من بينهم أرنست همنغواي، سَلِمَ من النار لأن الشيخ كان يركب البحر، وبعد مشادة بينهما طلبت أمي من أبي أن يحفر حفرة في الحديقة ويضع الكتب المتبقية في تنكة ويقبرها في التراب.

راح أبي يجمع الكتب وبين ساخر ومغتاظ يصفّها في التنكة ويردد: "لا حول ولا قوة إلا بالله، عبالهه كل واحد عنده لحية هو ماركس أو لينين، حتى ما تعرف منو هم، سامعة شيوعيين وخلص!"

صدقت نبوءة أمي، فجاء زوار الليل وفتشوا قبل كل شيء عن الكتب وكنت أشارك كبرى أخواتي المتعلمات غرفتها فلم يجدوا إلا كتب المدرسة وبعض الكتب التي لا وجود لصور ملتحين على أغلفتها كقصة مدينتين والأرض الطيبة وكتب طه حسين ونجيب محفوظ. أما أبي فقد احتفظ بثلاثة كتب هي: "رأس المال لماركس وحياتي لهتلر والكتاب الأحمر لماوتسي تونغ" تحت وسادته.

كانت أمي تزور تنورها بين الحين والآخر وعلى وجه التحديد قبل أيام الزيارات إلى سجن الحلة لتحضّر الخبز باللحم لأحد أخوتي. وكان نصيبي منها خمسة عشر رغيفًا، يوم عدت من المدرسة في عصر ربيعي فاحت رائحة القداح فيه، فوجدتها حزينة والدمعة تترقرق في عينيها، تجلس جنب التنور وأمامها عجين الخبز

باللحم الذي كاد يطفح من الطبق. لكم كانت فرحتها عظمى بوصولي فصاحت بصوت حنين حزين:

"همزين جيتي يمه.. خواتك اليوم عدهن شغل إضافي بالمدرسة وباچر المواجهة ونروح للسجن، تعالي.. ساعديني.. لا تخافين من النار!"

بينما كنت أخلع الزي المدرسي كانت قد أضرمت النار في التنور، وربطتْ ذراعي وشعري، وكنت أجد متعة كبيرة وأنا ألصق رقاقة خبز اللحم الواحدة تلو الأخرى على جدار التنور المتوهّج، وكأنني أقوم بعمل جبار مازلت أفخر به حتى اليوم.

برد التنور بعد آخر زيارة للسجن في ربيع سنة ١٩٦٥. أما المفارقة الغريبة، فإن أخي بعد الإفراج عنه، رُزق بابنه البكر في الثامن من شباط عام ١٩٦٦ ليظل يحتفل بهذا اليوم طوال حياته.

ظل التنور بلا خبز ولا دعاء. صار رماده كالماء الزلال يطفئ شبق نار الفتى المراهق، فبقفزة واحدة عليه، تكون صورة ابنة الجيران ماثلة أمامه بلحمها ودمها، ويروح يختلس النظر من بين فروع الأشجار إلى سيقانها وجزءًا صغيرًا من فخذيها وهي تنحني على الغسيل لتنشره، ثم تدخل الدار متغنجة في مشيتها. ترتجف أوصال الفتى فينط من على التنور خائبًا وبقع السخام ترقط أنفه ويديه. كنت أكتم ضحكاتي بينما أتلصص عليه من شباك غرفتنا،

وقبل أن تبدأ المشادة بيني وبين أخي الذي كان يخشى من أن أبوح بسره، ارتفع صوت المذيع ليعيد بي إلى عراق اليوم قائلاً:
"شر البلية ما يضحك، يعني هذه السيدة أحرقت أثاث بيتها حتى تشعل النار بالتنور لتطعم عائلتها في هذا الزمن الذي صار التنور فيه قطعة من التراث الشعبي العراقي".

بودابست

٩- ١١-٢٠٠٦

الناظور

تمددتُ على سرير العمليات الصغرى بعد أن تم التخدير الموضعي للحنجرة والقصبة الهوائية لإجراء فحص بالناظور للرئة، وبالرغم من رهافة ورقة الطبيبة ونعومة صوتها وحجمها الضئيل، إلا أنني شعرت وكأنني بين يدي جزار، أو بالأصح كنت أشبه بالدجاجة التي كان يذبحها أبي أو أحد إخواني عندما يمسك بجناحيها مرتكزًا بثقله عليهما، يخرج لسانها قاطعًا رقبتها ليروي تعريشة العنب بدمها. قبل البدء بالفحص وضعوا غطاءً على عينيَّ مُدَّعين بذلك خوفهم من أن يدخل فيهما سائل أو شيء آخر، أو ربما لكيلا أرى ما يجري حولي ومعي. طالبين مني أن أفكر بشيء جميل. وبذلك كانوا قد أسدلوا الستار على النور، فاظلمّ المكان. أدخلوا الناظور كأفعى تبحث في تجاويف شجرة عن غنيمة، فرُحتُ أتلقف الهواء، وركبتاي ترتعشان لكني لم أقو على رفع يدي كما رفعتها في طفولتي للضرب على جدار الغرفة المعتمة مستغيثة بأمي التي جاءت راكضة لاهثة لتصيح:

"روحوا صيحوا أخوكم.. أبوكم، البنية صار بيهة خنّاق"

حملوني وأسرعوا بي إلى الطبيب الذي تساءل عن الظرف الذي سبب المرض. فرد أخي ضاحكًا:

"يابا طلعت بالمظاهرات، وتگول أختهه: كانت تمص ليمون حامض وتهتف".

عندما قامت الثورة في الرابع عشر من تموز في عام ١٩٥٨ كنت وأختي في ناحية الكفل عند جدتنا حيث كان خالي مديرًا للناحية. كان اسمه مطر، لكنه لم يكن معطاءً كالغيث، فلم يُرزق بطفل حتى من زوجته الثانية "وسيلة" التي تركته بلا وسيلة للإنجاب، لأنه أراد ضربها كما اعتاد فعل ذلك مع الأولى كلما غضب، بالرغم من طيبته التي لم نعرف لها حدودًا. لكن جدتي كانت مصرة على أن الزوجتين عاقران، وعلى حد قولها:

"مطر كلشي ما بي راح لبغداد، فحصوا وشافوا بزره يُنغُش".

في ذلك الصباح التموزي سمعنا صوت خالتي تنادي:

"مطر.. ولك دادة مطر افتح الراديو ثورة.. ثورة بالبلد!!"

ركضنا نحن أيضًا ملتفين حول الراديو ونشيد الثورة يعلو في الفضاء.

الله أكبر فوق كيد المعتدي..

"قولوا معي.. قولوا معي.. الله.. الله أكبر"

الله فوق المعتدي..

وفرحنا لفرح الكبار، ولا أدري من أين جلبت خالتي المداليا التي زُينتْ بصورة جمال عبد الناصر لتتدلى على صدورنا، بعد أن تُلبسنا أجمل الأثواب خارجين العصر إلى الشارع مفتخرين بها

أمام الناس، وكأن خالي وجمال عبد الناصر صانعا الثورة. أحببنا مع الكبار أيضًا الزعيم الأوحد عبد الكريم قاسم. وأصبحنا كالببغاوات نردد ما يقوله الكبار، ونجلس معهم جنب الراديو منصتين إلى خطاب الزعيم الذي مازلت أحفظ مقاطع منه:

"أيها الشعب إنني منكم وإليكم، وأعاهد الله على أن أكون مخلصًا لكم.. الخ..."

ذات يوم وبعد حوالي عام على الثورة رأينا صورته في القمر - والغريب وأنا في هذه السن مازلت أرى الصورة نفسها في القمر - البدر الذي خدر عقولنا الصغيرة، وتحول حب عبد الناصر إلى كره شديد وأقاموا الدنيا وأقعدوها، ونحن الأطفال لا نفقه سر ما يدور حولينا. كنا نركض في الشوارع كالمعتوهين وليس هناك من يصدنا ويعيدنا إلى بيوتنا. هتفنا لعبد الناصر ثم شتمناه عندما جاء الخبر عن اغتيال الزعيم الأوحد فخرجنا إلى الشارع باكين هاتفين:

"ماكو زعيم إلا كريم"

"عزّوا جمال عفلق الحوراني"

كنت أعتقد أن الأسماء الثلاثة هي واحد.

ويهتف جمع آخر:

"عاش الشعب السوري عاش.. بقيادة خالد بگداش"

كنت أشعر بجفاف في حلقي فأرطبه بين هتاف وهتاف بقطرات الليمونة، حتى بح صوتي. تعب الجميع وانفضّت المظاهرات،

وتناثرت جموعها كأوراق الخريف فعاد الصغار من ذلك المهرجان منهكين، مكللين بنصر الأبطال. لقد شاخوا في طفولتهم.

لم يعنِ وجودنا أو غيابنا شيئًا للآخرين، فالجميع مشغولون بالفوضى وزعيمهم الجريح. جرجرتُ قدمي اللتين أضناهما الركض، وداستهما الأقدام العملاقة، صاعدة إلى غرفتنا الصغيرة، فتمارين درس الحساب في انتظاري، وبينما كنت أضرب الأرقام بعضها ببعض، أحسست بضربة مطرقة تهوي على رأسي طارحة إياي في الفراش. إنها الحمى، فادلهمت الحجرة، ولم استطع ازدراد ريقي وغبت في كابوس أفقت منه وأنا أنهش الجدار بأظافري التي لم تقدم لي في هذه اللحظة عونًا في خضم الألم.

"عليكِ بالاسترخاء سنخرج من الرئة، شكرًا على صبركِ.. اهدئي.. اهدئي!"

امتزجت الأصوات، ورددتُ على الأسئلة الثلاثة في آن واحد.

صوت أمي: تطلعين بعد بالمظاهرات؟

صوت ابنتي وهي في العاشرة من عمرها: ماما.. تقبلين آني هسه أركض بالشوارع بالمظاهرات ويّه الكبار؟

والطبيبة تمسك بيدي بحنو متسائلة: هل آلمك جدًا حينما اقتطعت عينة من الرئة؟

انسابت من عيني دمعة، رادّة على جميع الأسئلة بحرفين "لا".

بودابست

تشرين ثاني – نوفمبر ٢٠٠٦

جميلة

كنتُ جالسة أراقب وجه زوجي الذي ملأه الفخر والإعجاب وهو يصفُّ العدد الكبير من الكتب على الرفوف، وكنت أحسده على مهارته في ترتيبها بشكل جميل حسب تصنيف موضوعاتها. وعندما رآني أتتبع حركة يده وهو يرفع ويحط ويغير، توقف للحظة قائلاً:

- وحتى قبل أن ينهار الاتحاد السوفييتي، كنت أفصلها عن بعضها البعض كلٌّ حسب البلد التي انحدرَ منه الكاتب وكِتابه. لم أخلط قط بين الأدب الروسي و القرغيزي مثلاً.

وقفتُ بدافع الفضول لأقرأ عنوان الكتاب الصغير الذي يحمله بيده قبل أن يدسه بين الكتب القرغيزية، وكان "جميلة" للكاتب القرغيزي جنكيز آيتماتوف. اختطفته من يده، فتحته باحثة عن جملة وُضِعتْ في ترجمة النسخة العربية على الصفحة الأولى "أجمل قصة حب". لم أجدها، لكني وجدت نفسي في بيت أختي الكبرى وجرس الهاتف يرن، رفعتْ أختي السماعة، شاحبة الوجه وهي تلوّح بيدها قائلة:

- تعالي بسرعة هذا واحد اسمه "دكتور فاضل البراك يريد يحچي وياچ".

- مرحبه اعتقال، آني فاضل البراك مدير المخابرات، إذا ممكن تتفضلين عدنه.

- ما أجي.

- اعتقال! صدقيني آني دكتور فاضل البراك.

- أي وشنو يعني؟ ما أجي. كافي تجرجرون بيه.

وبينما كان يحاول أن يقنعني بالذهاب إليهم، كانت أختي تلطم خديّها وتردد بصوت مكتوم.

- لا تجاوبيه بهذا الأسلوب، راح يقتلوچ ويقتلونه!.

وحسب الاتفاق على الموعد، وقفتُ قبل ظهر اليوم التالي على الرصيف المحاذي لمدخل مبنى الإذاعة والتليفزيون انتظر السيارة الخضراء التي تحمل علامة الصيدلي أو الطبيب.. نزل منها رجل ذو عينين خضراوين ولون شعره قريب إلى الشقرة منه إلى البني الفاتح ناطقًا كلمة السر:

- أرسلني الدكتور.

خطوتُ نحو السيارة لأجلس في المقعد الخلفي، لكنه سبقني بفتح الباب الأمامي لأجلس إلى جانبه. وقبل أن ينطلق دفع شريط الكاسيت فارتفعت منه موسيقى كلاسيكية جميلة جدًا، امتزجت برائحة العطر الرجالي الذي فاح في هواء السيارة.

بدأ الشك يوسوس في صدري عندما راح يلف ويدور في فروع شوارع عديدة، بينما كنت أعلم أن مديرية الأمن تقع قرب شارع النضال في منطقة العلوية كما أتذكر. لكني انتظرت لفترة ثم سألته:

- وين رايحين؟

نظر إلي بطرف عينه وابتسامة غريبة، وبلهجة معاتبة قال:

- حتى لا يشوفوكِ الناس وبعدين تقولين يومية مجرجريني للأمن والمخابرات!

بعد كل اللف والدوران، لم أجد نفسي إلا أمام باب صغيرة في باحة لبناية لم أعلم ما هي. نزل مسرعًا فاتحًا الباب مشيرًا إليَّ بالدخول. لم أتوقع أن أرى خلف هذه الباب حجرة صغيرة جدًا، صُممتْ بذوق راق، غُلفتْ جدرانها بنوع من الورق المجسم بلون البيج، أثاث قليل لم يتعد بضع خزانات ومنضدة كبيرة، أمامها كرسي يجلس عليه (الضيف) المستدعى. وخلفها جلس رجل أسمر وسيم، يرتدي ملابس تتدرج ألوانها بين البيج والبني والتي كادت تتلاشى في ألوان الغرفة. ابتسم مستقبلاً إياي بسؤاله:

- والله يا اعتقال أنتِ ينرادلك اعتقال! ليش سمّوكِ اعتقال؟

- لأن ينراد لي اعتقال - قلتُ مبتسمة ولم أرد على سؤاله.

لم يتحدث ذاك الرجل عن سبب استدعائي إليهم وظل يسترسل في كلامه عن البرنامج الذي أقدمه وإعجابه به، وبدأ يروي لي عن

الأستاذة القرغيزية التي أشرفت على كتابة أطروحته عندما حصل على شهادة الدكتوراه في العلوم السياسية في الاتحاد السوفييتي، مُعبّرًا بفخر عن إعجابه بانتمائها إلى قوميتها وتمسكها بها وكيف كانت تصاحبه إلى منطقة "بانوراما" حيث سقط الآلاف من الجنود في سبيل الوطن، ثم استدرجني إلى الحديث عن البرنامج وإن توفرت أفلام قرغيزية، لماذا لا نقدمها؟ فرحتُ لسؤاله، ورحتُ أحدثه عن فيلم "جميلة" الذي مُنعَ عرضُه في التليفزيون لأنه يعرض الخيانة الزوجية. وفجأة دق ناقوس مُلحٌّ في رأسي فقطعتُ الحديث لأسأله عن سبب استدعائه لي فقال معاتبًا بأسلوب مهذب:

- بسبب شكوتك ضدنا، اتصل السيد النائب بي حتى يعرف التفاصيل.

لم أعلّق على ذلك وسألت عن إمكانية المغادرة. اندهشت عندما رد على الفور:

- طبعًا.. طبعًا تگدرين تروحين.

خرجت بدون مرافقةِ أحد باحثة عن أقرب باب للخروج. وصرتُ أتلفت في جميع الاتجاهات، مستنشقة هواء الشارع وزافرة بقوة هواء الغرفة الأنيقة. رحت أفكر:

"يا للغرابة! لماذا لم يسألني عن سبب شكواي ضدهم؟ ربما لأنه كان على علم بما يدور حوله، أليس كذلك؟"

في تلك اللحظة، لا جدوى من تحليل الأمور أو الموقف الذي يوضع فيه الإنسان البريء والذي يظل يتساءل دائمًا: ما الذي فعلتُه، وما هو الذنب الذي اقترفته كي يفعلوا بي كل هذا؟ يبدو أن فرانس كافكا محقًا بقوله "يولد الإنسان متهمًا".

آه.. لأترك كل هذه الأفكار جانبًا، المهم أنني أسير الآن طليقة باتجاه مبنى التليفزيون لأن عملاً في انتظاري عليَّ إنجازه. لم أخبر أحدًا بما حدث. عدت إلى مكان عملي وكأن شيئًا لم يكن. والغريب في الأمر لم يسألني أحد في العمل أيضًا عن سبب غيابي خاصة وأنهم كانوا دائمي البحث عن مكان تواجدي، كي يسجلوا كل صغيرة وكبيرة. بعد مضي نصف ساعة كان وقت الدوام قد أشرف على نهايته. لملمت عدة عملي في المنحت. حملت حقيبتي عائدة إلى البيت.

مرت أيام الأسبوع بسلام بين النحت والتحضير لحلقة جديدة من البرنامج، وقبل أن نبدأ باستدعاء ضيف للبرنامج، فوجئنا باستلام أمر من "ناس كبار" - على حد قولهم - لعرض فيلم قرغيزي اسمه "جميلة".. اندهشتُ للخبر، كيف يمكن عرض فيلم وُضع على قائمة الممنوعات؟ كان عليَّ أن أحتفظ بسؤالي لنفسي لأنه أمر يجب تنفيذه. لكن البهجة رفرفت في صدري.. وأخيرًا سيرى الناس فيلم أجمل قصة حب.

كان نهارًا ربيعيًا دافئًا، يبعث الغبطة في الروح محفزًا على العمل. كنتُ في قاعة قسم النحت "مكان عملي" أصب الجبس في قوالب لرؤوس دُمى ستستخدم في عمل تليفزيوني، وإذا برئيس قسم الديكور الذي لا يطيق رؤيتي يركض مناديًا على أحد الموظفين ليبحث عني وبسرعة قائلاً:

- أركض شوف وين اعتقال اتصلوا بينه يريدونها!

لم يكن لدي الوقت الكافي لتغيير ملابس العمل ولا حتى لأخذ حقيبتي اليدوية. ركبت السيارة التي انتظرتني أمام باب مؤسسة الإذاعة والتليفزيون وانطلقت بي مباشرة حتى وجدت نفسي أمام القصر الجمهوري.

نزلت من السيارة، توجهت نحو باب البناية. كنت أعرف الطريق لأنني سبق وأن تشرفت بمعرفتها من قبل، فالاستقبال يبدأ عادة عند غرفة السكرتير الأول. وقفت عند الباب المفتوح وإذا به يسأل:

- نعم... ليش جاية؟

- ما أعرف.. إنتو طلبتوني.

- تفضلي گعدي.

قالها وكل مسامة من جلده تفرز احتقارًا للمقابل. لكنه فوجئ بترحيب الرجلين بي. كانا من الرجال المهمين في وزارة الإعلام، حتى أنني عندما رأيتهم فكرت:

- والله يمكن راح يكرّمونا.

جلست على الكرسي المجاور للسكرتير وقريب من الرجلين، وراحت عيناي تجيلان النظر في جدران الغرفة الكبيرة التي زينتها لوحات الرسامة سعاد العطار، فأينما التفتُ، رأيتُ كاميرات صغيرات جدًا ثُبتتْ في زوايا عديدة، وكنت أتخيلهم، كيف يتفرجون علينا في داخل القصر، فبدأت أنبش الجبس لأزيله من تحت أظافري ومن قطيفة بنطلوني. مرّت الدقائق بطيئة كالاحتضار. تطلعت إلى كومة الصحف على منضدة السكرتير فطلبت إحداها، ليس من أجل قراءتها، بل لأغطي وجهي بها أمام عدسات الكاميرات المبحلقة في وجوهنا والراصدة لكل حركة نقوم بها. وفجأة وصل رجل شارف على الستين من عمره شاحب الوجه، محني القامة، خوفًا أم هكذا كانت قامته أصلاً، مرتجف الصوت:

- سلامٌ عليكم، يابه أنتم طلبتوني.

لم يعرف السكرتير الأول غير جملة واحدة:

- إي تفضل أگعد.

صار عدد المتفوقين أربعة - فكرت - وقبل أن أتخيل لحظة التكريم، قدم شاب في العشرينات من عمره ببدلة سوداء رسمية. فتح فمه، لكن السكرتير سبقه بذكر اسم أول المتفوقين بيننا حسب وصوله، فرد ذو البذلة السوداء والوجه الغبي:

- لا.. هي.. هي أول وحدة.

اصطحبني عبر ممرات عديدة حتى توقف أمام باب فتحه دون طرق، وأشار إلي بالدخول. كانت أشبه بقاعات الاجتماعات لكِبَر حجمها، خطوتُ مباشرة نحو أربعة رجال كانوا يجلسون على أرائك مريحة ويخوضون في حوار لم أفهم منه كلمة واحدة في تلك اللحظة. تفحصتني ثماني عيون حد التعرية، حتى قال أحدهم:

- هناك.. هناك روحي!!

قاموا جميعًا متجهين نحو منضدة كبيرة خصصت بالفعل للمناقشات. تَصدّرها رجل نحيف جدًا وكأن جلده قد تيبس على عظمه، له شعر أحمر يثير القرف. جلستُ إلى جانبه، وبقربي جلس رجل قصير القامة، بدين بعض الشيء، وفي قبالتي اثنان ضخمان قياسًا إلى الآخرَين. بدوتُ بينهم ضئيلة الحجم. وبدأ الرجلُ اليابس مراسيم التكريم.

- الاسم، وشتشتغلين؟

ردّدتُ اسمي مضيفة:

- أعمل نحاتة في قسم الديكور في تليفزيون بغداد.

اندهش الرجال الأربعة ناظرين إلي باستغراب وصاح رئيسهم:

- شنووووو؟

بالطبع لقد تعمدت تجنب ذكر البرنامج كي أرى رد فعلهم، لكني أرحتهم حينما قلت:

- وأقدم برنامج اسمه "السينما والناس".

- آها.. تمام.. حسب التقارير اللي وصلتنا، تقول: إنتي قدمتي فيلم شيوعية ماركسية في يوم المولود النبوي.

في ذلك اليوم فقط، عرفت أن الفيلم مؤنث بلغة القصر الجمهوري. كل شيء خطر على بالي وأنا أزيل الجبس من أظافري إلا هذا الموضوع، فما كان علي إلا أن أرد بسؤال زاد الطين بلة.

- وهو شوكِتْ كان المولود النبوي؟ لأن سجلت البرنامج قبل أسابيع.

فوجئ الرجل اليابس ووجدها ذريعة جديدة لاتهام جديد فصاح:

- ها! شوفو ما تعرف شوكت عيد المولود النبوي.

قاطعته في الحال:

- لا.. طبعًا أعرف، ١٢ ربيع الأول، بس آني أقصد شوكت صادف عرض الفيلم قبل كم أسبوع؟

- ما نعرف، قلت بيوم المولد النبوي.

- أصلاً آني كنت بالحلة عند أهلي بيوم المولد النبوي وما أتذكر شوكت انعرض الفيلم. - أجبته -

وفجأة هب أحد الرجلين اللذين كانا جالسين قبالتي قائلاً بلهجة تذكر بشخصيات المسلسل التليفزيوني العراقي الشهير "گهوة عزاوي":

- يابة هاي إنتي شلون طالعة بالتلفزيووون، وگاعده بالحلة عند أهلك بنفس الوقت؟

قبل أن أفتح فمي لكزه جاره وبلهجة المعلم حين يوبخ تلميذه قائلاً:

- مو گالتلك أسجل البرنامج.. (كانت تنقص جملته من طريقة رده عليه كلمة "يا حمار") ثم أردف إلي سائلاً:

- إي شنو ردِك؟

- صح، هو المفروض كان لازم يعرضون فيلم عربي مثلاً "وُلِد الهدى" أو أي فيلم مشابه. أما فيلم "جميلة"، فما عنده أي علاقة بالشيوعية أو الماركسية لأن أصلاً هو قرغيزي وبعدين هم مسلمون مثلنا وحتى أنهم في الفيلم كانوا يرددون عددًا من السور القرآنية. إضافة إلى أنه مأخوذ عن قصة كتبوا عنها أنها "أجمل قصة حب في العالم". انتفض ثانية شخصية "گهوة عزاوي" متسائلاً:

- وليش هو بيوم المولد النبوي يطلعون قصص حووووووووب؟

- وليش هو النبي محمد كان ضد الحووووب؟ - سألته -

شعرت وكأن الغرفة ترتج من قهقهة الرجال الأربعة، فرحت أداري اضطرابي وقلقي كي أخفف من عبء تهمتي العظمى فواصلت شرحي:

- لا.. لا.. أقصد فعلاً.. يعني.. كان النبي محمد ينادي بالمحبة والسلام والحب..

سكتوا جميعًا للحظات متطلعين إلى بعضهم البعض، ثم أنهى الجلسة المعلم الصارم قائلاً:

- زين.. خلص.. گومي روحي.

وفي تلك اللحظة داهمت رأسي أمثال شعبية كانت أمي ترددها دائما، بنيتُ على أساسها قوتي، لذا لن أغادر قبل أن أقول ما يجول في رأسي.

- ممكن أسأل؟

- ممكن - ردوا بصوت واحد -.

- هناك معد برنامج، ثم مدير تليفزيون، وقسم التنسيق إضافة إلى لجنة مراقبة تفحص البرامج قبل بثها، وبعدين مدير عام للمؤسسة يشغله الآن وزير الثقافة والإعلام الأستاذ سعد قاسم حمودي... ليش تستدعوني وحدي؟

لقد بدا السؤال مستفزًا للمعلم الذي يجلس قبالتي فرد بعصبية:

- إحنه ما علينه باليشتغل برّه الشاشة... علينه باليطلع يحكي بالتليفزيون.

سكتُ أنا أيضًا. وقفت متجهة نحو الباب، وعيون الذكور الأربعة مصوبة نحوي كالسهام. ممر شبه مظلم، هل هي عتمة الروح أم أنهم تعمدوا تعتيم المكان؟ أين المُرافِق ولماذا لا يقودني إلى من حيث أتى بي؟ يا إلهي! أين أولّي وجهتي؟ لأجرب جهة الشمال. ممر آخر أفضى إلى عتمة جديدة. كنت كالفأر الأبيض أتخبط في

متاهات صندوق التجارب، حتى وصلت إلى مكان تنتهي عنده تلك الدهاليز تتوسطه أعمدة ضخمة من الرخام، اختبأ خلفها مجموعة من المراهقين ببدلات سوداء وكأنهم يحتفلون بأحد الأعياد، كانوا بين لحظة وأخرى يخرجون رؤوسهم مشيرين إلي ضاحكين، حتى بدوا كأنهم يلعبون "الختّيلة".

- شوفها... هههههه.. هاي هي.. إي هذي.. هههههه..

كان ذلك الكابوس قد أطبق على صدري، حتى حبس أخر ذرة هواء، وكان بودي أن أصرخ بأعلى صوتي:

- وين الباب يا سفلة؟!!!

بقيت أتخبط جاهدة للوصول إلى الباب، حتى أسعفني شعاع ضوء تسرب من الباب الرئيسي فسرت باتجاهه، وإذا بي أنفذ منه نحو الخارج. أغمضت عيني للوهلة الأولى لأنها لم تكن تحتمل حدة تلألؤ ماء دجلة في شمس آذار عام ١٩٧٨. فتحتها ثانية لأنعم بجمال الزهور الأخاذ.. فرددت بداخلي : "إنّا أخرجناكم من الظلمات إلى النور".

لم تكن في انتظاري السيارة التي جلبتني إلى هذا المكان.. لابد من السير حتى الخروج من بوابة وُضعت بالقرب من وزارة التخطيط عند جسر الجمهورية، بعد أن سُدت كل الشوارع المؤدية إلى القصر. فكرت لأمشي على الرصيف، وإذا بصوت جهلتُ مصدره يصيح:

- انزلي عالشارع!!

نزلت من على الرصيف.

- لا تمشين بوسط الشارع.

كانت قدماي تضربان بعضهما البعض. كنت كالحيوان الأعزل الذي حوصر في فرجة غابة يدور حول نفسه. وبعد مسافة عشرين مترًا عرفت سر تعالي الأصوات والخوف من امرأة لا تحمل حتى حقيبة يدوية. وصل السيد النائب بسيارة سوداء. نظر إلي وارتسمت على شفتيه ابتسامة صفراء.

أسرعت بعض الشيء، وكنت أزفر بقوة، يجب أن أصل في الوقت المحدد لتسجيل البرنامج ويا للمصادفة الغريبة كان اسم الفيلم الأمريكي "أركض سايمون أركض" عن الهنود الحمر. وصلت البوابة، وكانت الساعة حوالي الثانية بعد الظهر حيث خرج موظفو وزارة التخطيط، فسمعت لغطًا يتردد، كانت امرأة تقول لرجل:

- يا.. شوف هاي مو اعتقال، خطية شتسوّي هنا؟

وصوت رجل شكله أشبه بالداعر.

- شوف.. شوف جايبيهة هنا!!

ازدرت ريقي بصعوبة. حثثت الخطى داسة يدي في جيب بنطلون عملي ويا للغبطة.. وجدتُ خمسة وعشرين فلسًا فيه، وضعتها صباحًا كي أشرب الشاي بالحليب في الكافتيريا. لوحت بيدي لباص

صغير (نفرات - باب الشرجي - صالحية). توقف وجلست جنب السائق الذي فرح بوجودي ولم يقبل مني الأجرة.
استقبلني ضيف البرنامج وكان مصريًا. شربت الشاي بالحليب ودخلنا الأستوديو لتسجيل البرنامج ولأبدأ تحية المشاهدين ببنطلون العمل وابتسامة من القلب للشعب الطيب المسكين.

بينما أسير على الجسر، مرّ شريط فيلم "جميلة" أمام عيني وبالتحديد المشهد الذي فيه تدخل جميلة النهر عارية رافعة رأسها إلى السماء باكية والمطر يطهرها من الذنوب.
وها أنا أحاكَمُ من أجلها. لم أغمض عيني بالرغم من حدة بريق الماء، وتوغلتُ في عمق دجلة حتى القاع وقبل أن أغرق فيه، أنقذني صوت زوجي:
- عزيزتي! تحتاجين الكتاب، ممكن إرجاعه إلى مكانه؟
جفلت.
- ها.. لا.. نعم طبعًا.. طبعًا...

بودابست

كانون الأول 2006

الجرح

ضاقتْ بي الدار، فحملتُ سلتي وهربتُ إلى الغابة المقابلة، لكنّ صوته ظل يرن في أذني حينما قال للمهندسة المعمارية:

- أعلم أن النافذة والباب الزجاجي يكفيان لتوفير الضوء في الغرفة، مع ذلك أريد أن يكون في السقف نافذة أيضًا كي ترى زوجتي البابلية النجوم ولتشعر وكأنها نائمة على سطح دارهم في بابل.

لم يعلم، كم عانيت من السهاد وأنا أرقب ملايين النجوم التي كانت تحمل ذكرى أمي وأخواتي يوم كنّ يشرن إلى النجوم مرددات أسماءهن. كلما رأيت الدب الكبير، تناهى صوت أمي التي كانت تسميه بـــ "بنات نعش". تتألق النجوم إلى درجة يشعر فيها المرء وكأنها تنبض، وأنام برفقة ذلك النبض.

حثثت الخطى، وولجت الغابة، إنها ملاذي الوحيد التي أنفث فيها حزني وألمي، وكل ما يعتصر قلبي. أبذل طاقة في الصعود والنزول بين المرتفعات فأحدد هدفًا، هو البحث عن الفطر الذي سيستلب كل قواي، لكن رحى الذاكرة لن تتوقف عن الدوران.

تعثرتْ قدماي، وكدتُ أسقط وانحسرتْ السلة بين صخرتين، حاولت جاهدة سحبها فضغطتْ على الندبة الحساسة لبقايا جرح قديم نبتَ في الرسغ. أفلتُ يدي اليسرى من السلة وتجمدت عيناي على عود شجرة ناصع البياض ذكَّرني بلون عظم يدي الذي رأيته عندما قطعتُ يدي بشفرة النحت عام ١٩٧٦ في فرع النحت لقسم الديكور في تليفزيون بغداد. رفعته، وكان ملمسه ناعمًا كالحرير. لكنّ حجرَّي رحى الذاكرة ظلا يدوران، عادا بي إلى هناك.

كان فرع النحت عبارة عن قاعة كبيرة للعمل، إضافة إلى غرفة صغيرة تسع لمنضدتين وخزانة لحفظ آلات النحت. كنت أعمل مع نحات أدى سلوكه المقيت إلى أن أهمله تمامًا إلى درجة لم أع وجوده، لذا حملَ حاجياته وانتقلَ إلى قسم آخر، ومن هناك كان يقود حملات شتائم وتشويه سمعة وكل ما ينعش النفوس المريضة.

كانت تعمل معي النحاتة سهيلة التي أنجبت في سن مبكر ولدًا أسمته أنكيدو، وانضم إلينا النحات فراس عبد المجيد الذي كان يعمل في قسم الماكياج. كنا ثلاثة زملاء تربطنا صداقة حميمة، لكن ذلك الوضع لم يرق لرئيس قسم الديكور عبد الأمير يوسف الذي كان رئيسًا للاتحاد الوطني يوم كنا طلابًا في أكاديمية الفنون الجميلة، ونائبه ذو البشرة السوداء محمد تعبان، لذا لم تكل

أيديهما من كتابة التقارير والإساءة لنا وإهانتنا وجهًا لوجه حتى أن عبد الأمير يوسف صرخ بوجهي قائلاً:
"اللي ما يمشي معانا نبيده"

كانت سهيلة عصبية المزاج، متطرفة المشاعر، تحب بعنف وتكره بنفس العنف. كان سلوك رؤسائنا يسبب لها توترًا لم تستطع مجابهته، فقررتْ أن تنتقل من التليفزيون لأن لها عائلة ووضعها في العمل صار يؤثر عليها، لذا أوقفتْ ذات يوم مدير المؤسسة لطيف الدليمي لتتوسل إليه قائلة:
"أستاذ الله يخليك أنقلني لغير مكان، آني ما أريد أبقى هنا"
وقبل أن تُنقلَ سهيلة، كان لابد من وضع شُرطي لمراقبتنا، فاستلمنا هدية وهي النحات الفطري أبو محمد الذي كان يعمل في قسم النجارة. كان عبارة عن جلد وعظم. رجل نصف أمي، كان يسمي التشريح "تجريح" يعمل منحوتات غريبة وأراد ذات يوم أن يستدرجنا في الحديث كي يقدم تقريرًا إلى رؤسائه فقال:
"هسة هي إسمهة الناصرية... بعد منين جايبين بيقار؟"- اسم المدينة ذي قار-
كان أبو محمد يعتبر نفسه مايكل أنجلو ويفهم بالفن السينمائي أيضًا، فراح يروي لنا فيلمًا أمريكيًا حتى وصل إلى وصف المشهد الغرامي تمثيلاً:

"إجه الممثل وحضنهة، وبعدين بدى يمسد بصدرها فگالت: نو جوني.. نو! يعني لا جوني لا"

لم نستطع أن نتمالك أعصابنا، أسرعنا إلى غرفتنا الصغيرة وكاد يغمى على سهيلة وفراس من الضحك بعد أن علّقتُ على قصة أبو محمد:

"سمعتوا؟ ترجمة خوري وعبيد".

كان ضحكًا مؤلمًا لأننا أصبحنا مادة لأناسٍ أميين.

وبعد فترة قصيرة نُقل فراس وسهيلة وعدد من الفنانين الموهوبين، وبقيت وحيدة مع "أبو محمد"، وكان يصول ويجول ويقول كل ما تمليه عليه عبقريته، وكنت أتحاشى الحديث معه، خاصة وأننا نعمل في نفس القاعة. لم يجد مادة لتقريره فالعمل تمثال سومري لإحدى المسرحيات التليفزيونية، لقد أنجزته في الوقت المحدد، وتركته في القاعة مغادرة التليفزيون إلى البيت.

في صباح اليوم التالي، دخلت قسم النحت، وكان أبو محمد يدندن لحنا لمحمد عبد الوهاب. ألقيتُ التحية متجهة نحو الغرفة الصغيرة، واعتقدت أنني أخطأت المكان، لقد تحولت الغرفة إلى مخزن للوحات قسم الديكور. حملت حقيبتي وذهبت أستفسر من قسم النجارة عن طاولتي والخزانة التي حفظتُ فيها أشيائي الخاصة. أسرع رئيس قسم النجارة "أبو صباح كما أتذكر" ليبحث

عن المنضدة فوجدها في قسم الإكسسوار رادًا عليه أحد الموظفين بالقول:

"بالليل أمرنا نائب رئيس القسم محمد تعبان بأن نفرغ الغرفة لأنهم ما محتاجيهه"

فُرحتُ بالعثور على طاولتي أو بالأحرى على محتوياتها ومن بينها صور أولاد أخواتي التي التقطتها لهم وتصميمًا عملته لغلاف مجموعة شعرية للشاعر حسب الشيخ جعفر عنوانها "عبر الحائط في المرآة". نزل رئيس قسم النجارة وهو يستعر غضبًا ليضرب على فخذه قائلاً:

"الله أكبر! صار لي عشرين سنة أشتغل بهالكَرَخانة، بس بحياتي ما شفت بنت تتحمل بهذا الشكل، ولا شفت أحد سوّه بأي بنت حتى لو كانت عاهرة مثل ما يسوون بهذي البنية!"

أمر العمال بإعادة محتويات الغرفة ورحت أخرج بيدي اللوحات المكدسة. ابتسمت لأبي محمد ودخلت غرفتي. لم يكتفوا بذلك، بل كتبوا تقريرًا للمدير العام وهو أنني لم أنجز التمثال وبسببه تأجل التصوير. اصطحبني أحد العمال إلى خارج القسم ورحنا نبحث عن التمثال السومري، فوجدناه في مزبلة القسم. كاد يقتلهم هدوئي وابتسامتي. تناولت مكعبًا من مادة الستايروفورم الخفيفة التي صنعت منها التماثيل، لكني هذه المرة أخذتها إلى غرفتي الصغيرة، وبدأتُ نحت رأس امرأة ترفع رأسها صارخة، ورحت أقطع

بالشفرة بكل ما أملك من قوة حتى قطعتُ يدي ورأيتُ لأول مرة عظمًا بشريًا ناصع البياض كعود الشجرة الذي وجدته في الغابة. لم أكمل التمثال وظلت ملامحه حادة قريبة إلى القبح، لكني رأيته جميلاً بصرخته دون نعومة. صرخة الوليد الأولى هي دليل على كينونته، ونحن العراقيين فتحنا أعيننا على البكاء. فهل على العراقي أن يبكي أبدًا كي يثبت وجوده، كينونته؟

لم أجد الفطر وبقيتْ سلتي فارغة، وفجأة انساب من بين الأشجار نور غريب، أسرعت باتجاهه ووضعت سلتي على الصخور تحت شعاعه كي أجمع نورًا أرسله للوطن الذي غرق في الظلمات.
حملت سلتي أهدهد فيها النور وعود الشجر، هبَّت ريح مفاجئة تنذر بالمطر الذي سبقني إلى البيت. وضعتُ سلتي لأغيِّر ملابسي المبلولة وعدت لأجد العود يحترق في الموقد مع الذكرى الأليمة. وبقيت الندبة على الرسغ أبدًا.

بودابست

حزيران ٢٠٠٧

حمامة السلام

سبقاني إلى البيت بعد عودتنا إلى بودابست من الريف. وعندما وصلتُ كانت ابنتي بانتظاري وقد غمر الحزن وجهها مما أثار قلقي وخوفي من أن شيئًا ما قد حدث في غيابي، خوف الغرباء من سماع نبأ موت أحبتهم البعيدين.

- ماما.. ماما.. قطعوا أغصان الأشجار الكبيرة، ولو تشوفين الحمامات شلون كانت خايفة ترجف، وما تعرف وين توكّر، بس تخفگ بجناحاتهه، خاصة الحمامة البيضه، والله لو كان عندي مكان، كان خبيتهه بي.

حزنتُ لغياب أغصان أشجار الأكاسيا التي كانت تنيخ على نوافذ شقتنا الصغيرة والتي كنا نسمع عبرها هديل الفاختة، لكن ابنتي كانت تندب حظ الحمامة البيضاء التي فقدت عشها.

في عام ١٩٥٩ عاد أحد أخوتي الكبار إلى البيت، حاملاً بيده قطعة من قماش القطيفة الأسود. فرشه أمام أخواتي، ثم أخرج من جيبه قطعة طبشور وراح يرسم حمامة كبيرة بحجم قطعة القماش التي تجاوزت المتر المربع، طالبًا منهن تطريزها بالترتر الذهبي

وبالسرعة الممكنة لأن الاحتفال الأول بعيد ثورة الرابع عشر من تموز على الأبواب.

أسرعت إحداهن لشراء لوازم التطريز وبدأ العمل ليل نهار، وكنت أراقب بشغف كيفية صف الترتر الواحدة تلو الأخرى كحبات الرمان المصفوفة بشكل متناسق أخّاذ منحته إياها يد الطبيعة. كان أخي يعد الأيام والساعات ويحثهن على العمل. لم يبقَ من الحمامة سوى عينها التي أكملتها أختي في منتصف ليلة قبيل الاحتفال، وكانت البهجة تعم البيت عندما مسكوا بأطراف القطيفة السوداء التي تألقت وسطها حمامة السلام وخُطَّ تحتها بحروف من ذهب (سلم وطيد). كنت أحسبها أجمل حمامة رآها البشر، وحين أحاول استرجاع ذكريات فرح تلك الليلة، أقر بأن التأثير الكبير الذي تركته ورصعته صورة الحمامة في ذاكرتي أكبر من تأثير اللوحات العالمية التي رأيتها في متاحف العالم.

كانت حمامة السلام الذهبية كالبيرق، وكان ألقها يتماوج في هبوب تموز. انتهت مراسيم الاحتفال، وعادت الحمامة إلى عشها فقرروا تأطيرها خلف الزجاج، ثم احتلت مكانها على أحد جدران غرفة الضيوف. وكنا نحن الصغار ندخل الغرفة ليس لاستقبال الضيوف بل للتفرج على حمامة السلام. وعندما تعلم أصغر أخوتي القراءة، قلب حرف الدال في جملة (سلم وطيد) إلى الزاء.

انتقلنا إلى بيت آخر وكانت أمي تخاف عليها وكأنها أحد أبنائها، أو ربما كانت تخشى من أن تفرّ الحمامة من إطارها، فتوصي من ينقلها بأن يعتني بها كي تصل البيت الجديد بالسلامة.

بعد سنوات اختفت الحمامة فجأة وبالتحديد في عام ١٩٦٣ يوم داهم دارنا زوار الليل. وبينما هم يفتشون البيت كانت أمي ترافقهم من غرفة إلى غرفة والابتسامة المشوبة بالخوف مرسومة على وجهها مرددة بين الحين والآخر:

- والله يمه كلشي ماعدنه.

لم يجدوا شيئًا بالفعل لأن أمي بعد خروجهم زفرت بقوة وكنا نحسب آهتها كمن زال الهم من قلبه، حتى بعد أن خلعت عباءتها لتنزع حمامة السلام التي شدت بها وسطها. لن أنسى آلام ظهرها الذي حمل ستة عشر ابنا وبنتًا وها هي تحمل حمامة السلام بثقلها. بعدها لم تعد تعرف طعمًا للسلام.

في إحدى زياراتنا لأخي - رسام الحمامة - في سجن الحلة بعد نقله من نقرة السلمان مع عدد كبير من المثقفين، زجت أمي بنا وسط جمع هائل من البشر فكنا نخضع للتفتيش وكنت أشعر أن لنا أجسادًا قوية تشعّ كالسهام لتخترق البشر وتصل الهدف حيث يجلس السجناء في ممرات طويلة عند أبواب ردهاتهم فارشين البطانيات لاستقبال زوارهم بعد أن استحموا وحلقوا ذقونهم مرتدين ملابس نظيفة. كنت ألمح يد أحدهم تحت البطانية وهي

تتسلل إلى فخذ الزوجة الذي بات حلمًا صعب المنال. أمهات يبكين، وآباء يكابرون بحبس دموعهم، ولهفة الخطيبة والتوق إلى قبلة في الخفاء، وأولاد وبنات نسوا لمسة حنان الآباء، ونحن الأخوات افتقدنا محبتهم ومواعظهم وخوفهم علينا من قسوة بني البشر والحياة.

فرشت أمي كل ما لذّ وطاب من المأكولات التي صنعتها بيدها. وبخفة ساحر أخرجت يدها من تحت عباءتها وهي تمسك بطير أبيض (إنه حمامة سلام حقيقية بلحمها وريشها). اندهش الجميع للمشهد الغريب فصاح أحدهم:

- آخ!! هاي من وين طلعت الحمامة؟

- آني جبتهه لإبني، هو راد طير. (ردت بفخر)

- بس خالة شلون دخلتيهة، والتفتيش؟

- ما شافوهة، ضميتهة بمكان أمين. (قالتها وتوردت وجنتاها كصبية خجلى من أول لمسة حب).

صارت قصة الحمامة مثار اهتمام الجميع فسأل طبيب سجين:

- ممكن نعرف المكان الأمين؟

ضحكت وتلعثمت ثم باحت بسر المكان متمتمة:

- يمه انت مثل ابني، هناك حطيتها.

تعالت الضحكات وأرادوا معرفة المزيد عن (هناك)، فاضطرت للاعتراف به. وقهقه الطبيب الذي يقرب لزوج أختي الكبرى مداعبًا إياها بسؤاله:

- شلون خاله مو هذا الطير ينگر؟!

كادت تذوب من حيائها، وكانت عيناها تشعان بأمومة طافحة بالمحبة لهم جميعًا.

- يمه انتو مثل ولدي وراح أگلكم شلون.. لبست اثنين واحد زغير وواحد كبير وحطيت الطير بيناتهم.

عرفتُ وقتذاك لماذا أشعلت النور في غرفتها حتى الفجر، لقد سهرت لتخيط مخبأ الحمامة إذن.

انحدرت من عينيها الدموع وهي تقبل ابنها قبل الوداع، وكان هذا حال الجميع.

كادت عينا ابنتي تفيضان بالدموع وهي تسألني عن مصير حمامة السلام الذهبية.. بعد أن عدت إلى العراق في عام ٢٠٠٤ وجدت الحمامة في حقيبة معدنية كانت أمي قد حفظت بها أشيائي الصغيرة وبعض الرسائل والصور. طلبتُ من أختي الحمامة فردت بلهجة متوسلة:

- لا.. لا.. هاذي خليهه تبقى عدنه بالعراق!!

كانت أمي قبل رحيلها الأبدي قد سلمتها لأختي لتكون أمانة في رقبتها. وعلقت أختي ضاحكة:

- عبالي أمي سلمتني الورث.

ماتت أمي ولم تترك إرثًا غير عشرة من أبنائها وبناتها الذين بقوا على قيد الحياة، وأحفاد قارب عددهم الأربعين وحمامة سلام مسجونة في حقيبة من حديد.

- ماما.. ماما! إنتِ حزينة على الحمامة؟ وشنو يعني سلم وطيد؟؟

- أنا حزينة يا ابنتي لأننا سجنا الحمامة وضيعنا السلام.

لكنني سرعان ما انفجرت بضحك كالبكاء وأنا أردد عبارة أخي الصغير المحورة:

"سلم وطيد... سلم وطيز.. سلم وطيز"

بودابست

١٤ تموز ٢٠٠٧

الخروف العنيد

لا أحد منا يعرف لماذا رسخت في ذهنه جملة دون غيرها كان قد تعلمها مُذ كان طفلاً في المدرسة. قدحت تلك الجملة في رأسي كالومضة عندما أردت من ابنتي أن تردد بعدي بالعربي الفصيح مقطعًا من قصة قرأناها في الصف الثاني الابتدائي.

"فقال الخروفُ العنيدُ: رُحْ.. رُحْ.. الخروفُ العنيدُ لا يريدُ أنْ يعبرَ النهرَ!"

بينما راحت ابنتي تردد المقطع، أدركتُ في تلك اللحظة صعوبته، وهي تعيد وتعيد حتى بح صوتها، ثم قالت بنبرة شاكية حزينة:

- ماما.. ماما! أنتِ ما منتبهه عليّ.

عندما وصلت بودابست في نهاية عام ١٩٧٩ كان جواز سفري قد قارب على النفاد. فكرت: لابد من تمديده. وفي العام التالي حملته ذاهبة إلى السفارة العراقية. دخلتها متوجسة من رفضهم للتمديد. جلست في غرفة الملحق الثقافي الذي لم أعرف اسمه حتى هذه اللحظة. استقبلني الرجل وبيده ورقة وضعها أمامي قائلاً:

- تفضلي املئي هذه الاستمارة واكتبي لنا تعهدًا بأنك غير منتمية إلى أي حزب..

قاطعته قبل أن يكمل ما اعتدنا سماعه:

- مو صار ألف مرة كتبته.

- ما يخالف خلي تصير ألف وواحد.

كتبت (صك الغفران) وسلمته الورقة، قرأها بتمعن ثم قال:

- هاي شنو ست اعتقال مو إنتي فاهمه ومثقفه شلون تكتبين أنتمي بدون ياء؟

- مو تعرف أستاذ لم أداة جزم تحذف حرف العلة وبما أن أنتمي معتل فانحذفت الياء. (قلتها مركزة على كلمة معتل) وما كان يدور في رأسي وقتذاك هو أنهم سبب علتنا.

شكرتهم على التمديد وخرجت كاتمة في صدري فرحة أعجز عن وصفها الآن.

كانت بناية السفارة تقع في مكان جميل، على جبل يتوسط بودابست، مُطلاً على نهر الدانوب. شعرت بلسعة برد فرُحتُ أركض وكأنني أملك أجنحة كادت تخفق لتطير بي في الأعالي.

انتهت علاقتي بالسفارة وملحقها الثقافي آنذاك، حتى التقيت بسيدة مجرية بحثت عني كثيرًا مُصرة على دعوتي إلى بيتها لتخبرني بأنها عاشت في العراق مع زوجها وابنتيها لمدة ثلاثة وعشرين عامًا أثمرت تجربتها كتابًا عن العراق باللغة المجرية. كانت السيدة تتكلم اللهجة العراقية بشكل جميل مما جعل الملحق الثقافي يطلب

منها تدريسه اللغة المجرية كي يستطيع التفاهم مع الناس في الحياة اليومية.

أما الدروس فكانت عبارة عن مرافقته إلى الأسواق الشعبية وغيرها. وذات يوم ذهبا إلى سوق شعبي مشهور يؤمه الزوار من جميع أنحاء العالم للتفرج على بنايته الجميلة ولشراء ما هو مجري مميز، لكن عيني صاحبنا وقعتا على امرأة شقراء مكتنزة بعض الشيء ليشتري منها كل ما تبقى لديها من الدجاج وطالبًا منها عنوانها إن لم يجدها في السوق لكي تساعده في شراء خروف.

انتهى الدرس بشراء الدجاج. أما الدرس التالي فقد ُخصص للعودة إلى السوق والبحث عن بائعة الدجاج. ولسوء حظه كان التوقيت سيئًا وهو في الثامن عشر من نوفمبر - تشرين ثاني والذي صادف فيه عيد الاسم للسيدة التي تدعى أرجيبت (إليزابيث)، لذا لم يهدأ له بال وظل مُصرًا على الذهاب للبحث عن الشقراء أرجيبت حتى لو كانت في جهنم. وقبل أن ينطلقا اقترحت عليه المعلمة المجرية أن يشتري باقة ورد بمناسبة عيد الاسم قائلة لبائعة الورد:

- أرجو أن تعدي أغلى باقة ورد لهذا الحمار!

لم يكن من السهل العثور على مكان سكن أرجيبت الواقع في منطقة جبلية راقية. لم يصدقا عينيهما عندما وقفت السيارة عند

العنوان الذي احتفظ به. لم يجرؤ في البداية على النزول من السيارة. ضربت المعلمة الجرس فتقدمت منهم سيدة عجوز استفسرت منها المعلمة عن أرجيبت والتي عرفا منها (أنها الست أرجيبت المدرّسة) ذهبت إلى الصالون لتسريح شعرها كي تحتفل مع زوجها العقيد في وزارة الداخلية وأولادها بعيد اسمها.

صعق التلميذ النجيب، ولم يصدق ما قيل عن فاتنته التي تلطخت يداها قبل أسبوع بدم الدجاج، وحتى مظهرها الخارجي لم يدلل على تعلمها أو غناها. مضى يسوق سيارته خوفًا من العقيد، خائبًا، بائسًا لا يملك حيلة سوى أن يأمر المعلمة بمرافقته إلى قرية لشراء الخروف الذي لا يقوى أو يجرؤ على العودة إلى البيت بدونه. سلمت المعلمة أمرها لله وانطلقا نحو القرية المنشودة. وهناك بدأ المزاد بينه وبين البائع حتى استقرا على الثمن.

"لكن الخروفَ العنيدَ لا يريدُ أن يركبَ السيارة"

لقد اضطر التلميذ النجيب إلى فتح الباب الخلفية ليجبر الخروف على وضعه في مكان الحقائب، إلا أن المعلمة تراجعت خطوة إلى الوراء عندما وقعت عيناها على ما رأته مستفسرة من تلميذها بلهجتها العراقية الجميلة:

- هاي شنووو؟؟؟

- شنو شنو؟.. صندوق ويسكي. (قالها متلعثمًا)

لكنها لم تكف عن الأسئلة.

- وهاي الخيمة شنو؟

اضطرب وانفعل ثم رد بعصبية:

- غير عبالي راح آخذ معي أرجيبت.

مضى نهار بأكمله دون أن يتعلم كلمة من درس اللغة المجرية، لكن فعلته تلك هل علمته (ربما) درسًا في الأخلاق؟.

أوصل معلمته إلى دارها، دافعًا لها حسابها الذي كان يوازي سعر الخروف. لقد حان موعد الدرس القادم، لكن التلميذ كان قد نسج خطة جديدة وهي التخلص من المعلمة الكبيرة السن وإبدالها بابنتها الشابة التي تجيد قراءة وكتابة العربية مستغلاً حاجتهم المادية. لم ترفض الأم بعد أن اتفقت مع ابنتها التي وافقت بشرط أن تعلمه في بيتهم.

لم تتطور لغته بقدر ما تطورت أساليب إغوائه ومعاكسته وتحرشه بالفتاة التي خرجت من غرفة التعليم لتلقي بتلميذها خارج الشقة صارخة:

- برة.. برة!! بطّلت بعد ما أعطي دروس.

هكذا انتهت حكاية الملحق اللاثقافي كما أسمته معلمته مع اللغة المجرية ومعلمتها.

عاودت زيارتي للعائلة لبضع مرات، ثم انقطعت علاقتي بها تمامًا ومضى كل منا في سبيله حتى التقيت مصادفة بعد أعوام طويلة

بالمعلمة المجرية في سوق البراغيث الذي يشبه سوق الهرج عندنا. كنت استمتع بزيارته بعد أن تنام ابنتي بعد الغداء، هناك يسمع المرء لغات عديدة ويمكن الحصول على كل شيء. سمعتها تحاسب البائعة البولندية محاولة تخفيض سعر كمية كبيرة من صبغ الأظافر وأحمر الشفاه وفرش الشعر، إضافة إلى تماثيل خشبية شعبية صغيرة. سررتُ للقائها غير المتوقع، ودعوتها إلى شقتنا التي تبعد مسافة ثلاثمائة خطوة عن السوق.

لقد كانت تعيش وحيدة بعد زواج ابنتيها وغياب زوجها. لم يكن مرتبها التقاعدي كافيًا لعيشها، لذا بدأت بشراء تلك الأشياء بثمن بخس لتبيعها إلى صاحبة محل بسعر مضاعف، وبهذه الطريقة تستطيع دفع تكاليف دواء القلب. مضت فترة لا بأس بها وهي تكرر زيارتها للسوق ولنا حتى إلغاء السوق من الساحة وانتقاله إلى مكان بعيد عنا، مما أدى إلى قطع العلاقة من جديد.

رن صوت الهاتف، وكان صوتها غريبًا حتى أنني لم أتعرف عليه في اللحظات الأولى. طلبت مني راجية زيارتها، واتفقنا على موعد الزيارة. ذهبت بمفردي قبيل الظهيرة. فتحتْ باب شقتها الصغيرة جدًا، لكَمْ أسعدتها زيارتي، لم أتطلع حولي وأردتها أن تعلم أنها كانت مركز اهتمامي وليس المكان. منذ شهور وهي طريحة الفراش حتى أنها سئمت من حياتها قائلة بالمجرية:

- المسألة غاية في البساطة، لن أشتري الدواء وسينتهي كل شيء.

لم تستطع بيع جميع الأشياء الصغيرة، وبقيت ملفوفة بأوراقها المتعددة الجنسيات، فتحتْ إحداها ساحبة من بينها تماثيل خشبية صغيرة، وضعتْها في يدي كهدية لابنتي وكان أحدها تمثال لعروس وعريسها، والآخر لراعي الأغنام مع كلبه وتماثيل أخرى. ثم رفعتْ صندوقا خشبيًا صغيرًا، وبيد مرتجفة وأصابع مرتبكة فتحته لتخرج منه ظرفًا عتيقًا استلت منه بحذر رسالة كانت تفخر بها:

- انظري من كاتب الرسالة؟

اندهشتُ غير مصدقة ما رأيتُ. كانت بخط وتوقيع رئيس الوزراء الزعيم (الأوحد) عبد الكريم قاسم الذي وافق على زيارتها له وتكريمها.

مرت أسابيع لم أسمع أخبارها.

عاد زوجي من مكتبه، لم يبتسم كعادته، ناولني الجريدة (Népszabadság) مرددًا بنبرة حزينة:

- مع الأسف، ماتت المعلمة آجنَشْ القريشي.

عادت المعلمة آجنَش القريشي إلى وطنها بعد ثلاثة وعشرين عامًا ولم تستطع شراء قبر، لقد ذُرّ رفاتها على أرض المقبرة، ولكن أين حلَّقت روحها، فوق بلادها أم فوق العراق الذي أحبته من كل قلبها؟؟

رحلت خالة آجنش كما نادتها ابنتي وبقيت التماثيل الخشبية الصغيرة تزين رفوف غرفة ابنتي التي شبّت وستدخل هذا العام كلية الآداب قسم اللغات الشرقية. لتدرس العربية الفصحى.

طلبتْ مني معرفة ما كتبت.

لم أحكِ لها عما كتبتُه الآن... ستقرأه هي بنفسها.

ولأغيّر الموضوع سألتها مازحة: كيف سترد على الأستاذ إذا سألها إن كانت تعرف التكلم بالعربي الفصيح؟ فصاحت مبتهجة:

- طبعًا.. طبعًا أعرف... رح.. رح.. الخروف العنيد لا يريد أن يعبر النهر...

بودابست

١٥ آب ٢٠٠٧

عقال أبي

لم أكن أعلم بموعد الجلسة المحدد بالضبط، لذا تمهلت في إعداد وجبة الغداء، إلا أن صوت زوجي وهو يصيح مكررًا: "تعالي.. تعالي بسرعة!!" دفعني إلى أن أركض من المطبخ لأرى ما حدث. جلس أمام شاشة التلفاز مبحلقًا بالصورة ومشيرًا إليَّ بيده كي أنظر إلى المشهد.

وقفوا في قفص الاتهام، والصورة تغيب وتظهر بين الحين والآخر. فوضى لم نعرف سببها. ظهروا بالزي الشعبي (الدشداشة والعباءة). والغريب أن زوجي لم يفهم من الحكاية شيئًا ومع ذلك علق قائلاً: "أين ملابسهم الخضراء؟"
سأل القاضي أحدهم عن اسمه وهويته. عرَّف المتهم باسمه وأضاف بأنه فقد هويته لأنهم خلال دخولهم القاعة نزعوا عنه كوفيته (اليشماغ) وعقاله، لذا بقي بلا هوية.
هززت رأسي ضاحكة لأقول "رحمة الله عليك يا أبي، لكم كنت محقًا!...."

كنا صغارًا عندما انتقلت العائلة إلى البيت الجديد في حي بابل، والذي كان يزهو شامخًا وسط بستان النخيل. لكن الوصول إليه

سبب لنا جميعًا المتاعب وخاصة في الشتاء حينما تهبُّ رائحة الطين المتماوج تحت أقدامنا من أرض الشارع. وفي ذلك اليوم الماطر سمعنا صوت رجل ينادي طالبًا النجدة. هرولنا جميعًا نحو باب بيتنا الخارجي. وقفتْ عربة الخيول عند الباب، وكان أبي يقف خلف سائقها" العربنچي" وقد طوق رقبته بعقاله ليخنقه مرددًا:

"كلب ابن الكلب، اتفقنا على الأجرة، شلون تقلب بأخر لحظة!؟، آني مو خايف عالفلوس، بس أريد أفهمك أن الرجل كلمة."

ركض أخي ليرفع يدي أبي وينزع عقاله عن رقبة الحوذي الذي كاد يموت خنقًا..

دخلنا البيت مشفقين على سائق العربة المسكين الذي عرفنا بعد ذلك أنه أقسم أن لا يدخل منطقتنا وبالتحديد شارعنا قط حتى لو مات جوعًا.

أما أمي فلم يكن غريبًا عليها سلاح أبي. لقد شهدت ذات ليلة من ليالي سني زواجهما الأولى حكاية أخرى. كانت قلقة بشأنه ظانة بأنه لا يستطيع النوم لسبب ما خاصة وأنه كان يجوب المنطقة بحكم عمله كمختار للمحلة ولم يتهاون عن إعادة إحدى بنات العوائل المحترمة مثلاً إلى أهلها بعد منعها من الهروب مع الحبيب سفرًا "بالچتلة" آنذاك وهي كما أعتقد أشبه بالقطار.

لكن الحكاية كانت مختلفة تمامًا، ولم تعلم بها سوى صباح اليوم التالي، عندما فتح أبي باب الحمام ليُخرج منه رجلاً حاول في الليل

سرقة البيت إلا أن أبي أمسك به وكالمعتاد ضربه بعقاله، وحبسه في الحمام المعتم الخالي من النوافذ حتى الصباح ثم أطلق سراحه بعد أن قدم له القيمر والخبز ليفطر. وطلب اللص منه السماح حالفًا بأغلظ الأيمان ألا يعيد الكرة.

لقد اتخذ أبي من عقاله سلاحًا لتأديب الآخرين..

ما زلتُ أتذكر صورة يده وهو يعدل عقاله بحركة رشيقة قبل أن يضعه على رأسه، وذات يوم رحت أتفحص خيوطه السوداء اللامعة وطريقة صفها بمهارة، ثم رفعته في الهواء لأسدد ضربة على فخذي، ويا ليتني ما فعلتها. لذا كنا نخشى ارتكاب ذنب أو تجنب الركض وراءه لنطلب شيئًا منه وهو في طريقه للخروج عندما يرفع يده نحو رأسه ربما صدفة، فنعود أدراجنا لاهثين، خائفين. كبرنا ولم نعد نسمع حكايات عقال أبي، ليس عدم اهتمام، بل انشغال كل منا بهمومه واهتماماته.

في ظهيرة يوم تموزي قائظ، وقد كنتُ في السادسة عشرة من عمري آنذاك. وقبل أن تطعن المرأة خاصرة الضابط بمقصها في رواية "أفول القمر" لجون شتاينبك التي كنت أقرأها وقتذاك، فُتح الباب بقوة ليدخل أخي التاجر يرتعد غضبًا وكأنه أصيب بحالة هستيرية ستقوده إلى الجنون مرددًا:

"وين المسدس؟ راح أنتحر.. راح أنتحر"

وقفنا على أقدامنا كالجنود مرتعبين، خاصة وأننا كنا نهابه حد الخوف، لكن أمي لا تملك سوى كلماتها المعتادة:
"يمه.. يمه.. اللهم صلي على محمد وآل محمد.. شكو.. شكو.. شصار؟"

أسرع أخي راكضًا نحو غرفته ضاربًا السلم بأقدامه مصدرًا صوتًا كالزلزال ومخاطبًا أمي: "روحي.. روحي شوفي.. انفضحنا!"
تجمدنا في أماكننا، لم نعرف سبب غضبه وعودته في وقت مبكر إلى البيت، أما أمي فلم تجرؤ على اللحاق به وبقيت جالسة أمام الباب الذي انفتح بتوجس هذه المرة، ليدخل رجل يرتدي بنطلونًا فاتح اللون وقميصًا أبيض بخطوط زرقاء وقبعة فاتحة اللون.
اعتدلنا في جلستنا حال دخول الرجل الذي لم نتعرّف عليه في البداية، وبقيت أعيننا وأفواهنا مفتوحة دون حراك حتى كاد يغمى علينا عندما صفقت أمي كفًا بكف لتقول بعد أن رفع قبعته عن رأسه: "يا! وآني أسأل هذا منو.. هذا منو جوني؟"
لقد استاء أبي من تعليق أمي وتشبيهها له بجوني. هكذا بدا لها بملابسه الجديدة وبشرته الفاتحة وعينيه الزرقاوين كزرقة فيروز خاتمها. مشى نحو غرفته مكسورًا، مخذولاً من تخلف عقلية ابنه، وراح يتمتم: "طاح حظكم، ما تعرفون التقدم، تبقون متخلفين"

لم يطلب الغداء ومضى داخلاً غرفته ولم يخرج منها إلا العصر مرتديًا زيه القديم. لم يتطلع في وجوهنا.. ربما حياءً، أو كيلا نرى

علامات فشل ثورته المقموعة. أغلق الباب خلفه متجهًا نحو مقهى الجندول حيث تحتضنه أشجار الصفصاف وسيداتهن أشجار النخيل على ضفة نهر الفرات.

* * *

في أيلول ٢٠٠٧ دخلتُ المقبرة، وجدته هناك شاخصًا أمام ناظري متلفعًا بكفنه.. وكأنه نهض ليستقبلني بعد غيبة دامت أكثر من ربع قرن.. سألني عما أبحث، فقلت له عن قبر فتى مازال جسده دافئًا في الكفن.. استغرب كلامي لأنه هو الآخر نهض من لحده بعد أن ارتج قبره من ويل الفاجعة. قال اجلسي واحكي لي عن الوطن! قلت يا أبي ضاع الوطن! قال أعلم ذلك.. وكنتُ شاهدًا على بداية مسارٍ أفضى إلى الخراب والموت. قلتُ كنتَ تعرف من هو عدوك عندما وضعتَ القنبلة تحت قطار الإنجليز في الحرب العالمية الثانية، وحُكم عليك بالإعدام الذي نفذتَ منه كالشعرة من العجين. لكنك اليوم لا تعرف من العدو الحقيقي، وتُقتل بلا ذنب ارتكبتَه. قال سمعتُ خفقة جناح طائر قوي. قلت نعم إنه النورس الذي جئتُ أبحث عنه. قال أي نورس هذا؟ قلتُ حفيدك يا أبي. قال ما به؟ قلت وصوله إلى هنا هز قبرك وجعلك تنهض من لحدك لألقاك.. رحلتَ تاركًا إياه طفلاً يناغي، وجاءك شابًا.. رجلاً.. أبًا لم يسمع بعد كلمة بابا من ابنته. قال ما خطبه يا ابنتي؟ قلت قتلوه. قال لماذا وكيف؟ لا نعرف لماذا، ربما كنتَ أنتَ المذنب في ذلك

لأنك ربيتنا أن لا نسأل عن الطائفة التي ينتمي إليها من سيصبح شريك حياتنا. هل نسيتَ بأنك كنتَ في أخر ساعة قبل عقد قران بناتك تسأل: أي قاضٍ أطلب، وهل الشاب سني أم شيعي؟ سيّان عندك، المهم أن يكون شريفًا ويحافظ على ابنتك. ولنورس يا أبي أب شيعي وأم سنية لم تشفع سنيّتها لإنقاذ ولدها البكر، رحموه بطلقة في الرأس دون تعذيبه وحرق ملامحه الجميلة وعينيه الخضراوين. قال من القاتل؟ قلت لا نعرفهم يا أبي إنهم يتخفون تحت الكوفية، تلك الكوفية التي نزعتَها ذات يوم في السابعة والستين من عمرك وكم كنتَ محقًا بذلك، لأنك كنت تعرف أنك لن تمتلك في النهاية معهم جميعًا سوى كفن أبيض، ولا قيمة لكل ما يتمسك به الأحياء بادعاء أو غيره.

قال أصبحَ أبًا وما اسم ابنته؟ قلت روز وعمرها ستة أشهر.. قال ماذا ستقولون لها عندما ستسأل من كان أباها؟ قلت سنقول لها كان طائر نورس أراد أن يُحلِّق في فضاء الحرية، فأطلقوا النار عليه ومات. انتفض جسده في كفنه، وقفتُ لأسنده، فهوى في قبره.. رحت أصرخ.. أصرخ.. حتى أيقظني زعيق طائر اعتقدته النورس.. لم يكن ذلك، بل كان غرابًا أسود حطَّ على الشجرة عند نافذة غرفتنا وراح ينعق لينذر بالشؤم.

بودابست

٢٠٠٨-٨-١٣

الحشرة والتمثال

كنت أبحث بين الكتب عن مجموعة قصص قصيرة لكاتب ربما لم يعرفه لا في حياته ولا بعد مماته إلا من التقوا به قبل وبعد عزلته على مر السنين. سهوتُ وظلَّت النافذة مفتوحة بالرغم من برودة الخريف التي تدفع بالحشرات إلى اللوذ بدفء الخشب في انتظار ربيع جديد، إن بقيتْ على قيد الحياة. كان الضوء خافتًا في الحجرة فأشعلت النور وإذا بحشرة تداهم المصباح الذي فرت منه طائرة لتندس بين تلافيف شعري القصير. قفزتُ كالمجنونة أنفض شعري دون جدوى حتى أدخلت أصابعي فيه وكأنني أسرحه لأخرجها بقوة فسقطت على الطاولة تحت أشعة ضوء المصباح. ضربتها بالكتاب شاعرة بالانتصار وكأنني قمت بعمل جبار. انحنيت فوقها أحدق إليها، كانت من فصيلة الفراشات.. لونها رمادي وجناحاها مرقطان بنقاط ذهبية حتى أن الغبار الذهبي تناثر على المنضدة التي ماتت عليها وإلى جانبها يرتاح كتاب "الرعب والرجال" ليحيى جواد. هززت رأسي باندهاش مبتسمة للمصادفة العجيبة.. فتحت الكتاب فوجدت صورة التمثال عند قصة الرعب والرجال.. تذكرت وجهه...

في السبعينيات عندما كنت أعمل نحاتة في تليفزيون بغداد، كان يتردد على غرفتي الصغيرة في قسم النحت أبو فارس الذي كان يعمل في قسم النجارة، لكنه إضافة إلى ذلك كان موهوبًا وله مبادرات في النحت، كان يشبه الممثل "أنتوني كوين" إلى درجة كبيرة. يجلس قبالتي ويروي لي أشياء كثيرة عن حياته الخاصة وحياة الآخرين من عرفهم عن قرب. كان قد تجاوز الخمسين وقتذاك وأصيب بذبحة صدرية نجا منها، وأقسم بعد ذلك ألا يرى وجه الصبية ذات التسعة عشر عامًا التي أطاحت بقلبه وأنهكت جسده. وبينما هو يسترسل في حكاياته عن النساء تذكر صديقًا له، كان هو الآخر نجارًا ونحاتًا، راويًا عنه أشياء تُثير الفضول وتدفع إلى التعرف عليه عن قرب، وعرض علي أن أرافقه لزيارته بعد أن اتصل به ليأخذ موعدًا منه.. وافقتُ، وذهبنا في الموعد المحدد. دخلنا الدار مرتقين السلم المؤدي إلى حجرة منعزلة في الطابق العلوي وكان هو في انتظارنا. ارتبكتُ ولم أتذكر الآن إن كان قد استقبلنا واقفًا أم جالسًا. مد لنا يده اليسرى بينما كانت يمناه مدلاة على جنبه.. كل ما فقده الرجل من طاقة جسدية تكثّفتْ في عينيه ونظراته الثاقبة، لقد أطلق لحيته التي أضافت إليه وسامة أكثر.

في حجرته الصغيرة سرير في ركن قرب الجدار، ومائدة صغيرة إلى جانبيها كرسيان وآخر عند النافذة المقابلة للسرير، أما جهاز التلفاز فكان عند الجدار المقابل للكراسي.

رجل في الخامسة والأربعين يعتكف منذ عشر سنوات في تلك الحجرة التي كانت درجة حرارتها في قيظ تموز موازية لحرارة الشارع. طلب لنا الشاي وبدأنا الخوض في حديث طويل عن النحت والرسم والسينما مضيفًا نقده على الأفلام والنقاد و و و.... مر الوقت بسرعة لم نشعر به. ودَّعناه شاكرين استضافته لنا وكانت تلك المرة الأولى التي دخلت فيها امرأة غرفته خلال عشرة أعوام، لأني اعتقدت بأن كبرياءه لم تسمح له بأن تراه امرأة مقعدًا.

لقد أخبرني بعد ذلك أبو فارس بأنه كان مرتاحًا جدًا للقائنا، فسألته إن كان بالإمكان زيارته بصحبة أحد الأصدقاء لأنني أردت أن يتعرف عليه الكثيرون وبذلك سنخرجه بين الحين والآخر من عزلته. حصلتُ على رقم تليفونه أو بالأحرى تليفون بيت أخيه الذي يسكن عندهم. وهكذا تكررت زياراتي له بين الحين والآخر بصحبة أحد الأصدقاء. كنت أصمت لأصغي إلى حواراته مع كل واحد منهم حسب ثقافته وانتمائه السياسي وقلما رأيته يبتسم إلا حينما قال له الصديق المتحمس في خضم حوار ساخن مستشهدًا بكلمات كاتب وشاعر أسباني وكما أظن لوركا قائلاً: لكن لوركا كتب لحبيبته

"أردتُ أن أشتري لك ثوبًا حبيبتي لكن الرفاق كانوا جياعًا" نظر إلي يحيى مبتسمًا ومعلقًا على كلام الشاب المتحمس: أنا لو كنت في مكانه، لاشتريت الثوب للحبيبة.

كان يفند كلامه حينما يستشهد بهيغل الذي يتفق معه في أشياء كثيرة. وعندما سألته عن موتسارت قال:

- موسيقى موتسارت رقيقة وتصلح في قبوليات النساء - جلسات سمر نسائية - لكني أفضل هايدن بقوته وجبروت موسيقاه.

كان يؤكد على قوة اللاوعي التي تسيطر أحيانًا على الوعي لا بل تسيّره، وكنت أتفق معه على ذلك. لقد روى لي حكاية عن تجربة له مع اللاوعي:

"ذات يوم عدتُ متعبًا ومهمومًا لم أنم في سريري بل دخلت السرداب ولم أتذكر بتاتًا ما حصل، لكني استيقظت في صباح اليوم التالي فوجدت أن رسومي قد غطت جدران السرداب... لم أتذكر حتى هذه اللحظة كيف حصل ذلك ومتى. بعدها بدأت أشعر تدريجيًا بخدر في يدي حتى انشل نصفي كما ترين".

كانت الحوارات الساخنة كجو الغرفة شديد الحرارة يحتم علينا شرب السوائل وكان يضطرب لأن عليه أن يذهب إلى دورة المياه فيقف بقامته الشاهقة متعكزًا على عصاه: "معذرة... يجب أن أسحل رجلي أمامكم..."

كنت أستغل فرصة غيابه فأنهض لأتفرج على تخطيطات صغيرة تدلت على الجدار، وفي الزاوية المقابلة لسريره عُلقت مرآة رُسم عليها وجه فتاة جميلة.

سألته عن التخطيطات وكيف استطاع أن يخطط باليد اليسرى، فأخرج دفترًا ليريني أنه بعد التدريب الطويل استطاع أن يرسم بنفس القوة، عندها رأيت تخطيطًا لوجه امرأة عرفتها على الفور.. لم أسأله بل رفعت رأسي متسائلة بنظرة، ابتسم قائلاً:

"هذي أنتِ"

"متى رسمتَها؟"

"قبل أن أراكِ شخصيًا، كنت أشاهدك في التليفزيون وأخطط".

انقطعت زياراتنا له لفترة ليست بالقصيرة، حتى سألني أبو فارس عنه وأنه يود زيارته معي هذه المرة. فرح بوصولنا لكني وجدته حزينًا وقلقًا وفي تلك اللحظة شعرت بثقته بي وعمق صداقته لأنه اشتكى من وضعه العائلي أمامي، لقد نضب صبر زوجة أخيه من رعايتها له إضافة إلى أنه صار يستقبل الضيوف من النساء وهي لا تطيق ذلك. لم أره غاضبًا ومتذمرًا بذلك الشكل:

"سأضع يومًا ما حدًا لحياتي وسينتهي كل شيء".

بقينا صامتين.. حتى وصل ابن أخيه الصغير ليختبئ في حضنه وليسأل ماذا نود أن نشرب.

مسّدتُ على شعره وسألته عن اسمه. نزل الطفل راكضًا.

لم أشاهد التمثال الخشبي الموضوع إلى جانب التلفاز للوهلة الأولى. كان قد أتم نحته في فترة غيابي وكانت مفاجأة لم أتوقعها. رحت أتحسس التمثال شاعرة بنعومته الفائقة، ومتطلعة إلى صرامة وحدة تعبير الوجه بالرغم من كل تلك النعومة فسألته:

"كيف استطعت نحته وصقله إلى هذه الدرجة من النعومة بيد واحدة؟"

أخرجَ قطعة خشب رُبط عليها من الجانبين قطعة جلد أدخل بها يده المشلولة وبحركة تشبه حركة يد الإنسان الآلي عندما يصفق راح يضرب شفرة النحت التي يسيّرها بيد واحدة. حسدته على إنتاجه وصبره وروعة أعماله فرد علي معاتبًا بسؤال:

"تحسديني اعتقال على سجني وأنت حرة مثل الطير؟؟"

أحسستُ بشعور مزدوج بين الحياء والفخر، بالحياء لأنني نسيت وضعه الصحي وعجزه، وبالفخر بإنسانيتي لأنني لم أشعر بشلله وعجزه، كان هو أمامي الإنسان الحقيقي المبدع الذي لم يطق رؤية الشارع والبشر الذين تغيروا.

في طريقنا إلى بيوتنا هز أبو فارس رأسه مرددًا: كله بسبب النسوان.

أجل إن تلك الليلة المشؤومة التي سيطر فيها لاوعي يحيى جواد على وعيه يوم عاد مطعونًا بخنجر خيانة حبيبته التي خلدها بحفر

صورة وجهها في المرآة. المرآة التي يرى فيها شلله بعيني حبيبته بعد خيبته بها.

احتل وضعه حيزًا كبيرًا في دائرة تفكيري، وأثناء عملي رحت أقارن حالته مع كثير من الأفلام التي تطرح وتعالج وتحلل ثم توعز آلام الجسد إلى تدهور الوضع النفسي، وقصص العشق القديمة التي أدت إلى موت الحبيب أو الحبيبة، وحكايات أمي عن الصبية التي تحولت إلى جلد وعظم من توقها في الخفاء لمن عشقت، وكانوا يزقونها قطرات الماء كفرخ الطير.

لقد غاب يحيى جواد عن الوعي وراح عقله الباطن يوجه يده لتعبر عن آلامه في رسوم أودت بطاقته وشلت نصفه دون أن تسكت قلبه ليظل سجين غرفته بعيدًا عن كائن اسمه "المرأة".

كان لابد من إخبار صديق صحفي ليتعرف عليه ويعرفه للآخرين من خلال منحوتاته وكتاباته، خاصة وأنه كان قد انتهى من كتابة مجموعته القصصية التي لم أعرف عنوانها بعد وقتذاك. لم يخب ظني بالصديق الذي عهدته دومًا كريمًا بمساعدته للآخرين. لقد بذل الصحفي جهدًا كبيرًا كي يوصِّل فن يحيى جواد إلى الوسط الثقافي ومن ثم إلى الناس. وذات يوم التقيت الصحفي مصادفة وإذا به يفتح حقيبته ليخرج منها صورة ويضعها في يدي قائلاً:
"تفضلي سيدتي هذي صورة تمثالك!"

لم أفرح لصورة تمثالي بقدر غبطتي بخبر تصويرهم لتماثيله وسيكون حاضرًا في الوسط الفني والثقافي.

في حزيران عام ١٩٧٨ نقلتُ من المؤسسة العامة للإذاعة والتليفزيون. لقد احتاروا في البداية باختيار مكان لي فأرسلوني إلى وزارة ربما كانت وزارة الثقافة.. وها أنا أضحك الآن لأنني لم أعد أتذكر بالضبط مكان الوزارة، هل هو خرف أم هكذا يحاول الإنسان تناسي أناسًا وأشياء أو حوادث لا يريد لها أن تسكن ذاكرته فينساها أبدًا... المهم أتذكر أنني جلست في غرفة مع موظفة وكان موظفو الوزارة يأتون الواحد بعد الآخر للتفرج علي. ذكرني ذلك المشهد بمراسيم العرس عندنا عندما كانت العروس في يومها السابع تجلس على كرسي وُضع على منضدة وتغير كل ساعة ثوبًا وبألوان مختلفة وتكون الدار قد اكتظت بالبشر من نساء وأطفال للتفرج عليها. تناولت جريدة وجدت فيها موضوعًا نفسيًا عن العلاقات وبالذات عن الحب وكيف تُخدع النساء بالرجال، رفعتها لأغطي بها وجهي وأخفي اضطرابي ولأحرمهم متعة التفرج علي. ثم عُينت في مركز الحِرف والصناعات الشعبية الذي يبعد مسافة عشرين كيلومترًا عن مكان سكني، فكنت أشغل أول أو أخر مقعد في الطابق العلوي للباص وأستمتع بقراءة الكتب. وهكذا ابتعدت عن الكثيرين من المعارف والأصدقاء - على قلتهم - وانتهت زياراتي تمامًا ليحيى جواد الذي صدرت له في العام ذاته

مجموعته القصصية "الرعب والرجال" عن دار الحرية للطباعة وتوزيع الدار الوطنية للنشر والإعلان.

بعد أكثر من عام غادرتُ العراق، وعرفت أنه كان دائم السؤال عني، حتى أنه عندما عرف برحيلي قال: "حسنًا صنعت".
في النصف الثاني من الثمانينيات اتصل بي الصديق الصحفي ليخبرني بأن يحيى جواد قد مات وعلى حد قوله:
"يقال انتحر".
لا أشك في انتحاره لقد حقق ما قاله ذات يوم أمامي:
"سأضع حدًا لحياتي وسينتهي كل شيء".
تذكرت مقولة فان كوخ التي كتبها قبل أن ينتحر: "متى ينتهي هذا الشقاء؟"

لقد مات يحيى جواد والصديق الشاعر الصحفي حاملين شقاءهما في روحيهما وتاركين لي كتبهم وصورة تمثال. أما أنا فسأتركها لابنتي التي باغتتني بدخولها الغرفة لتقف خلفي محملقة باندهاش بالحشرة الهامدة على المنضدة في نور المصباح، وتقرأ عنوان الكتاب ببطء "الرعب والرجال". لقد انتشلتني من جو الكتابة، لذا تركت كتابة الذاكرة وفتحت الكتاب لأريها صورة التمثال وأقرأ مقاطع من القصة التي تتحدث عن صراع ورعب الرجال الخمسة المقعدين الذين تداهمهم حشرة أدغال في ردهة مستشفى:

"تبضت أعصاب ذراعي ذات صباح، ثم اختلجتْ وتحركتْ.. خلتها في بادئ الأمر خدعة عصبية طارئة سوف تزول بعد دقائق. أغمضت عيني، وركزت ذهني على ذراعي ثم أصدرت أمرًا:
"انفتحي.. انغلقي.. ارتفعي.. انخفضي" استجابت أولاً بتردد ووهن، ثم رضختْ وأخذتْ تتحرك حسب الأوامر".

* * *

"لم تصدر عن الشيخ أو المهندس أو الجندي أية همسة أو نأمة، كان فزعهم مضاعفًا فقد كانوا ينامون في مواقع جعلت مربع الضوء بعيدًا عن متناول أبصارهم... كانوا يسمعون ويحدسون فقط..."

أغلقتُ الكتاب، ورفعتُ الحشرة بإظفرَي رامية إياها في الفضاء. رفعت رأسي نحو السماء مستنشقة بقوة هواء الخريف ومتفائلة بشتاء قادم، وربما بربيع جديد.

بودابست

١- ١١ - ٢٠٠٨

جواز السفر

عصف بي الحنين إلى الأهل والأحبة، فرُحتُ ألوذ بالنافذةِ البيضاء التي تطل من خلالها الأخبار والوجوه - إن أمكن ذلك - أو نكتفي بالحروف والكلمات، وفي أحسن الحالات نسمع أصوات بعضنا البعض دون أن نعرف كيف تغيرت سحنات الوجوه التي شبَّت أو شاخت في غيابنا.

لم تمر لحظات وإذا بنافذتين مفتوحتين ومنتظرَيْن، نقرت بسرعة مرحبة بهما، فكان الرد سريعًا ولهفة صوت ابنة أخي الأكبر كانت أسرع وأكبر:

"هلو عمة، مشتاقتلك، قلقت عليك.. إنتِ وين؟"

"شكرًا عزيزتي، أنا بخير، كل ما في الأمر ما فتحت الماسنجر من زمن طويل، كيف الأحوال؟"

"نحن بخير، ممكن نفتح الصوت؟"

"طبعا"

فتحنا الصوت وانضم إلينا أكبر أخواتها مشكلين بذلك مثلثًا من ثلاث دول أوربية - ألمانيا، رومانيا والمجر - دخلت معهما الحوار

الذي ابتدآه وهو عن إمكانية السفر لأنها تتوق لرؤيتي خاصة وأنها رأتني أخر مرة في العراق في السادسة من عمرها.

"عمة أي جواز عندك؟"

"عراقي"

"يعني معقولة بعد كل هذي السنين وإنت متمسكة بالجواز العراقي، ليش ما تاخذين مجري؟ وبعدين ما ممكن تتحركين بهذا الجواز!"

ضحكتُ، متنهدة لأقول لها:

"شوفي عزيزتي، أنا أقسمت على أن أعود إلى العراق كعراقية بجواز سفر عراقي وبشعري الطويل.. حققت ذلك.. لندع الآن شعري ولنتكلم عن جواز السفر" وقبل أن أكمل قاطعني ابن أخي.

"عمة! جواز سفرك هذا نافذ المفعول، ممكن تشوفيه وتخبرينه؟

مددتُ يدي لأخرجه من الخزانة القريبة، فتحته عند الصفحة التي تحمل توقيع العقيد السوري قبل مغادرتي لسوريا في عام ٢٠٠٠ بعد زيارة قصيرة لها مع ابنتي وكانت أول وأخر سفرة لبلد عربي منذ خروجي من العراق في نهاية عام ١٩٧٩. هذه السفرة تلت أخر سفرة لي إلى بلد أوربي في صيف عام ١٩٨٧ يوم وددتُ السفر إلى الاتحاد السوفييتي بدعوة من أخي الأصغر كي أتعرف على زوجته وابنه الصغير. لم يكن الدخول سهلاً إلى هذا البلد إلا بعد جهد لا يوصف بالحصول على الفيزا. وأخيرًا تم كل شيء ورحت أجمع الهدايا من أشياء بسيطة وتافهة حُرموا منها. بدتْ

حقيبتي بمنظر أكياس المعكرونة وكأنني ذاهبة إلى بلد فيه مجاعة. تخيلت فرحتهم بملابس الجينز وأكياس النايلون. ركبت القطار الذاهب إلى موسكو، المدينة التي سمعنا عنها الكثير - الكثير. كانت العربة أشبه بالزنزانة بحجمها، اخترت السرير السفلي، وكنت أدعو من كل قلبي أن أكون وحيدة فيها، ربما عقدة وحياء المرأة الشرقية من أن يشاركها غريب العربة؟ وكالطفل ابتهجت عندما انطلق القطار، ركنت حقيبتي وكنت حريصة على إشغال السرير بمعطفي وديوان شعر. لم أكن أعلم في تلك اللحظة ما يجب فعله، هل أجلس على السرير أم اضطجع؟ أغلقت باب العربة - الزنزانة - لأجربه، شعرت بالكرب وكأنني في قبر، يجثم على أنفاسي السرير الفوقاني. بقيت على هذه الحال كي أخلق ألفة بيني وبين المكان. لا يمكن لعراقي تعوّد النوم على السطوح مراقبًا النجوم تحمُّل هذه العربة. لماذا أصبحنا كالغجر يلازمنا الترحال من مكان إلى مكان؟ وقبل أن أغوص في أعماق دهاليز الذاكرة، فُتحَ البابُ ليدخل المفتش. نهضت بصعوبة للقيام بالواجب.

أعدت التذكرة إلى مكانها، لكني لم أعد إلى السرير، مفضلة الخروج إلى الممر لأقف عند النافذة.. لقد أذهلني الأخضر العجيب الذي امتزج بالذهبي، كنت أظنه يعلو ويهبط ناسية حركة القطار.. تماثلت الألوان للدكنة، كم جميل لو امتلكنا أكثر من عينين، لكان باستطاعتنا فرز الألوان وخزنها كُلاً على حدة. امتدت المساحات،

هبط الذهبي ليلامس الأخضر، فارتفع نحوه، امتد.. امتد بعيدًا ليعانق الزهر في السماء الوردية. كل الطبيعة تناغمت، تداخلت.. تغلغلت في بعضها.. وأنا وحدي.

الكل يذهب، الجسور، أعمدة الكهرباء، البنايات، الأشجار والسهول لماذا أحسب الأشياء كلها تذهب؟ ألست أنا الذاهبة؟ حركة الذهاب أتعبتني، دوختني، خاصة وأن الطبيعة لم تعد واضحة ولم أعد أرى سوى انعكاس صورة وجهي في زجاج النافذة. أدرتُ ظهري لها داخلة الحجرة الصغيرة لأصطدم بالحقيبة. شعرتُ بتعب مفاجئ، تُرى هل أستطيع النوم والشباب لم يكفوا عن الحركة والثرثرة في الممر الضيق من أجل التقرب إلى الفتيات في العربة المجاورة، ألم تُحل أزمتهم بعد؟؟

لماذا سئمت القطار الذي أحببت رؤيته في طفولتي وهو يمر خلف بستان النخيل الموارب لبيتنا في حي بابل، كان أشبه بأفعى سوداء تمرق عبر النخيل. كنت أراه من الخارج فقط، ويوم دخلته وعرفته، ضجرت منه. هذه الأفعى السوداء تحمل مئات الأجساد التي تكتنز بعوالم مختلفة بتفاصيلها.

أريد أن أرتاح.. أرتاح.. استلقيتُ على السرير محدقة إلى زجاج النافذة. أصبح الظلام في الخارج مخيفًا. أغمضت عيني لكني لم أكن على يقين بأن ما رأيته كان حلمًا أم خيالاً. خيوط بلون النحاس الأحمر بدأت تتشابك لتتكور راسمة نصف دائرة ترتفع

رويدًا - رويدًا وقبل أن تتفجر في قبة السماء، ارتفعت ضحكة الفتاة في العربة المجاورة.. فتحت عيني وكان المطر ينقر على زجاج النافذة بقطراته التي تجمدت عليها نظراتي، والغريب في الأمر تعلقت قطرتان بحافة النافذة تأبيان السقوط، رحت أراقبهما حتى انسابتا راسمتين خطين اتحدا في الأسفل، بديا كنهري دجلة والفرات.

مر وقت طويل ولم يشغل السرير الفوقاني أي أحد. كنتُ مسرورة بعزلتي. فتحت الكتاب لأقرأ المجموعة الشعرية، وكان أخر بيت غفوت بصحبته "أركض نحوك.. أركض معك". الجميع يقِظون الآن، لون الفضة يغمر كل شيء، لكن خيط النحاس بدأ يشق اللون الرمادي المزرق وأنا بانتظار الانفجار. وقبل أن تتفجر الكتلة النحاسية في السماء، دخل الشرطي العربة لتفتيش جواز السفر وتأشيرة الدخول وذلك كان يدلل على أننا دخلنا الحدود. شكرني وراح يتطلع بوجهي بشكل مريب خشيت من أن شيئًا ما ليس على ما يرام، ولم أتوقع سؤاله: "تسافر المرأة العربية وحدها ولمسافات طويلة؟"

عندما سمع ردي له وربما بطريقة ساخرة دعته إلى أن يكون أكثر جدية فطلب مني بشكل حازم أن أفتح الحقيبة وراح ينبش الأغراض مقلّبًا الملابس الداخلية وقسمات وجهه تتلون بين الابتسام والغضب.

حركة شرطة الحدود ورواح ومجيء المسافرين بدد ملل السفر وصارت الغبطة تتسرب شيئًا فشيئًا للروح.. قربت ساعات اللقاء. حزمت حقيبتي وكان علي أن أبدو بمظهر حسن فرتبت حالي، وبأصابع مرتبكة حملت حقيبتي متجهة نحو الباب ساعية إلى أن أكون أول النازلين. كانت باقة الورد قد سبقت حاملها إلي، استقبلني أحد الأصدقاء بفرحة وابتسامة نابعتين من القلب. اصطحبني إلى شقتهم لأبيت عندهم حتى يصل أخي من أوكرانيا.

إذن أنا في موسكو.. المدينة التي رأيتها في عشرات الأفلام السوفييتية الرائعة. رافقتني الصديقة إلى بعض الأماكن لكني كنت أتوق إلى رؤية الساحة الحمراء ومحطات المترو الساحرة بعمرانها وتماثيلها حتى أن المرء يشعر وكأنه في متحف.

كان أخي وهو يصور الكنائس ذات القباب التي تذكر بشكل العمائم وكأنه يراها لأول مرة.. لفت انتباهي أن كل شيء في هذه المدينة كبير وشاسع، ولا يستطيع الفرد أن يعبر شارعًا إلا راكضًا قبل أن تتغير إشارات ضوء المرور. المحلات واسعة وخالية من البضائع التي يحتاجها الشخص في حياته اليومية. لا أدري لماذا راودني شعور وسط تلك الشوارع المحاطة بالبنايات الضخمة بضآلة الإنسان حجمًا وكأنه في هُوّة.

كان ترحيب الأصدقاء بي يطغي على كل شيء، عند ذاك يفقد المكان أهميته. لكنهم أرادوا للمكان أن يعيد بنا إلى العراق فالكباب

والريحان كانا حاضرين في مطعم أذربيجاني. كيف يمكن أن أصل الاتحاد السوفييتي دون أن أزور متحف الأرمتاج؟ سألت أخي.

شددنا الرحال إلى لينينغراد. تلك المدينة الساحرة بلياليها البيضاء التي خُلدت في الروايات أيضًا، تذكر بمدينة البندقية بقنواتها الصغيرة وجسورها البديعة. لم تحمل التماثيل بنايات على أكتافها بل تاريخًا بأكمله. يغلف المدينة ثراء خارجي وفقر وبؤس داخلي اكتشفناه بصحبة صديق فنان وزوجته كانا يدرسان هناك. كل ما هو جميل وساحر كمتحف الأرمتاج والقصور وما شابه ذلك يعود للقديم الذي يشهد على الفقر.

وجب على أخي الاتصال بزوجته في خاركوف في أوكرانيا ليخبرها بموعد وصولنا، كانت متلهفة ليس لسماع صوته ومعرفة أخبارنا، بل سعدت لأنها طلبت منه أن يشتري لحمًا فهي منذ ثلاثة أيام تسعى للحصول على مائة غرام منه دون جدوى وستُحرج أمامي. يجب علينا إذن شراء اللحم من لينينغراد وأخذه إلى أوكرانيا... دخلنا ما يقارب العشرة محلات لبيع اللحم عبثًا، لا يوجد في واجهاتها الزجاجية سوى صفائح المعلبات. وقبل أن نفقد الأمل خلال جولتنا وإذا بطابور طويل أسرع أخي لاهثًا نحوه، ويا للمفاجأة السارة.. إنه اللحم.. انضم أخي إلى الطابور وكان قلبه يخفق نتيجة انفعاله وخوفه من أن يصله الدور عندما تكون أخر قطعة لحم قد ودَّعت يد البائع. لم يخب أمله، لقد حصل على

ثلاثمائة غرام من اللحم الأحمر. هللنا جميعًا لفرحته، ثم ودعنا الصديق الفنان وزوجته وطفلتهما الجميلة التي تسكن معهما في دار الطلبة.. واتجه قطارنا إلى خاركوف. كانت العربة مليئة بالمسافرين وكأنهم تكدسوا على بعضهم البعض كالخراف ونحن معهم. كانت نفوس أولئك الناس تنضح بالطيبة.. عاملونا كأبناء وطنهم ظانين أننا من جورجيا التي انحدر منها ستالين. نام الجميع إلا نحن لأن العربة كانت تضج بمختلف أنواع الشخير الذي يتعذر على السامع تمييز الأصوات إن كانت صفيرًا أم خوارًا، لكنها مع ذلك بدت متناغمة وكأنها ترتفع وتهبط مع حركة يد قائد أوركسترا. كنا نضحك في الوقت الذي كان علينا أن نبكي، ومشكلتنا الكبرى هي اللحم الذي سيتعفن حتى وصولنا. لكن نباهة أخي أنقذت الموقف فاستغل وصول الجابي متوسلاً إليه أن يحفظ شريحة اللحم في مكان بارد. كان رجلاً طيبًا لم يَرُد الطلب مشيرًا إلى أخي مرافقته ليريه المكان المناسب لحفظ اللحم. ربط الكيس بخيط وشده على نتوء حديدي من خلال فتحة تحت مقعد السائق. وهكذا كانت شريحة اللحم الحمراء ترفرف في الهواء تحت خلفية السائق كالراية الحمراء.

كانت ليلة في القطار أشبه بكابوس أفقت منه على بريق فيروزتين هما عيني مكسيم ابن أخي وزوجته الطيبة وابنها الأكبر. لقد سعدوا بوصولنا، فرَحُنا المشترك غسل أعباء السفر. راحت زوجة

أخي تشكو من مرارتها في الحصول على المواد الغذائية وخاصة اللحم، لكن أخي لعب دور البطل مناولاً إياها وبفخر الثلاثمائة غرام من اللحم الأحمر. (يا فرحة ألما دامت) لقد تغير لونه إلى البني وتطايرت في الجو رائحته الكريهة. لابد من إنقاذ الموقف... لأن الجو شُحن باليأس والبؤس معًا. إذن لأريهم مهارتي وخبرتي التي تعلمتها من المجريين.. طلبت منهم إحضار الخل فنقعت اللحمة بالماء المخلل، انتظرنا فترة لا بأس بها فزالت رائحته الكريهة، طبخنا الوليمة المعدة من الثلاثمائة جرام من اللحم، أكلناه ولم يحصل لنا شيء (وما زلنا نعيش عيشة سعيدة.)

أمضيتُ وقتًا ممتعًا بصحبتهم. في إحدى الأماسي بعد عودتنا من زيارة سجن قديم يعود إلى عهد القياصرة، كانت زوجة أخي بانتظارنا بعد أن أعدّت الشاي في السماور الروسي. لا أدري كيف قرأتْ ما يدور في تلافيف دماغي، لأن صورة السجن الفظيعة لم تتركني لحظة واحدة.. ونحن نحتسي الشاي فتحتْ ألبوم الصور لتريني صور أهلها التي رافقتها حكايات عن كل فرد منها.

"هذه أختي الصغرى، تصوري عندما أردنا إدخالها روضة أطفالٍ لم تكن تابعة لحيّنا، فقدمنا طلبًا وجاءنا الرد بعد أربع سنوات كانت قد أنهت فيها الروضة و دخلت المدرسة".

أضفى التفرج على الصور والتعليق والضحك مع احتساء الشاي حميمية جو عائلي افتقدته في غربتي، حتى سكتت زوجة أخي

فجأة عندما قلبت صفحة الألبوم لتتوقف عند صورة رجل كهل، بدا كناسك شاحب الوجه، وبصوت خفيض ملؤه الأسى قالت: هذا أبي.. قبل وفاته..

سألتُ عن سنه. كان في بداية الستينات من عمره.. اندهشتُ متسائلة بلا تردد: كيف؟ لكنه يبدو في الثمانين!

"كيف؟ من سجون ستالين!"..

قالتها بصوت مرتجف اختلط فيه الأسى، الألم، الغضب والحسرة.

أحسستُ بقشعريرة تسري في جسدي وأنا أقف أمام تمثال الأم التي فقدت جميع أولادها في الحرب العالمية الثانية، كان الصوت المنبعث من التمثال يثير في الرائي رهبة كمن يدخل معبدًا. ضربات وجيب قلبها أثار في حزنًا معيدًا بي إلى أمي وذكرى من سقطوا ويسقطون في حربنا التي لم تنته بعد حينذاك، وخطفت أمام عيني صورة ابن أخي باسل (شبهه رفاقه بالمسيح) الذي استشهد في كردستان. للحظة شعرت بأنني أريد أن أصرخ، لكنني احتفظت بسؤالي داخل نفسي: لماذا ولأجل من؟؟

في اليوم التالي كان علي أن أعود إلى موسكو ومن ثم إلى بودابست، لكن المعضلة التي واجهتنا، هي عدم الحصول على تذكرة سفر، وبات الرواح والمجيء إلى المحطة طوال يومين مهمتنا الرئيسية، لكن الطامة الكبرى هي نفاذ مدة الفيزا التي ستسبب مشكلة كنت أجهل عواقبها.. وفي النهاية قررنا الذهاب

إلى المحطة ليلاً علّنا نقف في طابور حتى انطلاق القطار في الصباح. هذه كانت نصيحة مسؤولة كبيرة زودتنا بقصاصة ورق صغيرة جدًا دسها أخي عبر الفتحة الصغيرة لشباك التذاكر. قرأتها الموظفة مشيرة علينا بأن نجلس في المحطة بانتظار الفَرَج.

ركبنا القطار صباحًا، والغريب في الأمر لم أتذكر شيئًا البتة، يبدو أننا همدنا في مقاعدنا كالموتى حتى وصولنا عاصمة الاتحاد السوفييتي، المدينة التي احتضنت معالم آسيا وأوربا ونهرها الذي يذكّر بدجلة. إن منغصات الإقامة والفيزا، تداهم كزلزال لتحطم وتهدم كل صورة وذكرى جميلة يرسمها الفرد عن بلد ساحر وشعب طيب، وتظل هموم المراجعات والوساطات طاغية على كل ذرة من تفكيرك كيلا تسبب حرجًا لمن دعاك واستقبلك في بيته.

فرح الجميع بتمديد المدة لثلاثة أيام أخرى، وسنحت الفرصة لنا بلقاء بعض الأصدقاء القدامى، بينهم من كان معي في أكاديمية الفنون الجميلة وصديق من التليفزيون كان يمكن أن يكون مخرجًا سينمائيًا ناجحًا، إلا أنه كان من ضمن الذين نُقلوا من المؤسسة العامة للإذاعة والتليفزيون. غادر إلى اليمن ثم دخل الاتحاد السوفييتي مع زوجة يمنية فاتنة ليكملا تعليمهما في الفن السينمائي والباليه. كان بيتهما غرفة في دار الطلبة مع ابنهما.

خلال تجوالنا في شوارع موسكو سألني إن كنت أرغب بزيارة ضريح لينين، فكان ردي بالرفض. وبالرغم من حبي وبكائي في صغري على رائد الفضاء جاجارين الذي لقي حتفه بسقوط طائرة، لم أود رؤية قاعدة الصواريخ، لأنني تيقنت من أن مصدر فرح البشر ليس إطلاق الصواريخ وسباق التسلح، بل هم بحاجة إلى أشياء بسيطة تضمن راحتهم وتسد حاجاتهم اليومية ولن يصبح اللهاث وراء قطعة لحم همهم الأكبر.

هذا الشعب الذي فقد ما يقارب العشرين مليونًا من البشر، أدرك القيمة الحقيقية للحياة، لكنه لم يحصل على ما يستحقه عن جدارة من متطلبات العيش الرغيد بحرية كطائر يأبى السقوط.

عاد أخي إلى أوكرانيا، وأنا ولّيت وجهتي نحو هنغاريا، وكان نصيبنا من إشعاع "چرنوبيل" واحدًا أثبتته السنون.

في القطار العائد إلى بودابست، فتحت الكتاب عند قصة السيدة والكلب الصغير لأحد كُتَّابي الروس المفضلين "تشيخوف". وأنا أعيد قراءتها مرَّت لقطات الفيلم أمام ناظري حتى أنني تذكرت الضيف الذي علّق على الفيلم في البرنامج الذي كنت أقدمه. احتواني شعور الرجل الأشيب الذي رافق حلمي الذي لم يدم طويلاً. لقد داهم العربة شاب اعتقدته عربيًا أو غجريًا. بادر على الفور بتقديم نفسه بلغة إنجليزية سليمة: "محمدوف من أذربيجان"!

بادلته التحية ثم عدتُ إلى كتابي لأهمس: اللهم صلي على محمد وآل محمد!

حملق في وجهي ليسألني: مسلمة؟ - ثم بفخر - أنا مسلم.

ابتسمت لأبشره: وأنا كذلك. - مرددة في داخلي - والنِعم!

ولما لم يجد ما يشجعه على الحوار معي، خرج ليكلم كل من هب ودب ثم عاد إلى العربة ليُخرج كيسًا يحوي على مواد غذائية وليفاجئني بعصير الرمان ناطقًا الكلمة "جلّنار" وهي ورد الرمان، وباليد الأخرى الزبيب الذي أسماه بالكشمش مضيفًا: "كل شيء متوفر عندنا".

اندهشتُ لذلك واتضح لي أننا نعرف اللغة الأذربيجانية أو بالأصح الفارسية. كان الشاب الأذربيجاني كالمكوك لا يكف عن الحركة، إضافة إلى أنه شغل السرير الفوقاني وكان ينط بين صاعد ونازل وأنا في غمرة إرهاقي كنت أراه كقرد مرح يأكل الكشمش ويشرب عصير الرمان. حبستُ ضحكتي متخيلة أخوتي الكبار وهم يسألونني: منو هذا القرقوز؟

وأخيرًا عرفت سر قفزاته التي لم تؤدِ إلى نتيجة تجارية ناجحة في القطار، لذا حاول مع المسلمة هذه المرة وبدأ يفتح أزرار قميصه ليبرز لي القلائد الذهبية التي يود بيعها، لم يكتف بذلك بل راح يرفع طرف بنطاله ليريني المجموعة الأغلى ثمنًا والتي زين بها كاحليه كالخلاخل.

اعتذرت منه بأدب، وبشكل غير مباشر كيلا أحبط عزيمته أفهمته أنه لن يستطيع بيع مجوهراته، وإذا كان بإمكانه أن يهجع حتى وصولنا في الصباح. استدرت ثم نهضت تاركة العربة لأقف عند النافذة المفتوحة مستنشقة الهواء ومتمتمة: لا حول ولا قوة إلا بالله، بس لو أعرف شنو ذنبي حتى أبتلي بهذا المحمدوف؟
عدتُ إلى العربة شاعرة برغبة جامحة إلى النوم. لم أفسح له المجال للتحدث معي وأنا أردد بصوت واطٍ: نام! نامت عليك الطابوقة!

يبدو أن دعائي قد وصل، مع القطار الذي وصل هو الآخر إلى بودابست، كان الأذربيجاني ذا نخوة، حمل حقيبتي حتى باب المحطة. شكرته مودعة إياه ومتمنية له إقامة سعيدة وتجارة وافرة في بودابست التي عدت لها ثانية مع قلادة روسية طوقت عنقي بمرجان البحر الأسود.

* * *

في ذلك العام أي ١٩٨٧.. وضعت جواز سفري في الجرار.. وبعد عامين وُلدتْ ابنتي الوحيدة، ولم يعد يعنيني السفر. كنت أرى العالم في عينيها، أبحر في عالم سوادهما متى شئت فأرى سهولاً، هضابًا، وديانًا، أنهارًا وبحارًا. رحتُ أروي لها عن بلد جديها العربيين، وحياتنا هنااااك بعيدًا. علمتها رسم النخلة التي كانت

تتوق للمسها وارتقائها ذات يوم في العراق، حتى أصبحت في الحادية عشرة من عمرها.

في نهاية صيف عام ألفين ركضتْ نحوي مضطربة لتخبرني بأن أحدًا يتكلم العربية يطلبني على الهاتف. تعثرت خطواتي خشية سماع خبر سيئ. انتفض قلبي لصوت أختي الذي لم أسمعه منذ زمن طويل وهي تطلب مني متوسلة السفر إلى سوريا كي نلتقي بعد واحد وعشرين عامًا، مؤكدة على أنها فرصة لن تتكرر ربما طيلة حياتنا، خاصة وأنها لم ترَ ابنتي بعد. عبثًا شرحت لها عدم إمكانية السفر حتى أني لا أملك جواز سفر والمدرسة ستفتح أبوابها بعد أسبوع.

أخيرًا قررنا السفر كيلا تضيع علينا فرصة اللقاء. الجميع يعرف ظروفنا، وبدلاً من أن ترفض المَدْرَسة طلب الإجازة، راحوا يشجعوننا على السفر لتتعرف ابنتي ولو على عائلة واحدة من أقارب أمها، لكن مُدرّسة التاريخ فرضت عليها واجبًا وهو أن تعد مادة عن تاريخ سوريا وعمّا سوف تراه.

حملتُ جوازَيْ السفر متوجهة إلى السفارة السورية. لم نكن بحاجة إلى تأشيرة دخول.. "على أساس هو: "إننا وطن واحد ولا يحتاج العراقي لها". هذا ما قيل لي هناك. لم أكن مطمئنة لذلك، وكنت أصر على الحصول عليها، لكن النفي من قبلهم انتصر في النهاية.

جهّزنا كل شيء حتى حانت ساعة الذهاب إلى المطار. سلمنا جوازات سفرنا واتجهنا نحو صالة الانتظار قبل الطيران ورؤوسنا مستديرة صوب زوجي الذي فارقنا لأول مرة، فرأيت الدموع في عينيه. ابتسمتُ على مضض ملوحة له بجواز السفر الجديد وابنتي تردد: "خطية بابا بقى وحده!"

وجدتُ نفسي وجهًا لوجه مع مسؤول السفارة الذي أكد لي مجددًا بأن كل شيء على ما يرام وليس هناك ما يدعو للقلق.
ركبنا الطائرة وفرحنا بوجود صديق عراقي إلى جانبنا. كانت ابنتي مرعوبة من أن الطائرة ستسقط ويظل أبوها وحيدًا. كنت أربّت كتفيها شاغلة إياها بحكايات لا معنى لها.. حطت الطائرة في مطار دمشق بعد منتصف الليل بساعتين تقريبًا. تمَّتْ الإجراءات المتعارف عليها في المطارات، تلاها الوقوف في طوابير عرفتُ لاحقًا، كلاً حسب نوعية جوازه. وقف الرجل العراقي في طابور الأجانب كونه حاملاً جوازًا مجريًا وكذلك ابنتي. أما أنا فبقيت مع العرب. قدمت الجواز ولم استلمه طالبين مني الوقوف على جهة. لمحتْ ذلك ابنتي فركضتْ نحوي رافضة تقديم جواز سفرها.

غادر جميع الأجانب الذين وصلوا معنا، ولما اكتشف ذلك أقاربنا، طلبوا معرفة تأخيرنا أو التأكد على الأقل من وصولنا. نادوا بأسمائنا حتى نذهب نحو نافذة يمكننا فيها لقاء من جاء في استقبالنا. سرني وجودهم ومعرفة السبب عندما قال الضابط:

"ممكن الطفلة تخرج لأنها مجرية وأمها تبقى لأنها عراقية أو بالأصح لأن جواز سفرها عراقي".

سألتُ ابنتي إن كانت تريد الذهاب إلى بيت خالتها، فردت: "لا ماما.. آني ما أعرفهم.. جيت وياك وأروح وياك.. وإذا ما يدخلوك، نرجع لبودابست سوا".

عاد مستقبلونا إلى البيت تسبقهم الخيبة دوننا. وجلسنا نحن في قاعة الانتظار الكئيبة على كراسٍ تكاد تقصم الظهر.. وضعتُ رأس ابنتي في حضني راجية منها أن تنام قليلاً حتى يفرجها رب العالمين:

"نامي بنتي نامي..!! أمة عربية واحدة.. ذات رسالة خالدة"

لو تعلمين يا ابنتي معنى تلك الرسالة، رسالة الذل والإهانة والشعور بالدونية لمن يحمل جواز سفرهم، هكذا سيظل فحواها خالدًا ما داموا ينادون بها وينحنون احترامًا وإجلالاً لما هو مدون بلغة لم تنتم إلى ما يسمونها بلغة الضاد"..

بما كانت تحلم الطفلة وقتذاك؟ كان جسدها النحيل ينفر بين تارة وأخرى، فأربت على ظهرها وأمسد على شعرها. غادرتْ حضن أبيها معزَّزة وجاءت لتُذلَّ في بلد تنتمي أمها إلى لغته. أردتُ أن أروي لها عن المواطن في بلداننا، إلا أن صوتًا فظًا ولهجة موظف المطار الآمرة بترك المكان والذهاب إلى الجانب الآخر حيث ينتظر الكثيرون رحمة المسؤولين بالسماح لهم بمغادرة المطار، قطعوا

حديثي مع نفسي. تكوموا على المقاعد متخذين منها أسرّة لهم، وكانت امرأة فلسطينية تولول: "هادي كل مرة هيك يعملوا فينا، سلمتهم نص الشنتاية وبعدهم مش راضين، شو بدي أساوي بعد؟ لو لم يكن لائقًا لقلت لها بصوت عالٍ: "هذا جزء من تحرير فلسطين الذي تتاجر به الأمة العربية"

لا أعرف كيف تواردت إلى خاطري في تلك اللحظة مقاطع من أغاني البطولات كهذا من أغنية عراقية غنتها إن لم تخنّي ذاكرتي "مائدة نزهت" - هالعيد نعيْده ببغداد.. وعيد الجاي بفلسطين". والنشيد المصري لأم كلثوم "أصبح عندي الآن بندقية.. إلى فلسطين خذوني معكم".
كنت أشعر وكأنني عائدة إلى العراق وما ينقص المكان إلا أهزوجة "هلهلولة للبعث الصامد هلهولة.. هي.. هي". كانت قهقهات موظفي أمن المطار بين وقت وآخر توقظ المتعبين الذين ربما حلموا بإطلاق سراحهم بعد إعلان براءتهم من تهمة يجهلونها أو هكذا يدَّعون، لأن الخوف يمنعهم من أن يرفعوا أصواتهم ويعلنوا رأيهم أمام الملأ لقول الحقيقة.

لم يكن الطقس باردًا، لكننا شعرنا بالبرد لأننا لم ننم منذ ما يقارب الأربع وعشرين ساعة. كنتُ خَجِلة أمام ابنتي التي زجَجْتُ بها في عالم لم تكن بحاجة إليه، ودوامات الحزن لا تكف عن الدوران في روحي فكنت بين الفينة والأخرى أشد على يدها مؤكدة لها بأننا

سنغادر في الصباح المطار.. إلا أنها وبغريزة الطفلة أدركت من اللغط الذي بدأ يرتفع وحاجات جسمها بأن الصباح حاضر في المكان.. فطلبت مني الذهاب إلى دورة المياه. أمسكت بيدها وسرنا على غير هدىً وكأننا نشق طريقًا مظلمًا.. ثم من أين لنا أن نعرف الطريق؟ بعد بضعة أمتار داهمنا رجال الأمن زاعقين بلهجة خشنة: "شو... وين رايحات.. إنتو العراقيات مش هيك؟؟"

شعرت بأصابع ابنتي المرتاعة تنغرس في كفي. حاولت توضيح الأمر لهم دون جدوى، لأن أيديهم كانت تصدنا إلى الخلف كما يصد الراعي خرافه الفارّة من القطيع. سلوكهم أيقظ فيَ الأم النمرة فرفعت صوتي في وجوههم: "انتو متصورين إحنه نريد نهرب؟ أولاً ما نعرف الطريق، وثانيًا البنت تريد تروح للحمام!!"

نادوا على امرأة، - كانت المنظفة على ما يبدو - لتدلنا على المرافق غير الصحية. انتظرتنا مبتسمة، عرفتُ مؤخرًا كانت تنتظر إكرامها - لا أدري لماذا - ثم نفَّذتْ ما أمروها به مع رجل آخر وهو أخذنا "لهونيك". تركتنا المرأة نتبع خطوات الرجل إلى مكان يعجز المرء عن تخيل أنه جزء من المطار. جلس رجل وشرطي في نهاية الممر العريض عند واجهة زجاجية تمتد إلى جهة اليسار حيث توجد ردهة بلا باب. صُفت كراسي ومصطبات عند الجدار المقابل للنوافذ الكبيرة.. تكدست القمامة في أكوام تأكل منها القطط. لم نكن نعلم أن الأكوام احتوت البشر أيضًا.. لقد

نهض رجل من تحت كومة البطانية، أعقبه رجل ثانٍ وثالث أبى النوم على الأرض مفضلاً المصطبة. جفلت ابنتي وبنبرة قريبة إلى البكاء سألتني بالعربية:

"ماما هذولة.- وبالمجرية - hajléktalanok - مشردين؟ ليش حطونه وياهم؟"

"ما أعرف بنتي، يجوز بسبب جوازاتهم"

اثنان من العراق وواحد من البحرين، أمضوا أيامًا في الحجز دون مبرر، لقد سقطوا في فخ الوطن الواحد كما يبدو. لم يعرفوا سر حجزهم، لكنهم أدركوا أن دولاراتهم على وشك النفاد، لأن المعلومات والوعود تكلف مبالغ لا بأس بها. كانت آمال الشاب الكردي الذي خطط الذهاب إلى كردستان تذوي كشمعة تحترق ليل نهار. كان ينتفض بين حين وآخر معبرًا عن سخطه الذي لم يقو على كبح جماحه. اقترب منا الرجل الآخر ناهضًا من كومة بطانيته بصعوبة. لم نلحظ من عينيه غير شقٍ وكأن جفنيه التصقا ببعضهما أبدًا. كان ضئيلاً لأنه لم يرغب في الأكل. أدى التحية وسحب كرسيًا ليجلس مُسندًا وجهه على راحة كفه. اتسعت فتحة عينيه وهو ينظر برأفة إلى وجه ابنتي الذابل.. وفجأة أسعفته ذاكرته فتعرف علي. كان على مستوىً عالٍ من الثقافة، قدم من بلد أوربي لزيارة أخته التي ظلت تلطم صدرها من أجله، ولا من

مُعين، يدفع الدولارات ويأكل الآخرون. كانت حكايته معقدة صعبة الفهم بالنسبة له أيضًا.

أما البحريني ذو المظهر المعافى والذي لا تفارق الابتسامة شفتيه بالرغم من تشابك خيوط نسيج حكايته إذ التفَّت عليه كنسيج العنكبوت الذي لو أخرجوه منه معيدين به إلى البحرين، فلن يجد مأوى آخر غير السجن.. هذا ما فهمته من مختصر الحكاية، كان يعد نقوده خشية نفادها. ترك قضيته واهتم بابنتي فراح يعلمها ويلعب معها لعبة ترافقها كلمات سريعة، تعتمد على خفة حركة اليد ما زالت تتذكرها حتى هذا اليوم.

كانت معاملة رجال الأمن فظة تُشعرنا بالذل والاحتقار، شعرت به ابنتي بالرغم من صغر سنها. خطوتُ نحوهم ورحتُ أعبِّر عن تذمري بصوت مسموع:

"كان العراقي وجواز سفره محترمين بكل العالم، لولا نظامنا اللي قلل من قيمتنا ووصلنا إلى هذا المستوى المنحط وصار بإمكان أي واحد يهينّا بسببه... صار أكثر من عشرين سنة طالعة من العراق ومع ذلك لازم أدفع ضريبة نظام عادى العالمَ كله"

باغتني رد فعل الحارس الذي اتسعت حدقة عينيه ليقف طارحًا عليَّ السؤال:

"يعني إنتِ مش جايه من العراق؟"

"لا.. من أوربا"

انقلب سلوك الرجل تمامًا.. هل زال هم صدام حسين من قلبه.. أم السبب فرحته بالقادمين من أوربا مع النقد الأخضر؟ عاد الرجل الآخر فلمحته يُصغي إلى وشوشة زميله. تقدم منا وسأل إن كانت البنت جائعة، شكرته دون طلب شيء. سار نحو المحتجزين مدعيًا اهتمامه بمراجعة قضاياهم، وكانت الأوراق الخضر قد استقرت في جيبه.

غادرنا والبشر يطفح من مسامات وجهه، ثم عاد بالوليمة فارشًا الجرائد وواضعًا عليها صحون الحمص بطحينة الجميلة. نادى علينا جميعًا لنفطر، كان بمنتهى الحميمية يحث ابنتي على الجلوس على الأرض وتذوّق الطعام الغريب عليها. شاركناهم الطعام مجاملة. وفكرتُ.. إنهم يؤدون عملهم أليس كذلك؟ غاب المحتَجزون لفترة، ربما للاغتسال، وبقيتُ مع ابنتي. أسندتْ رأسها على صدري صامتة. أغمضتُ عيني عائدة إلى بودابست وصوت أحد الأصدقاء العرب يتردد في أذني:

"اتركي هذي الرومانسية وقدمي على جواز سفر مجري، إحنا كنا مثلك في البداية"

ثم صوت صديق عراقي في أمريكا:

"عندي جواز سفر أمريكي أروح بيه وين ما أريد خاصة بالدول العربية ينحنون قدامي، ياخذون لي تحية ويبوسون حذائي"

والشاب العراقي الذي ادعى أنه أسباني أمام صديقتي الإيطالية التي فاجأته بلغتها الأسبانية، ففر هاربًا. وحكاية بعض السيدات العربيات المتمكنات اللاتي يذهبن قبل ولادتهن إلى أميركا كي يلدن هناك ويحصل أطفالهن على الجنسية الأمريكية، - يعني يولد مُحترَم -.

وتذكرت لقاءً تليفزيونيًا مع ممثلة مصرية في حوار مباشر مع المشاهدين لاستقبال مكالماتهم من جميع أنحاء العالم. لفت انتباهي فرح الممثلة العارم حينما عرفت أن المكالمة من أمريكا، فكادت تطير فرحًا وهي تردد دون وعي منها: "من أمريكا.. من أمريكا.. ألو.. ألو.. أيوة سامعينك.. مساء الخير واللا إيه عندكم؟ صباح الخير.."

عجبًا! ما الفرق بين مصري ومصري؟ لأنها كانت ترد على من هم في أرضها بشكل رسمي: "أهلا يا فندم متشكرة خالص" قالتها دون غبطة لأن المغنية من حيّها، وليست من أرض أمريكا. أما أنا فكنت أضحك متخيلة نفسي وأنا أنحني أمام رئيس جمهورية المجر لتأدية القسَم من أجل أن أكون مواطنة صالحة وحاصلة على الجنسية المجرية، ثم إن إتقان لغة البلد لا تعني الكثير لهم أو لأي

بلد آخر حتى لو تكلم الأجانب لغتهم بطريقة "تحباني للو"* وشيريدون بعد كسبوا مواطِنة جديدة اسمها اعتقال التي تحوَّل اسمها إلى إتكال وهي لم تتكل على أحد قط، وشتان بين المعنَيَيْن. "كنتم خير أمة أخرجت للناس"

لأختبر معلوماتي في قواعد اللغة الأم! كان فعل ماضي ناقص، تدخل على المبتدأ والخبر فترفع الأول ويسمى اسمها وتنصب الثاني ويدعى خبرها. التاء إذن اسمها.. يعني أنتم اسمها وهو ضمير متصل ومرفوع الرأس.. هذا إذا كان لكم ضمير. أما خيرَ فهو خبرها منصوب بالفتحة التي سننفذ عبرها إلى الخارج. آه لحظة! يعني كنا في الماضي، وما هو حال الحاضر إذن؟ لا شيء سنظل وما زلنا وسنصبح.. أمر عجيب.. كلها أفعال ناقصة ونحن جميعًا سنبيتُ في خبر كان. وما بال الفعل أخرجَ؟.. فعل ماضي مبني للمجهول والتاء أي الأمة ضمير متصل وهو نائب فاعل ربما؟.. إذن لا فعل ولا فاعل حقيقي. لم يبق غير الناس المساكين المجرورين بحرف الجر، المُبْتَلِين بهذه الأمة التي ستبقى في محل مضاف إليه.. أي ليس لها محل من الإعراب، والسلام.

* نحباني للّو: تعني تحياتي للوالد.

ظهرت في تمثيلية بطلها يتعلم القراءة في محو الأمية.

بالرغم من أنني كتمت ضحكتي على هلوستي، إلا أن ابنتي شعرت باهتزاز كتفي وصدري فسألتني:

"ماما.. على شنو تضحكين؟"

"أضحك على حظ الأمة الأغبر"

لم أستطع التوقف عن الضحك خاصة عندما تذكرتُ إحدى الأمهات العراقيات التي سئمت من مقطع أغنية ترددت عشرات المرات "أمة حرة.. أمة حرة" بعد أن نفد صبرها لتقول:

"كافي أمه حرة.. أمه حرة.. يعني بس هو أمه حرة.. وأمهاتنا قحاب؟؟!!"

قارب النهار منتصفه وعاد الشباب خائبين بعد محاولات باءت بالفشل ولا أخفي بأنني شعرت بالخوف عندما عرفت أن هناك احتمالا ً بحجزنا لأيام بعد أن روى لي أحدهم عن امرأة عراقية حُجزتْ لمدة أربعة أيام. تكثف خوفي على ابنتي التي وعدتْ أباها بأننا سنتصل تليفونيًا حال وصولنا..

ساعة كاملة ونحن جميعًا نضرب أخماسًا بأسداسٍ واضعين نصب أعيننا جميع الاحتمالات السيئة. وفجأة أسرع نحونا أحد رجال الأمن مرتبكًا ليخبرنا بأن القضية قد حُلَّت وسنغادر المطار بعد قليل. غادرنا مكان المشردين كما أسمته ابنتي إلى قاعة الانتظار الحقيقية التي تدل على رقي البلاد، أجانب وعرب وعمال هنود وخادمات فليبينيات نعموا بالنوم على الأرائك المريحة. ركض

نحونا البحريني ليزف لنا خبر إطلاق سراحه أعقبه العراقيان وكان رجل الأمن الحارس يدَّعي بأنه كان السبب في مغادرتهم المطار. نزلنا السلم نحو باب الخروج مرورًا بضابط الجوازات الذي سلمني جواز سفري العراقي ليقول بصوت سمعه الجميع:

"تفضلي.. دكتورة.. روحي كِبي هذا الجواز بالزبالة وخدي جواز أوربي"

شكرًا.. ومع نفسي "أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة"

كان الإرهاق باديًا على وجوه مستقبلينا الذين لم يناموا ساعة واحدة بانتظار الصباح الذي ابتدأوه بالركض من مكان لآخر من أجل الحصول على موافقة لي لدخول بلد (الوطن الواحد).

"احمدي ربك لأنك طلعتي بعد وقت قصير، غيرك يقضون أسابيع بالحجز... وتعرفين بسببك أفرجوا عن الثلاثة الباقين؟ "قال قريبنا.

آها! إذن كانوا يكذبون علينا حراسنا..

هكذا التقينا بعد واحد وعشرين عامًا. لقد وهبت شقيقتي شبابها لابنها وبنتها اللذين تركتهما أطفالاً صغارًا لم يتذكروا شكل خالتهم. منحوا ابنتي حبًا مازالت تتغذى عليه. بدأتُ بزيارة البلد كأي سائح.. لكن الفرق بيني وبين السياح الأجانب هو إحساس جميل تملكني مُعيدًا بي إلى وطني، اللغة والأسواق وطيبة الناس، وسلوك بعضهم الملتوي ووو.. الأسواق الشعبية والضجيج والفوضى والأغاني في سيارات الأجرة.. لقد سحرت هذه الأشياء ابنتي: "ماما! خلي نبقى هنا ونجيب بابا ويانه!"

ما أجمل الأطفال.. ينسون بسرعة.. لقد نسيت أو تناست الإهانات وعذابات المطار كما يبدو.

لابد من زيارة الأماكن التاريخية ابتداءً من قصر العظم والجامع الأموي وانتهاءً بتدمر. غطينا رؤوسنا بمناديل قبل دخولنا الجامع الأموي. كان موعد الصلاة قد قرب وتعالى صوت المؤذن. دخلنا نحن أيضًا، جلسنا على السجاد متكئين بظهورنا على الجدار فغمرنا شعور بالأمان. غادرنا قاعة المصلى داخلين مقام رأس الحسين. بوغتُ بفقر المكان الذي اعتدنا على غناه، رهبته، هيبته ووقاره في كربلاء. تشبثتْ بشباك القبر امرأتان عرفت في الفور أنهما عراقيتان من عباءتيهما والنحيب الذي هزّ المكان، لم استطع مغالبة دموعي.. شحبت ابنتي متسائلة:

"ماما ليش تبكين؟"

شعرت أنني في حال يصعب علي شرحه لها فتداركت الوضع قائلة:

"ما أدري تذكرت أمي"

وكي أخرجها من جو الحزن أكملت ضاحكة:

"دا أبكي عالهريسة"

"شنو يعني هريسة؟"

"بعدين.. بعدين أشرحلك"

مسكتُ بيدها حاثة إياها على الإسراع في خطواتها لنذهب إلى عالم مختلف في سوق الطيور. لقد أغرمتْ بالببغاء الذي رحب بنا بالفرنسية، وحملت الصقر على ذراعها.. طيور.. طيور أينما صوبنا نظرنا. كان من الصعب إقناعها بمغادرة السوق. اتجهنا نحو سوق الحميدية ثم إلى باب توما حيث يمكننا شراء اللحوم الباردة التي اعتادت تناولها. دخلنا إحدى المحلات الصغيرة، وراحت تنظر إلى أصناف اللحوم لكنها فجأة صاحت بلهفة:

"ماما.. ماما شوفي هذا جبن مجري مكتوب عليه "جبن دونا" وكلمة دونا بالمجرية تعني الدانوب".

قطعة جبن أثارت فيها الحنين والانتماء إلى بلد أبيها حيث وُلدتْ فيه، فماذا نقول نحن؟ - فكرتُ -.

كان من الصعب على أقاربنا مرافقتنا إلى مدينة تدمر. لكني ربيت ابنتي على قاعدة وهي إن وعدتها بشيء، لابد من تنفيذه كيلا تعتاد على نقض الوعود وبمفهوم الأطفال هو الكذب عليهم، ناهيك عن خيبة الأمل، لذا ذهبنا بمفردنا، لكن الأمر لم يتم بتلك السهولة، لقد تركتُ جوازات سفرنا ولا نملك هوية أخرى تثبت وجودنا فيما لو حدث لنا مكروه، اتصلتُ بسرعة بالبيت وجاء ابن أختي ومعه الجوازات، ليس هذا المهم في الحكاية، بل شيمة الكرام أذهلتني.. لم تنطلق الحافلة بسببنا في الوقت المحدد لها، وهذا لا يمكن أن يحدث في بلد أوربي، ولم يستاء أي راكب من ذلك، بل تعاطفوا معنا.

طريق غريب لم تألفه ابنتي، لقد تلون الطريق بين سهل وصحراء وكثبان وصخور بُنيّة معشقة بالأحمر شرحت ابنتي لي كيف أصبحت بهذا الشكل لأنها تعلمته في درس الجغرافية وكانت سعيدة برؤيتها عن قرب. قطعنا مسافة لا بأس بها وبدأت الطريق تتوزع بين الشمال والغرب وإذا بلوحة إشارة المرور "موصل - بغداد" انتفض قلبي لرؤيتها، حاولت جاهدة حبس دموعي وأنا أهمس بشجن في أذن ابنتي:

"شوفي.. شوفي هذا الطريق يروح لبغداد!!"

"إي ماما.. بس لا تبكين.. آني صرت أفهم ليش.. ما تتذكرين شلون فرحتْ لما شفتْ جبن مجري؟!"

لا أدري كيف علم السائق بإحساسي وحزني الدفين حينما نزلنا من الحافلة ليقول:

"شو؟ بدك تروحي لبغداد، هلق رايح للموصل... تيجي معنا؟"

"يا ريت!! " رددتُ بصوت هادئ.

إذن نحن في مملكة "زنوبيا" برمالها الذهبية الساخنة التي تبعث في الروح الدفء والبهجة.. غرقت المدينة بوهج الشمس شامخة بأعمدتها ومسرحها وبواباتها ومعبد بعل.. لم يبقَ لنا شيء سوى التاريخ القديم الذي سنظل نفخر به ونلوك بذكره للأجيال القادمة ضمن "حضارات سادت ثم بادت" حتى نُباد نحن. هه، ولكن هل

ستفخر الأجيال القادمة بتاريخنا الحاضر؟ تظل المسألة نسبية يحددها أصحاب المصالح والمنتفعون منها، والعكس صحيحًا.

لم يسعفنا الحظ وضيق الوقت لزيارة قلعة البطل صلاح الدين الأيوبي عن قرب.. ليته ينهض الآن من قبره ليرى ما ألمّ بالأرض التي دافع عنها واستردها. إذن، لا ملكات ولا أبطال.

كنا كيتيمتين فقدتا أعز ما تملكان، وحيدتين بلا دليل، تتخبطان في مدينة فقدت أهلها واحتفظت بذكرى تاريخهم. كانت المرارة تفيض في روحي لولا بستان النخيل الذي كانت تحلم ابنتي به، أضفى الغبطة على قلبينا، فاحتضنتْ جذع نخلة لأخلد المشهد في صورة. هبط قرص الشمس لينذرنا بمرور الوقت.. رحت أرقبه فتداخلت صورتا مدينتين تاريخيتين ببعضهما البعض هما: الحَضَر وتدمر. حثثنا الخطى نحو الحافلة التي عادت بنا إلى دمشق.

يومان ونعود إلى بودابست قضيناهما في المراجعات الرسمية. الأول في دائرة المخابرات للحصول على الموافقة على طلب مغادرة البلاد. دخلتُ تاركة ابنتي مع ابن خالتها خارجًا.. عشرات من البشر ينتظرون. وقفتُ عند إحدى النوافذ وإذا بشاب ظريف أسرع نحوي مبتسمًا ومادًا يده لتناول جواز السفر، وقبل أن يفتحه باغتني بسؤاله: "أنتِ كردية؟"

استغربت سؤاله الذي رددت عليه بالنفي.

فتح الجواز ليقرأ الاسم، وإذا به يفتح عينيه على سعتهما قائلاً:
"العمى! في واحد يسمي بنتو اعتقال؟- مضيفًا - تعرفي ليش سألتك إنتِ كردية؟ لأنك نسخة من خالتي، وأنا كردي"
"أهلاً وسهلاً" - رددتُ -
قدَّم جواز سفري للموظف طالبًا منه الإسراع في إجراء اللازم، ثم أشار إلي أن أتبعه. اصطحبني إلى غرفة أخرى مُقدمًا لي زميله الضابط وواضعًا أمامي صحنًا من اللوز الملبس، لقد أحرجني بأدبه ولطفه وكرمه... لم يمر الوقت بطيئًا بين قضم حبات اللوز والرد على أسئلتهم وإذا بجواز السفر بين يدي، هذا ما أثار حسد المراجعين الذين كان في انتظارهم يوم ثقيل وطويل. صافحته شاكرة له جميله علي، وداعية في قلبي لخالته بطول العمر.

في اليوم التالي توجهنا نحو دائرة الهجرة والجوازات للحصول على دمغة في جوازات السفر لا يمكن مغادرة البلد من دونها. كلت أقدامنا وملت نفوسنا من الانتظار في بناية أشبه بمستشفى قديم بسلالم عالية، ولا أتذكر عدد المرات التي صعدنا ونزلنا فيها لنلبي طلبات عديدة من شراء الطوابع ودفع الرسوم وغيرها. كنا نقف في ممر ضيق عند أبواب غرف مكربة للنفس وكأنها هُجرت منذ زمن بعيد، وبغتة خرج شرطي لينهرنا ويعود واقفًا يحرس الباب ومرددًا: "لسه بعد ما أجا العقيد"

أخيرًا سمعنا بوصول العقيد فالتصقنا بالجدران فاتحين الطريق أمام حضرته. دخل الغرفة، فانزاحت الغمامة بعض الشيء عن صدورنا، ورحنا نتدافع على الدور حتى خرج الشرطي لينهر قطيعنا. تأدبنا حرصًا على كرامتنا وكيلا نسبب إزعاجًا للعقيد الذي بقي واقفًا خلف منضدة ليوقع على جوازات السفر. دخلنا وكبقية البشر مؤدين التحية، لم نسمع الرد بالطبع. وقع واضعًا الدمغة في جواز سفر ابنتي الذي تناوله الضابط ليسلمه لي، وجاء دوري.. كانت يده بحركتها العنيفة المضطربة دليلاً على انفعاله، فراح واضعًا توقيعه وراميًا الجواز على الأرض. كان العقيد أرفع من أن يسلمه في يدي.. لم أحتمل ذلك فصرخت متسائلة:

"وليش هذا الاحتقار؟"

سحبني قريبي من ذراعي، لكني أكملت جملتي:

"ويريدون واحد يحترمهم"

نزلنا السلم وكل ذرة مني ترتعد غضبًا من ذلك السلوك الفج. حاول تهدئتي بعض الأشخاص الذين جاءوا لنفس السبب. خرجنا من المبنى الكابوس، وإذا بابنتي تفقد طاقتها لتنهار جالسة على الرصيف... كيف أشرح لها عن جذورنا التي غُرست في مثل هذه الدول، وهي ترانا نُهان بلا قيد أو شرط دون ذنب اقترفناه؟ تُرى هل ستكتب لمعلمتها عن تاريخ الماضي والحاضر على حد سواء؟ هل ستكتب لها عن السيدة الطيبة التي سألناها عن اسم شارع، فدلتنا على الطريق ودعتنا إلى بيتها لشرب القهوة؟

وضعت ابنتي رأسها على صدر خالتها في مطار دمشق وبكت بكاءً مُرًا. لقد رشفت من محبتها وكرمها ما يكفيها دهرًا من الزمن. كانت وجوه مودعينا شاحبة خوفًا من مشكلة جديدة تعرقل عودتنا. مرَّ كل شيء بسلام.. لوحنا بأيدينا كالمنتصرين. كانت تقف أمامي في الطابور شقراء أجنبية أمعن المفتش النظر في وجهها ناسيًا التطلع إلى جواز سفرها وممهدًا الطريق لها دون تفتيش حقيبتها. نظر إلي طالبًا فتح حقيبتي اليدوية، وعندما قرأ الاسم والمهنة، غض الطرف عن قلائدي في الحقيبة ليبتسم قائلاً:

"ناقدة سينمائية! تفضلي دكتورة.. مع السلامة"

تناولت الجواز لأقرأ اسم العقيد المحترم إلا أن صوت ابنة أخي سونة "سيناء" - التي لم يعلم أبوها عندما وُلدتْ في عام ١٩٧٣ يوم تحرير صحراء سيناء. أنها ستكون على نقيض الصحراء سيناء بعينيها الخضراوين كغابتي نخيل "السياب" وقامة شاهقة كنخلة بابلية وشعر أشقر كسنابل حقول الفرات الأوسط. لكنها ادخرت في اسمها البطولات - تناديني بعد نفاد صبر:

"عمة وين رحتي.. تسمعيني؟ اشقررتي؟"

"معك عزيزتي.. قررت أقدم طلب على جواز سفر عراقي جديد"

بودابست

آذار – نيسان ٢٠٠٨

اللوحة والصحاف

في الرواق الضيق الذي تكدسنا فيه كقطيع الأغنام، كنا ننتظر وصول العقيد ليوقع على جوازات سفرنا والسماح لنا بمغادرة سوريا، فلمحته ينظر إلي وكأنه يتفحصني وكانت شكوكي في مكانها حينما اقترب منا ليتنصت إلى اللهجة التي تحدثنا بها، ثم تقدم نحوي ليبادرني بالسؤال كالواثق من الرد:

- العفو... أنتِ خالة محمد مو تمام؟

- نعم؟.. أي محمد؟ - رددت باستغراب -

- محمد عبد الله ابن أختك أم وفاء.. أنا صديقه.

- وكيف عرفت آني خالته؟ تركته قبل واحد وعشرين سنة وهو عمره اثنا عشر سنة. وكما أعتقد أنك في سنه.

- أعرف.. أعرف كنت أشوف صورتك أقصد اللوحة الزيتية بغرفته.

آه.. صحيح اللوحة الزيتية "البورتريه" الذي رسمته سناء صديقتي عندما كنا نعمل معًا في قسم الديكور. لا أخفي شعوري بالغبطة كأي امرأة وهي أنني بعد سبعة وعشرين عامًا على رسم الصورة مازلت أشبهها.

سناء الرسامة الموهوبة، غريبة الطباع. لا سلوكها.. هندامها.. تعاملها مع الآخرين ولا طريقة عيشها تدلل على أنها نشأت في مدينة كربلاء. عندما كنا ندرس الفن التشكيلي في أكاديمية الفنون الجميلة، كنا نتبادل كتب الأدب بمختلف أنواعه وتدور نقاشات وآراء كان يبالغ في طرحها الفنانون.. وكانت سناء تقرأ كتب الفلسفة وكتب سارتر وألبير كامو حتى بات سلوكها مبالغًا في عبثيته وغثيانه. كان التذمر مصاحبًا لها بمبرر أو بدونه، وعلى الجميع أن يتكيف لمزاجها. تُؤخذُ بكلمات المثقفين الرنانة وكأي امرأة بالكلمات المعسولة. تبدو قاسية وجافة لكنها مرهفة، هشة الروح، تُكسَرُ بسرعة، وبالرغم من أننا كنا نسكن معًا في دار الطالبات إلا أنها لم تستطع التعرف عليَّ عن قرب.. لم تعرف خبايا روحي، لأنني نقيضها وكنت أعتقد أن همومي هي ملكي الخاص ولا يجب إقحامها على الآخرين إلا لمن هو قريب إلى القلب وإلا أصبحت مبتذلة.

بسبب سلوكها العبثي كادت "عمادة الطلبة" تعاقبنا لأننا قهقهنا بأصوات عالية وهذا سلوك مشين بالنسبة للمشرفة زوجة العقيد التي كانت تجلس على كرسي في باب دار الطالبات واضعة ساقيها الواحدة على الأخرى وكان الشباب يتهافتون للتمتع بالنظر إلى مفاتنها. لكنها كانت تعزو ذلك إلى سلوكنا وأصواتنا المرتفعة.

ذهبتُ لمقابلة عميد الطلبة إذ طلب مني أن أوضح له الأمور فطرحتُ عليه هذا السؤال:

- أستاذ لو دخلت إلى مطبخ وشفت طشت مليان مي يغلي عالنار وبي بيضة وحدة.. تضحك لو ما تضحك؟

- ها ها ها.. طبعًا أضحك..

- هذا السبب ضحكنا، لأن سناء كانت جوعانة وعندها بيضة فاستغلت وجود الطشت اللي كانت إحدى الطالبات تسخن مي حتى تغسل شعرها فسلقتها به.

كان من الصعب على المشرفة تفهّم وضع الطالبات "الفنانات" فمواد الإبداع كالزيت والطين بالنسبة لها قاذورات، والتدريب على عمل مسرحي هو صراخ وفوضى واستهتار. كانت سناء دائمة التأوه والتذمر، فلم تستطع إطلاق العنان لعبثيتها حتى غرقت في غثيانها مع قصة الفلسفة.

في أخر سنة دراسية اقتسمنا وسناء غرفة مشتركة في دار جديدة للطالبات مع طالبة أردنية كانت ترتدي أقصر تنورة في أكاديمية الفنون الجميلة، لا يمر يوم دون أن تلعب كرة المنضدة وكان الشباب يتسطرون لمشاهدة المباراة ومع كل انحناءة لها وضربة للكرة تمتزج دقات قلوبهم بإيقاع صوت الكرة. في ذلك العام قمنا طلاب النحت بالنحت على الحجر. كنا نعمل طوال النهار حتى لم

أعد أرى لونًا آخر سوى الأبيض، ولم أسمع صوتًا غير إيقاع ضربات الأزميل.. وتحولت وجوه الناس إلى حجر.

ذات مساء اضطجعت على سريري متعبة، أغمضت عيني وكتلة الحجر الأبيض احتلت كل خلايا دماغي. فتحت عيني لأجد سناء تجلس على حرف سريري وكانت لديها رغبة للتحاور معي.. بدأتْ الكلام.. لم أع في بداية الأمر أي شيء لأنني كنت مشغولة بالتعامل مع وجهها وكان همي كيفية مسك الأزميل والمضرب لإزالة أنفها.. وفجأة سألتها عن تحدب في نهاية عنقها فعلقت ضاحكة ومستشهدة بكلام طبيبها الذي قال لها ذات يوم:
"إن هذا التحدب مثير للرجال".

لم أفهم كلامها في البدء. وإذا بها تسترسل بالحديث. كانت في الثامنة عشرة من عمرها حينما زارت طبيبًا مختصًا بالغدد من أجل رقبتها. هذا الانتفاخ المحبب قاد الطبيب إلى البدء بعلاقة حب معها. لقد هامت به وتكررت اللقاءات التي توقفت فجأة. سئمت الانتظار، وذات يوم ذهبت لزيارته فلم تجد له أثرًا لأنه رحل إلى أوربا دون أن يعلمها. كانت حكايتها طويلة - لكني لا أفضل الآن البوح بتفاصليها - أصغيت إليها بكل ذرة من حواسي وحينما عرفت النهاية رحت أنتحب ولم تستطع إيقافي حتى بدأتْ البكاء هي الأخرى. مسحنا دموعنا وإذا بها تفاجئني بقولها:
- ما توقعت أبدًا أنك تملكين مثل هذه المشاعر العميقة!

ذاك المساء غيَّر الكثير وصارت سناء تأتمن إلي أكثر من السابق وأصبحت صداقتنا أعمق إلى درجة كنت أجوب فيها شوارع بغداد لأبحث عن اسم الطبيب بين المئات من لوحات الأطباء المعلقة على امتداد شارع السعدون علّني أجده لأبعث البهجة في قلبها المكسور. ولكن دون جدوى.

كانت سناء تطمح إلى السفر إلى فرنسا ودراسة الفن التشكيلي في معهد البوزار، وكان عليها أن توفر مبلغًا من المال يهيئها للسفر، لذا أسرعت بتقديم أوراقها وحصلت على وظيفة في قسم الديكور في تليفزيون بغداد. وفي مكالمة هاتفية دعتني إلى زيارتها في مكان عملها. ونحن نتناول الغداء في كافيتيريا الإذاعة والتليفزيون حلَّ صمت مريب فجأة على المكان.. لقد دخل المدير العام لمؤسسة الإذاعة والتليفزيون محمد سعيد الصحاف بصحبة رجل من مدينتنا "الحلة" أتذكر اسمه الأول وكما أعتقد سلام. جلسا وراح الصحاف يراقب الحاضرين وبعد أن اطمأن للمكان التفت نحو ضيفه إذ لمحته يوشوش في أذن المدير العام الذي ركّز نظره علينا أيضًا. أنهى وجبته وبينا هما ذاهبان توقف عندنا ليلقي التحية طالبًا من سناء أن ترافقني إلى مكتبه.

رحب بنا.. تعرف على اسمي واختصاصي وراح يتحدث عن الفن التشكيلي، ربما لأنه أراد أن يستعرض ثقافته في هذا المجال مشيرًا إلى لوحة خيول زينت جدار غرفته للفنان فائق حسن الذي

أقام في السبعينيات معارض عديدة عن الخيول، لكني لم أستوعب كلام المدير العام عنه ولم أتفق معه بالرأي عندما توجه إلي بالسؤال بعد أن أنهى حديثه عن اللوحة بـــ:

"مو تمام آنسة؟".

"لا.. مو صحيح... ومو تمام"

بعد ذاك الرد مباشرة عرض علي العمل في قسم الديكور على أساس يجب تطعيم العمل الفني بفن النساء ولا يجب أن يُعتمد على الرجال فقط، لكني وبدون لحظة تفكير رددت بالنفي لأنه ليست لدي رغبة في العمل في التليفزيون إضافة إلى أنني قدمت أوراقي إلى إحدى الدوائر التابعة لوزارة الثقافة لتدريس النحت للهواة. فاجأني بإصراره على إقناعي مشيرًا إلى صديقتي التي غيَّرت صورة قسم الديكور بلمساتها الفنية، إضافة إلى أنهم لن يعاملونا كبقية الموظفين وليس الالتزام بساعات الدوام هو أهم من العمل الفني.. لكني رفضت ورفضت، والغريب في الأمر لم يهتم برفضي بل أصر على أن نذهب إلى مكتب مدير التليفزيون لكتابة الطلب.

شكرناه على استقبالنا وقبل أن نودعه قال لسناء:

"خذيها واكتبوا الطلب!"

أقنعتني سناء بكتابة الطلب على أساس أنني لن أخسر شيئًا بذلك وسأقرر في النهاية العمل في التليفزيون أم لا. بعد ثمانية أيام اتصلت بي سناء لتخبرني بأن وظيفتي تنتظرني في قسم الديكور

فرع النحت. ترددت كثيرًا ثم بدأت العمل. بعد نهاية الأسبوع الثالث تم لقاء جديد مع المدير العام الذي أراد أن يعرف شيئًا عن مجرى الأمور، وقد أصر على معرفة سبب ردي الحاد برفض العمل في المؤسسة محاولاً بذلك الدخول في مسار الحديث عن بطولاته وكيف حوَّل الإذاعة والتليفزيون إلى مكان عمل شريف ومحترم وأصبحت شروطه تعيين حاملات الشهادات الجامعية وليس كل من هب ودب من "العاهرات" التي كان يأتي بهن بعض الموظفين للعمل معهم.

اندهشت لكلامه ووددتُ أن أعرف كيف عرف وهل لديه دليل قاطع على ذلك فقال:

"بالطبع.. لقد طلبت عشرات المرات من بعضهم ألاّ يأتوا بالعاهرات للعمل في الإذاعة ووعدوني بذلك، لكني شككت بأحدهم وطلبت أن يُربط خط تليفونه على غرفتي وصرت أراقبه، وذات ليلة سجلتُ حواره معها، وفي اليوم التالي طلبته وأسمعته التسجيل الصوتي ثم طردته من الإذاعة.. نعم آنسة كان يجب تطهير هذه المؤسسة كي نفتح الباب لمثلك وأمثالك.. وهل تعرفين لماذا أردتك أن تعملي هنا؟ لأنك قلتِ لا بدون تردد على ما لا تتفقين عليه بالرأي معي".

"لم أفهم أستاذ"

"سأشرح لكِ... عندما دخلت هذه المؤسسة كان يجب علي أن أتعلم الكثير كي أستطيع التعامل مع الفنانين وعلى وجه التحديد

المخرجين مثلاً، فبدأت أقرأ كتبًا كثيرة عن فن الإخراج التليفزيوني حتى أني دخلت غرفة الكنترول وحاولت الإخراج أيضًا وبعد ذلك عقدت اجتماعًا مع المخرجين وبدأت أتحدث عن الإخراج بشكل مخالف تمامًا لما قرأته وحفظته، إلا أنهم كانوا يؤيدون كلامي بكلمتين: "نعم أستاذ.. نعم أستاذ" لكني صرخت بوجوههم: شنو نعم ما تسمعون كل اللي أقوله خطأ؟؟ ولهذا يا آنسة عندما رددتِ بـــ لا قلت في نفسي: هذي تفيدنا.. طبعًا أنتِ احمدي ربك لأنك جيتي بهذا الوقت ومو من كنت أمشّي المؤسسة بالمسدس"

لقد عرفت بذرات الكذب الأولى للصحاف في النصف الثاني من العام ١٩٧٢. في تلك السنة ازداد عدد البنات في جميع المجالات من مذيعات ومقدمات برامج في الإذاعة والتليفزيون حتى أن سناء أيضًا أصبحت مُقدمة لبرنامج ثقافي، وبعد بضع حلقات قدَّم لها مُعِّد البرنامج ثامر مهدي على ما أتذكر نصيحة وهي أنها يجب أن تتنقل في تاكسي لأنها صارت وجهًا تليفزيونيًا معروفًا. لم يكتمل الشهر حتى توجهت الأنظار باتجاهي وبدأت المحاولات لإقناعي بتقديم برنامج تليفزيوني لكني رفضت، إلا أن رئيس قسم التنسيق آنذاك الفنان صادق علي شاهين كان قد عاد للتو من هنغاريا في دورة تليفزيونية وإذا به يستوقفني وبأسلوب غاية في التهذيب حاول إقناعي ومستندًا في كلامه إلى رأي المدير العام بي. اعتذرت بأدب لكنه أمهلني كي أفكر في الموضوع.

تدخل الصحاف ثانية وقابلته مجددًا بناءً على طلبه، وكان سؤاله ربما أن الأهل لم يوافقوا على ذلك، وفوجئ بردي عندما أخبرته بأنني يجب أن أقتنع أولاً ثم أهلي، إضافة إلى أنني لا أفهم في تقديم البرامج.. وفي النتيجة وافقت على إجراء الاختبار الذي لم تعجبني فيه لا صورتي ولا صوتي. لكنهما أعجبا الجميع.

في ذلك الوقت كانوا يتهيئون للبدء بدورة لإعداد مذيعات ومقدمات برامج تليفزيونية تحت إشراف خبراء مصريين، وكنت إحدى المشاركات وبعد ثلاثة أشهر من التدريب والاختبار رُشحتُ لتقديم البرامج أما المشاركات الأخريات فرُشحن كمذيعات ربط.

كان أول فيلم قدمته رائعة العملاقين الكاتب ليف تولستوي والمخرج بوندارتشوك الحرب والسلام. كان ظهوري على شاشة التليفزيون مفاجأة لأهلي.. عاد أبي من مقهى الجندول في مدينتنا الحلة وإذا بزوجة أخي تستقبله بسؤالها:

"شفت اعتقال بالتليفزيون"

"إي شفتها"

لكن أمي كانت تود معرفة المزيد..

"والناس عرفوها بنتك؟"

"إجه واحد سألني هذي منو؟ جاوبته.. ما أعرف"

انتفضت أمي مستاءة من رده لتعاتبه بقولها:

"ليش تنكر بنتك.. هي مسويه شي بالخفيه؟"

"ههه.. ليش أنكرها؟ بس آني مو غبي.. هو ليش سألني أنا بالذات ومو غير واحد.. لأن كلش زين يعرف هي بنتي.. لذلك ما احترمته ورديت عليه".

في كل مساء أحد حوَّل أبي المقهى إلى "نادي سينمائي" حيث يجلس في المقدمة حينما يبدأ البرنامج طالبًا الصمت والإصغاء من الزبائن إلى ما تقول ابنته. لقد تعرف الناس على البرنامج شيئًا فشيئًا خاصة وأنه كان يُعرض على القناة الثانية أي الثقافية، ثم أصبح موضوع حديثهم وازدادت شعبيته.

لم يستمر عمل سناء طويلاً في التليفزيون لأنها كانت تخطط من أجل تحقيق حلمها وهو السفر إلى باريس، ولم يستمر برنامجها الثقافي فترة طويلة، وذات يوم طلبت مني أن أكون موديلاً لها فرسمت لي بورتريتًا أعجب به جدًا مدير التليفزيون وقتذاك المخرج رشيد شاكر ياسين إذ علق قائلاً:
"يبدو أن صديقتك تعرفك بشكل عميق لأن لا يمكن لأحد أن يرسم تعبير الوجه والعيون بهذا الشكل إلا إذا كان يعرفك زين"
وفجأة اختفت سناء التي أتذكر أخر تعليق لها وجَّهته لي ونحن نتناول الغذاء في الكافيتيريا:
"إنتِ حتى لو يجيبولك باريس لهنا ما تفكرين تروحين!"
راحت سناء وكتبت لبعض من أصدقائنا ولم تكتب لي قط.

كما هو معروف في الأوساط الثقافية فلا بد من المنافسة والغيرة.. لكن كل تلك الأمور السيئة تبددت في حب الجمهور وإعجابه. بدأت المضايقات من المؤسسة نفسها وعلى وجه التحديد من القسم الثقافي الذي يتبع له البرنامج، أما الصحاف فكان يستلم الملاحظات من رؤسائه الذين فرضوا عليه بعضًا من مثقفي حزبهم كي يشاركوا في البرنامج لأن باعتقادهم أن أغلب المشاركين في البرنامج هم من اليسار، لذا اقترح علينا أن نستضيف شاعر حزب البعث.. ما كان علينا إلا التنفيذ وكان الفيلم المختار غاية في التعقيد بالنسبة لضيفنا. شاهدنا الفيلم معه وكان عنوانه "تشارلي" الذي يلعب دوره الممثل جاك نيكلسون والذي يتحدث عن رجل متخلف عقليًا تُجرى عليه التجارب فيصبح عبقريًا لكنه في أخر لحظة يعثر على الفأر الذي أجريت عليه نفس التجربة ميتًا".

بعد أيام سجلنا البرنامج.. شكرنا الشاعر وودعناه وإذا بزميلي علي زين العابدين الذي كان مُعد البرنامج ورئيسًا لقسم الأفلام يصعد السلم وهو يستعر غضبًا.. لحقتُ به فوجدته يسب ويلعن المستوى المنحط لكلام الشاعر عن الفيلم. كانت ابتسامتي أكثر استفزازًا له من الحلقة السيئة التي ستهبط من مستوى البرنامج.

"أنت ليش صاير عصبي.. مو هم اختاروا الضيف حتى يمثل حزبهم؟ خلي الناس تتفرج وتحكم"

هدأ علي بعض الشيء.. تطلع إلي.. سكت ثم قال:

"إي والله صحيح"

وقبل أن نغادر رن جرس الهاتف وكان الصحاف بانتظارنا بعد أن ودَّع الشاعر. دخلنا غرفته فاستقبلنا بحفاوة دعت علي زين العابدين إلى ألا يكتم غضبه ويُعبِّر عن رأيه بصراحة مطلقة وبالطبع بعد سؤال الصحاف عن مستوى الحلقة. أما أنا فاختصرت رأيي بكلمة واحدة: "كارثة" لكني تداركت الموقف فورًا لأضيف "ممكن أن يكون شاعر جيد ولكن ليس بالضرورة يستطيع تحليل فيلم أو الحديث عنه"

في ذلك اليوم عرفت أن الصحاف كان قد ربط جهازه على الأستوديو وكان يراقب البرامج أثناء تسجيلها.. لذا ضحك قائلاً:
"ما تنبث هذي الحلقة لأني بعد مشاهدتها أخبرته بأنها لن تُبث هذا الأسبوع.. وبما أنه راح يسافر لذا ستلغى وهذا أفضل حل لكم وله ونخلص من الفضيحة"

الغريب في الأمر أن الصحاف رشح لنا ضيفًا آخر قال إنه سيعجبنا لأنه على مستوى راق وهو دكتور في علم الاجتماع ومثقف جدًا لقد كتب أطروحته في أمريكا عن نظرية بافلوف إضافة إلى أن ليس له علاقة بالحزب. لقد علمت مؤخرًا أن الصحاف كان يشاهد الفيلم الذي نختاره في الليل بعد غياب الموظفين وغيابنا.
سارت الأمور على ما يرام.. وذات يوم وأنا أتهيأ لتقديم البرنامج لاحظت جوًا غريبًا يُحيط بقسم الخطاطين الذين كانت تربطني بهم

علاقة حميمة - خاصة وأننا نعمل في قسم واحد - حاولت إيجاد موضوع مشترك بيننا لأكسر حاجز سلوكهم المشوب بالارتباك وإذا بأحدهم يقول لي وكأنه يهمس سرًا:

"سجلوا البرنامج أخت اعتقال"

"أي برنامج؟" سألته.

"برنامجك.. وأنا خطيت الأسماء بيدي هذي"

"ومنوقدمه؟"

"فاتن حسن" - التي أصبحت لاحقًا زوجة سعد البزاز - هكذا كان يسلك القسم الثقافي الذي كان يرأسه محمد مبارك - خال الصحاف ولم يكن بعثيًا - ونائبه الشاب سعد البزاز. لقد علم الصحاف بذلك وألغى البرنامج في الحال مستدعيًا محمد مبارك رئيس القسم طالبًا منه توضيح الأمور فكان رد رئيس القسم الثقافي لتليفزيون بغداد:

"دائما تعدل شعرها الطويل... وحركاتها تبدو مثيرة"

ضحك الصحاف ساخرًا من خاله بقوله:

"هو احنه ليش جايبيهه؟.. على شعرها الطويل.. إلغوا الحلقة ولا أحد غيرها يقدم البرنامج!!"

وردًا على ما حصل لففت شعري مخبئة إياه تحت باروكة قصيرة غير قابلة للإثارة.. وبينا كنت أتحاور مع الضيف، توقف التسجيل

وتغيرت إضاءة الأستوديو لأرى صادق علي شاهين رئيس قسم التنسيق يقف أمامي مبتسمًا ليبلغني:

"بأمر من المدير العام.. على مقدمة البرنامج نزع الباروكة!"

نفذت الأمر وأكملت عملي. لم يكتف المدير العام بذلك بل أنه أسدى إلي بنصيحة وهي ألا يستخدم المخرج وجهي كديكور في لقطات قريبة جدًا لأنني لست شكلاً فحسب بل أهم من ذلك.

إن سلوك الصحاف هذا واهتمامه بالبرنامج وقراءاته عن السينما والفنون بشكل عام واختلاطه بالفنانين وخاصة بمن يتمتعون بمستوى ثقافي عالٍ أثار حفيظة الآخرين. لقد تغيَّر سلوك المارد الذي كان بوصوله يعم الصمت المكان وتقف الكلمات في الحناجر. كانت مائدته في الكافيتيريا تحتل ركنًا في نهاية الصالة. يجلس متكئًا بظهره على الجدار وبهذا يكون باستطاعته مراقبة الجميع.. استغنى عن وحدته أثناء تناوله وجبة الغذاء.. كان بين الحين والآخر يدعونا إلى مائدته وكان يود أن يتعرف على من يشاركني مائدتي فيخوض حوارات فكرية وفنية معهم.. حتى أنه أضحى ذات يوم كالطفل إذ جلب معه ماكينة تصوير ودعاني لنتفرج عليها وراح يصور ليرينا كيف يمكنه التقاط الصور بشريط متواصل شبهه بصلي الرشاش. لم يكن سلوكه هذا معي وأصدقائي فحسب بل مع من يختار من بين كتاب وفنانين يعملون في المؤسسة.

اشتد غيظ بعضهم من التغيير وكانت مؤسسة الإذاعة والتليفزيون تتمتع على المستوى الفني والثقافي بعصرها الذهبي في النصف الأول من السبعينيات الذي احتضن عشرات الكُتَّاب والفنانين المصريين وغيرهم من العرب، أذكر منهم أحمد عباس صالح ومصطفى طيبة وغالب هلسا والمخرج توفيق صالح إضافة إلى عدد كبير من الفنانين والنقاد والكتاب من مختلف الدول العربية والأوربية الذين شاركوا في مهرجان الفيلم الفلسطيني المتكرر لأكثر من مرة في البرنامج.

كان الكاتب جبرا إبراهيم جبرا أحد ضيوفنا المحببين، وكان كالموسوعة لم يصعب عليه الحديث عن أي فيلم.. لقد اخترنا فيلم باليه روميو وجوليت الذي عُمل على موسيقى بروكوفييف وتباحثنا في موضوع اختيار الضيف المناسب وكان جبرا إبراهيم جبرا. دخلنا الأستوديو لتسجيل البرنامج فباغتنا ظلام دامس، سألنا العاملين عن عدم تهيئة الأستوديو للتسجيل فكان الرد:
"إن سعد البزاز قال لهم بإن البرنامج لم يعد تابعًا للقسم الثقافي.. لذا فهم غير مسؤولين عن حجز الأستوديو"
كدت أذوب خجلاً أمام كاتب محترم كجبرا إبراهيم جبرا - الذي كان يسميني بالفاخرة - لكني صممت على تسجيل البرنامج دون الانتماء إلى أي قسم كان، أو على الأقل لأثبت له بأنني فاخرة بالفعل. طلبت من العمال جلب الخلفية التي عملتها بيدي خصيصًا

للبرنامج وكرسيين مع منضدة. سمع بذلك سعد البزاز فجاء راكضًا إلى الأستوديو وبيده ورقة قدمها لي وليقول بلهجة الآمر:

"إذا تريدين تقدمين البرنامج لازم تقرئين هذي الأسئلة!!"

شعرت بالإهانة وتدخله غير المشروع فقلت له:

"تعال أنت قدِّم البرنامج"

هممتُ بمغادرة الأستوديو إلا أن ضيفي غمزني بأن آخذ الورقة محاولاً تهدئة الوضع.

جلسنا لنطّلع على الأسئلة المفروضة علينا ولا أزال أتذكرها لقد أضحكت الأستاذ جبرا وكانت لا تمت بصلة لا للباليه ولا للموسيقى وإنما عن شكسبير. كان ضيفنا قد خبر الكثير من الحياة العملية فراح يهدئني وقبل التسجيل بدقيقة واحدة بعد أن عرف أنّ لا أحد غيرنا في المكان قال:

"ما عليكِ أنتِ بهذي الأسئلة الترهات قدمي مثل ما تعودتِ"

سمعت كلامه وكانت إحدى أجمل الحلقات.

فرح قسم المنوعات بنا بعد طردنا من القسم الثقافي وصار هو المسؤول عن حجز الأستوديو لا غير. وبينما أكتب هذه الكلمات، توقفت لأضع يدي على خدي وأفكر بمذيعات ومقدمات البرامج التليفزيونية اليوم، ترى هل يُعاملن الآن بهذا الأسلوب؟

كنت أسعى إلى التطوير للأخذ بيد المشاهد وتربية ذوقه على مشاهدة فن راق.. وكان الجميع صغارًا وكبارًا.. أميين ومتعلمين

يصغون إلى ما نقول ويستمتعون بما نقدمه لهم. لقد أدرك الجميع ذلك.. أجل أدركوا أن ما نقوله هو المهم ولا بد من كسب مقدمة البرنامج التي كسبت ود الملايين من أبناء شعبها. كانت أساليب الكسب قاسية ومبتذلة.

في نهار يوم شتائي دافئ استدعيت إلى مديرية الأمن العامة.. قرأت طلب الاستدعاء والعنوان وقبل أن أذهب فكرت بأن أخبر زميلي علي لأنه في حالة عدم عودتي سيتدبر الأمر ويخبر أختي التي كنت أسكن عندها. بينما كنت أستعد للذهاب دخل موظف كان يعمل في قسم إدارة قسم الديكور وهو أيضًا من مدينة الحلة، قصير القامة أحدب الصدر (بعثي)، تجمعنا علاقة صداقة. كانت نظراته غريبة حتى أنه سألني عن سبب مغادرتي فأجبته. لا أتذكر الآن هل رافقني إلى مديرية الأمن أم تبعني، إلا أنني أتذكر تمامًا ما جرى. طلب ضابط الأمن مني التجسس على الشيوعيين وكتابة تقارير أسبوعية عن تحركاتهم فسألته:

"ومن هم الشيوعيين؟"

"إنتِ تعرفيهم"

"آني ما أعرفهم.. إذا إنتو تعرفوهم راقبوهم!!"

لم يدُرْ بيننا حوار طويل خلال أكثر من ساعة لأنه أصلاً لم يعرف من أين يبدأ معي، لكن التمثيلية التي قام بها ما هي إلا استفزاز

للأعصاب وكان يأمر بين فترة وأخرى أحد موظفيه بأخذ فلان وحجز علان حتى التفت نحوي مهددًا:

"اسمعي! إنت بنت ذكية وشاطرة... إذا اليوم ما تنطينه وعد بأنك تنفذين اللي نريده - سكت ثم تكلم بالهاتف وأكمل جملته - راح تباتين عندنا.

عند هذه الجملة بدأت تلافيف دماغي تستعيد أعمال مديرية الأمن العامة مع البنات من تعذيب واغتصاب، لكني احتفظت بهدوئي.

"قلت مسبقًا ما أعرفهم وإذا كنت تعتقد أني عضوة بالحزب الشيوعي فهذا غير صحيح"

"لما تقدمين البرنامج ليش تقولين الشعوب العربية؟ هذا مصطلح شيوعي"

نظرت إليه باستغراب دون أن أرد فأكمل:

"عندنا بالحزب يقولون الشعب العربي.. وبعدين ولا مرة سمعناك بالبرنامج تمدحين السيد النائب أو تتكلمين عنه"

كل التعابير تبخرت من دماغي ولم أجد وصفًا يليق بذلك الكائن الذي لا يفقه ما يقوله.

"شلون أمدح السيد النائب من خلال فيلم أجنبي؟ أو كيف يمكن أتحدث عنه مثلاً في فيلم أمريكي بدون مناسبة؟"

دخل أحد الموظفين ليعلمه بأن شخصًا جاء معي ينتظر عند باب دائرة الأمن. ترك الغرفة بسرعة ثم رجع ليعيد ما كرره عشرات المرات وبعد ذلك أهملني وبين فترة وأخرى كان يمتع ناظريه بي.

لم يكن لدي علم ماذا فعلوا بزميلي حتى ساورني شك بأنهم ربما اعتقلوه أو ضربوه خاصة وأنني فهمت من كلام الموظف أنه أصر على البقاء والانتظار. مضى ما يقارب الساعة من الوقت وإذا بجرس الهاتف يرن.. اعتدل الضابط في جلسته ليرد مرتبكًا.. متلعثمًا:

"نعم...إي نعم أستاذ.. هي.. زين.. زين.. صار.. تؤمر.. مع السلامة"

شحب لونه، وضع سماعة الهاتف ليلعب ثانية دور البطل أمامي قائلاً:

"زين إنت هسة ممكن تروحين بس لا تنسين كلامي"

فرحت للخبر المفاجئ، لم يكن بمقدوري التكهن بما حصل في تلك اللحظة ولماذا أفرج عني بهذه السرعة على حين غرة.. لم تعد التفاصيل مهمة.. المهم أنني حرة بالرغم من تعثر خطواتي وتلفتي المتواصل.

"سفلة.. يلعن أبوكم وأبو شرفكم أكيد قصدهم شي آخر ويتذرعون بالشيوعيين"

وصلت إلى مكان عملي بالسلامة. دخلت المؤسسة وفي الطريق إلى قسم الديكور ركض نحوي سكرتير المدير العام ليبلغني بأن المدير العام في انتظاري. اندهشت ثم توجهت إلى حيثما يجب. أخبره السكرتير بوصولي.

"خليهة تدخل"

ألقيت التحية. لم يرد بمثلها.

"تفضلي اقعدي.. مع الأسف.. كنت أتمنى أشوف كدمة زرقة على وجهك.. رجال يستدعوهم للأمن وما يروحون يتمشون برجليهم مثلك، وحتى كان بينهم من سألني قبل ما يروح.. وإنت لا تخبرين ولا تسألين ورايحة مسلمة نفسك.. يعني شنو ممكن أجاوب أهلك لو صاير عليك شي؟ مو آني المسؤول هنا عنك؟ والله بودي أضربك راشدي (كف) وعلى الأقل أرد الراشدي اللي ضربنياه أخوك أستاذ كاظم من كنت طالب عنده.

شعرت بالرغم من كل الاستقلالية التي أتمتع بها وكأنني أخضع لرعاية رئيس عشيرة يحمي ابنة عشيرة أخرى يحترمها. لذا احتفظت بصمتي الذي اعتبَرَه ربما نوعًا من اللامبالاة فأكمل بسخرية:

"لا... وماخذة وياها الجعيدة" (تعني كبير القوم)

آها.. إذن من أسماه بالجعيدة كان منقذي بعد أن يئس من الانتظار أو بعد أن طردوه من هناك أسرع ليخبر المدير العام الذي اتصل

فورًا بمديرية الأمن ليأمرهم بإطلاق سراحي دون قيد أو شرط وإلا لقلب الدنيا وبناية الأمن على رؤوسهم.

بعد ذلك الحادث لا أدري لماذا بدأ الصحاف يروي لي حكايات شخصية جدًّا بل أسرارًا، ربما لأنه أراد أن يفتح عيني على أمور أجهلها ولربما كانت ثقتي بنفسي في ذلك السن تُدرج تحت كلمة سذاجة؟ أو أراد أن يبين ويظهر الجانب الإنساني في شخصيته التي ألف الجميع عنجهيتها؟ كان يحب ولديه إلى درجة لا توصف وذات يوم شاركنا مشاهدة فيلم وكان المشهد لصبي يحتضر وقد تم التركيز على ردود فعل الأب الذي قال: "أنا في حالة حرب" وإذا بالصحاف يعلق بصوت مسموع: "والله راح أبكي يا جماعة". كانت نقطة ضعفه الأم ولا بد أن تعلقه بأمه جعله يتراجع عن تأدية مهمة اغتيال رفيق لهم، داهموا بيته مع رفاق آخرين وعندما رأى والدة من يريدون قتله تجلس القرفصاء متوشحة بالسواد.. تراجع مرتدًا عن تنفيذ ما أمروه به.

لم يحبه السيد النائب وكان يقول له: "تريد تصير دكتور؟ إغسل إيدك ما راح تصير"

تزايدت التقارير ضده وكان يعرف أنه لن يبقى مديرًا عامًا للإذاعة والتليفزيون لأنه وعلى حد قولهم احتضن الشيوعيين واليساريين بشكل عام حتى صار الخطر يهدد المؤسسة. انتشر الخبر بأنه سينحى من منصبه، وكعادته كان يجوب أقسام المؤسسة بعد

منتصف الليل مرورًا بقسم الديكور فوقع نظره على البورترية الذي رسمته سناء لي وكان يقيّم عملها.

استدعاني إلى مكتبه:

"قالوا لي عنك إنك ما تخافين منهم"

"من هم؟ سألته"

"رئيسك في العمل. إضافة إلى أنك توصلين متأخرة وتردين على أسئلتهم بسخرية عن سبب التأخير.. ها شنو ردك؟"

راح أرد بالتسلسل.

"أولاً: آني أخاف من الحيوانات فقط. وهم مو حيوانات.. فليش أخاف منهم؟"

"ثانيًا: تتذكر أستاذ أبو زياد لما طلبت مني أن أقدم للعمل هنا على أساس إحنه فنانين ولا يقاس عملنا أو يخضع لأوقات الدوام والمهم الإنتاج؟"

"ثالثًا: يبدو أن قول الحقيقة سخرية.. كل ما في الأمر أرد على أسئلتهم بصراحة ووضوح وأكره الكذب"

أصغى بشكل جاد إلى أجوبتي وكانت النتيجة:

"المسكين مدير الذاتية رجل كبير جاني شايل ورقة ردك بيده وسألني: شفت أبو زياد بحياتك كلها موظف يرد بهذا الشكل؟ على أية حال قلت له أن يوجه لك إلفات نظر"

"شكرًا... - ثم ضاحكة - بهذي المؤسسة ماكو واحد يلفت نظري"

ضحك على تعليقي وأردف قائلاً:

"تعرفين شنو مشكلتك اعتقال؟ أنك سابقة لعصرك على الأقل بعشر سنوات.. لذلك راح تتعرضين لمشاكل كثيرة" ودون توقع مني سألني:

"شنو أخبار صديقتك سناء؟"

"ما أعرف بالضبط.. هي بفرنسا"

"شفت اللوحة أقصد بورتريتك جميل جدًا، برأيي تحتفظين بي، لأن إذا بقى هنا يروح بالزبالة"

"بس ما ممكن.. لأن لو أخذته يعتبر سرقة"

"أهديه لكِ"

بالفعل استلمت الهدية التي كانت كما يبدو من كلام الرجل صديق ابن أختي أجمل هدية تركتها للعزيز محمد ابن كبرى أخواتي الذي علقها على جدار غرفته.

نُقل الصحاف في كانون الأول عام ١٩٧٥ إلى وزارة الخارجية ثم عُيِّن سفيرًا في الهند وبعدها في الأمم المتحدة وعاد إلى العراق ليرتدي البزة العسكرية ويدافع وينفذ أوامر الرئيس خوفًا منه وعلى منصبه وكبرت بذرات الكذب في أرض خصبة حتى نمت منها أكاذيب كادت تعمر كأشجار البلوط والسنديان لولا هروبه - بمساعدة خاله محمد مبارك الذي أخبرني شخصيًا عندما التقيته صدفة في مقهى الشاه بندر بعد عودتي إلى العراق عام ٢٠٠٤ -

واختفائه مع احتلال (العلوج) للعراق ولم يحصل على شهادة الدكتوراه التي تحولت إلى سراب يلهث وراءه في صحراء الخليج.

أتأسف الآن لأنني لم ألتق بسناء عندما مكثتُ لفترة قصيرة في باريس عام ١٩٨٣. تركنا جميعا الوطن، وتغيرت أحوال الدنيا من حال إلى حال وأصبح سعد البزاز مالكًا لقناة تليفزيونية فضائية ليرعى المبدعين بغض النظر عن انتماءاتهم السياسية ومن بينهم الكثير من اليساريين الذين كانوا من المغضوب عليهم من قبله وقبل قادته.

لكن اللوحة إبداع سناء بقيت محتفظة بملامحي عليها في العراق الذي لا يزال أبناؤه يتذكرونني واستلم رسائلهم المؤجلة منذ أكثر من ثلاثين عامًا.

بودابست

٢١ـ ٣ـ ٢٠٠٩

تليفون السيد النائب

بعد إبعاد محمد سعيد الصحاف عن المؤسسة العامة للإذاعة والتليفزيون، تولى المنصب مهندس زراعي اسمه لطيف نصيّف جاسم الدليمي، كان رجلاً مهذبًا معي، مُطيعًا ومنفذًا لأوامر رؤسائه، لذا حصلت تغييرات كثيرة وملحوظة في الإذاعة والتليفزيون فنُقل عدد كبير من خيرة الشباب الذين كان يمكن أن يكون بينهم مخرج ومصور ومونتير سينمائي ناجح، إضافة إلى العديد من الفنانين. وتغيَّر طاقم الأقسام وكان نصيب قسم الديكور منه وافرًا.

المدير العام الجديد كان أكثر اهتمامًا من سابقه بالبرنامج إذ حصل في العام الذي استلم به المنصب على جائزة أفضل برنامج ثقافي وأفضل مقدمة برنامج حسب الاستفتاء الذي جرى في جميع أنحاء العراق بمناسبة اليوبيل الفضي للتليفزيون في العام ١٩٧٦. هذا النجاح قاد إلى مضايقات على جميع الأصعدة، لكني صمدت وكان همي الأكبر هو تطوير البرنامج ونفسي من أجل الجمهور الذي ينتظرني بلهفة.

كان الكسب هذه المرة بتوجيه من السيد النائب الذي وشوش أحدهم في أذني قوله لرعاياه:

"ما تعرفون تكسبوها؟ شوفوها شلون كسبت عشرة ملايين وأنتم وحدة ما قادرين تكسبون"

في تلك الفترة كان من بين من أراد إثبات ولائه لهم وبالتحديد في قسمنا حاول الابتعاد عني خوفًا من رئيس القسم الجديد عبد الأمير يوسف الذي كانت له صولات وجولات عندما كنا طلابًا في أكاديمية الفنون الجميلة وكان رئيسًا للاتحاد الوطني وقتذاك. لقد تكثفت المضايقات بعد انتقال لطيف الدليمي ليصبح وزير الزراعة. وبقيت المؤسسة بلا راع.

طفح الكيل بعد استدعائي لمديرية الأمن العامة مُجددًا بعد سفر السادات إلى إسرائيل وسماع رأيي بالموضوع والرد على أسئلتهم السخيفة لمعرفة اسم الجريدة التي أقرأها وكأنني سياسية كبيرة..

سئمت وقرفت من التهديد والإهانة والسلوك الهمجي فتركت في يوم ثلاثاء فرع النحت متوجهة إلى قسم الأفلام نحو زميلي علي زين العابدين وبدون سلام وكلام سألته:

"تعرف رقم تلفون صدام حسين؟"

"ليش... خير إنشاء الله.. تريدين تتصلين بيه؟"

أشرت برأسي له مؤكدة ذلك.

فتح دليل التلفونات باحثًا عن الرقم الذي يتصل به عامة الناس بالسيد النائب طلبًا لحل مشاكلهم. وضعه أمامي على المنضدة. رفعت سماعة الهاتف وأدرت الرقم، وكان ذلك بالنسبة لي في تلك اللحظة مجرد لعبة تحولت إلى فعل جاد:

"ألو.. نعم.. تفضل"

ازدردت ريقي بصعوبة لسماع صوت السيد نائب رئيس الجمهورية صدام حسين. تنحنحت كي أستجمع طاقتي وكلماتي التي لم أخطط لها مسبقًا، وأصبحت كما يقول المثل عندنا مثل بلاع الموس لا يستطيع بلعه ولا لفظه، كان يجب أن أرد لأني لو وضعت السماعة سيعرف رقم الهاتف وسأورط بذلك المسكين علي الذي نشفت أخر قطرة دم في وجهه.

"مرحبا أستاذ.. أنا اسمي اعتقال الطائي"

"أهلاً وسهلاً.. تفضلي"

"ما أعرف أن الاسم يقول لكم شي ولكن لمجرد التعريف أنا مقدمة برنامج إذا كنتم تشاهدونه اسمه السينما والناس".

قاطعني:

"وإنتِ حلوة مثل ما تطلعين بالتليفزيون؟"

فوجئت بسؤاله وانتابني شعور غريب لأنه كيف يمكن لرجل في منصبه أن يتعامل مباشرة بهذا الأسلوب مع امرأة جادة لم يرها في حياته قط؟ كان ذلك الإحساس مصدره ربما نظرتهم الدونية إلى

العاملات في مجال الفن والإعلام ولأنهم بسهولة يطلقون العنان لألسنتهم ومخيلتهم التي تسمح لهم بقول كل شيء دون قيد أو شرط، فثارت ثائرتي ودون إي تفكير رددت على كلامه:

"أعتقد الشكل مو أهم مما نقدمه بالتليفزيون للناس.. والحقيقة أنا اتصلت لأن بودي مقابلتكم"

صمت لفترة وجيزة ثم قال:

"زين.. زين.. تعالي يوم الخميس للمجلس الوطني"

لم أصدق أذني فسألته:

"أي خميس بعد بكرة؟"

"نعم"

"شكرًا أستاذ مع السلامة"

"أهلا وسهلا مع السلامة"

وضعت سماعة التليفون.. وإذا بعلي يصرخ بوجهي:

"تعرفين شسويتي إنتِ.. خلص انتهينا؟"

"شنو.. شسويت؟

"أنتِ بجوابك الحاد هذا.. تعرفين شنو معناه؟ يسمونه إهانة"

"رد فعل طبيعي.. ليش يخاطبني بهذا الأسلوب؟ المهم أعطاني موعد يوم الخميس بعد بكرة"

"والله زين الناس تنتظر شهور... سنة" علق علي.

أخبرت بعض أصدقائي ومرَّ الأربعاء كالومضة والموعد يوم الخميس في الساعة الخامسة عصرًا وهو يوم التقاء السيد النائب بأبناء الشعب للاستماع إلى مشاكلهم وربما حلها. كان اللون الأخضر يتدرج في كل قطعة من ملابسي، البنطلون ومعطف طويل وقبعة وشال من الصوف المنسوج بكل درجات الأخضر لا أزال أحتفظ به.. كنا نقرأ أن الأخضر رمز الأمل ههه... وبرفقة الأمل وصلت، وأشاروا إليَّ بالدخول إلى صالة كبيرة يجلس فيها السكرتير الأول. فوجئت بالعدد الكبير المنتظر للمساعدة. مرَّ الوقت بطيئًا كالاحتضار ولا أحد يكلم أحد.. وجوه نسيت تعابيرها فباتت بلا هوية.

دخلت امرأة تحمل بيدها أجمل باقة ورد.. صودرت في الحال. وقبل أن تحين الساعة بدأ السكرتير بتعداد الممنوعات:

أولاً: ممنوع المصافحة.

ثانيًا: ممنوع تقديم الورد.

ثالثًا: بالنسبة للنساء ممنوع ارتداء الكورسيه "المشد" لأن به معادن وهذا يسبب الصفير عند جهاز التفتيش.

قام الناس جميعًا ميممين شطر قاعته. تلكأت خطواتي عمدًا. حاولت أن أكون في نهاية الطابور. دخلوا الواحد تلو الآخر.. ودخلت..

قاعة كبيرة يجلس في نهايتها السيد النائب وعلى جوانبها صُفَّتْ كراسي كثيرة كانت كافية لاستقبال ذلك العدد الكبير من الناس.. كان يراقب الناس فردًا فردًا.. لم أكن الأخيرة إلا أنني حينما دخلت أمعن نظره إلي لفترة من الوقت حتى أنني اعتبرته غرورًا مني لأنه ربما لم يعرفني. جلست بين الناس.

يجلس منتصب الجذع، أنيقًا يرتدي على بدلته عباءة عربية راقية، عيناه حادتان كعيني نسر جارح. بدؤوا بالدور حسب أقربهم منه في جلسته. كانت أشد المرتبكين المرأة التي تركت باقة وردها جاءت لتشكره على مساعدته بحل مشكلة ابنتها بصوت مرتجف.

"ممنونين وشلونها بنتك مرتاحة؟"

"إي الله يطول عمرك"

لا أدري لماذا كانت قامات الناس تتضاءل عندما يجلسون في الكرسي المعد لهم. كانت القاعة كبيرة إلى درجة لم يمكننا سماع ما يقوله طالبو الإغاثة منه خاصة وأن أصواتهم كادت تكون همسًا حينما يكلمونه. وكلما وصل الدور لي أشار بيده لآخر حتى جاء دور رجل تقلص حجمه في الكرسي إلى النصف واختفى صوته وهو يطرح مشكلته لكن صوت النائب ارتفع عاليًا ليسأله:

"كم عمر ابنك؟"

.....

لم اسمع الرد.. اختفى تمامًا صوت الرجل وصار يرتعد خوفًا.

"ما تخجل على نفسك جاي تطلب مساعدة وعندك ابن رجال؟ قوم.. قوم اطلع.. برة!!"

نهض الرجل من الكرسي حتى بات وكأنه يسير على الأربع.

فرغت القاعة تمامًا فبين المغادرين من أحيلت قضاياهم للنظر فيها وبعضهم من أهين أمام الآخرين وبقيت وحدي معه وجهًا لوجه فرفع يده مع العباءة وكانت أشبه بحركة ممثل مسرحية إغريقية:

"تفضلي"

تقدمت، وما لفت انتباهي رقة يده التي لا تدلل على أنه أنجز ذات يوم عملاً عضليًا.. ما أرق وأنعم يد القاتل! تحمل سيجارًا لا أتذكر أنه كان يدخنه أم لا.

"مرحبًا أستاذ"

"أهلا وسهلا آني عرفتك أول ما وصلتِ الباب"

إذن ما لاحظته كان صحيحًا ولم ابتدعه - فكرت في نفسي -

"يعني تشوفون البرنامج؟"

"طبعًا.. شوفي هذا التليفزيون كل يوم أحد أتفرج عالبرنامج... أي شنو المشكلة؟"

صفقت كفًا بكف وقلت له:

"أستاذ لا أگلك ولا تگلي... مهزلة"

"شنو وين المهزلة؟"

"قبل كلشي أستاذ أريد أسأل إذا يجبرون أي إنسان على الدخول بالحزب.. فما تتصور أن هذا يسيء للحزب وربما ينقلب ضده؟"

"طبعًا.. هذا صحيح"

"إذن كيف يسمح عضو بالحزب أن يقول لنا مثلاً: اللي ما يمشي بطريقنا نبيده؟"

"لا.. لا.. لا.. الإبادة ممنوعة حتى على الحيوانات" قال اللالالا بطريقته المعروفة.

"هذا صحيح لأن البارحة قرأت مقال عن منع إبادة الأسماك بالأنهار بمادة الزهر*"

"إي طبعًا.... كملي"

"أستاذ أنا من فترة أحاول تقديم أوراقي للدراسة خارج العراق وكلما طلبت تصديق الشهادة ما يمنحها الاتحاد الوطني والسبب لأني مو بالحزب.. أما الشي الآخر فأرجو منكم أن تطلبوا من الأمن والمخابرات أن يكفوا عن استدعائي ومو يوميًا مجرجريني"

"ليش شيريدون منكِ؟"

"يطلبون مني العمل وياهم"

"بعد أكو شي؟"

"لا شكرًا"

"زين يابه... آني راح أطلب السجل وأتدبر الأمر واستفسر عن المضايقات وبعد محّد يضايقك"

وقفت لألقي التحية، فوقف هو أيضًا وقبل أن يستقيم في وقفته شد على أضراسه لأنه كان يشكو من آلام في الظهر كما قال. لم أمد يدي لمصافحته حسب التعليمات إلا أنه مد يده معاتبًا:

"ما تعرفين تسلمين؟"

مددت يدي لمصافحته فرفع يده اليسرى واضعًا إياها على كتفي وممسدًا على شعري.

أجل لقد قام السيد النائب بالواجب ونظر في قضيتي والاستفسار من مديرية الأمن والمخابرات التي أدت إلى استدعائي من قبل رئيس المخابرات الدكتور فاضل البرّاك والتي كتبت تفاصيل حكايتها في ذاكرتي تحت عنوان "جميلة".

مضى ما يقارب الثلاثة أشهر على حكاية فيلم جميلة حتى سطع نجم مدير عام على مؤسسة الإذاعة والتليفزيون اسمه سهيل نجم الأنباري الذي حسب ما قيل إنه كان محققًا وجلادًا. أول شيء فعله استفسر عني. وبينما كنا نشاهد في قاعة الأفلام فيلمًا تليفزيونيًا عراقيًا كتبه معاذ يوسف وأخرجه كارلو هارتيون وإذا بالباب تفتح بقوة وتشعل الأنوار. كان النجم الأظلم سهيل نجم الذي ارتدى نظارات غامقة اللون برفقة جوقة من التليفزيون شاحبي الوجوه. وقف الجميع من كاتب ومخرج ومعد للبرنامج إلا أنا وكان علي يهمس:

"گومي هذا المدير العام!!"

"ما گوم" - كان ذلك تعبيرًا عن احتجاجي على الطريقة التي داهم بها صالة العرض - وأخيرًا وبعد أن وجه كلامه إلي كمحقق ليسأل:

"شنو رأيك بالفيلم؟"

رفعت جسمي من على الكرسي بتثاقل وبين واقفة وجالسة خطر في بالي كالومضة المثل القائل: "المبلل ما يخاف من المطر" فأجبته:

"ما عندي رأي"

"شلون ما عندك رأي؟"

"لأن بعد ما شفت الفيلم بالكامل"

التفت وبنفس الطريقة وجه سؤاله للمؤلف وكاتب السيناريو والمخرج فتلكأ بالحديث كارلو هارتيون عندما قال إن الفيلم يتحدث عن الاشتراكية فقاطعه بحدة:

"شتقصد يا اشتراكية؟"

"الاشتراكية العربية طبعًا"

ارتفع صوته:

"شفت؟ ما تعرف تجاوب.. تعلّم منها شفتها شلون رفضت تجاوب لأن بعدها ما شايفة الفيلم"

تدخلت فورًا:

"لا.. لا الموضوع مختلف.. ماكو مقارنة لأن هو المخرج والأستاذ معاذ كاتب الفيلم وبإمكانهم التحدث عن الفيلم"

نزل يزبد ويرعد وطلب من علي الأسئلة فرد عليه:

"ما عندي أسئلة.. الأسئلة براس اعتقال"

قرر النجم الساطع سهيل نجم منعي من تقديم البرنامج ومن ثم نقلي إلى مركز الحرف والصناعات الشعبية بعد أن رد على سؤال السيد النائب الذي استفسر عني بثلاث كلمات "شيوعية سيئة الأخلاق" لكني رددت على ذلك لمن نقل لي الخبر:

"ممكن أكون سيئة الأخلاق من وجهة نظرهم طبعًا... لكني مو شيوعية!"

لماذا لا يمكن للإنسان أن يكون حرًا مستقلاً؟ ولماذا يجب أن يدفعه الخوف للانتماء دون قناعة ليمسّح على الأكتاف من أجل الوصول إلى هدفه؟ ألف لماذا ولماذا يمكنني طرحها. إنهم يجهلون مصطلح احترام الذات ولا يسرهم من يرفض الخنوع ويعتقدون بأن الخوف صنو الاحترام وما أكبر الفرق بينهما. أخر ما شهدته من سقم في مركز الحِرَف والصناعات الشعبية هو اعتقال مؤيد نعمة الخزاف الموهوب ورسام الكاريكاتير الذي توفي بسكتة قلبية بعد السقوط دون أن يودع الأصدقاء فكتبت له ما لم استطع قوله في بغداد عام ٢٠٠٤.

"رأيتك بعد خمسة وعشرين عامًا، لكن اللقاء كان سريعًا، لم استطع أن أبدأ الحديث كما اعتاد جميع العراقيين بجملة: تتذكر؟.. أجل مازلتُ أتذكر عندما نُقلتُ إلى مركز الحرف والصناعات الشعبية، وتعرفتُ عليك عن قرب بالرغم من أنهم لم يسمحوا لي بالعمل معكم. كنت وحيدة.. ذات يوم افتقدتُ أمي فمسكتُ بكتلة الطين وعملت لها تمثالاً صغيرًا.. تركته على مائدة العمل ذاهبة إلى البيت.. كانت مفاجأتي في صباح اليوم التالي هي رؤيتي للتمثال الذي غُلّف بورق النايلون.. أزحته عنه، رفعت التمثال لأجد ورقة صغيرة كُتب عليها:" جميل جدًا سأضعه في الفرن..مؤيد" لقد أفرغته بيدك وكتبتَ اسمي عليه والتاريخ ١٩٧٩. في ذلك العام كدتَ ترحل يوم اعتُقلتَ وعُذبتَ بأسلاك الكهرباء، لكنك عدتَ وأنت مبتسم كعادتك، استقبلتُكَ فرحة لأقول لك ضاحكة وبسخرية: "الحمد الله على تمامة الخلقة" غير مبالية بمن أحاطوا بنا. غادرتُ الوطن أحمل تمثال أمي الصغير ولمسات أصابعك المبدعة عليه. سبقني الموت إلى أمي، واستعجلتَ أنت الرحيل. وبقي تمثال الفخار على الرف.. كلما نظرت إليه أراكما فيه. لكن يا مؤيد نعمة العزيز ستظل وردتك الحمراء التي رسمتها في العام ذاته نظِرة تنمو وتنمو لتكسر كل الجدران أبدًا"

نيسان – أبريل – ٢٠٠٩

الباروكة

لا أدري ما الذي دفعني لفتح تلك الخزانة حتى نسيت ما بها، إلا أن الفضول كان مُلحًّا علي يحثني على رؤية ما يحويه كيس النايلون الأسود.. دسستُ يدي فيه فوجدت كيسًا آخر.. ارتعشت يدي وهي تلامس خصلات شعري التي فاحت منها رائحة أخر وجبة حناء قبل سقوطها. سحبت يدي وغصة في حنجرتي لكني كنت مصرة على رؤية ما في الكيس الآخر.. باروكة طويلة كل شيء فيها مقيت، ملمسها ورائحتها التي تذكر بالوجع.

في السابع عشر من تشرين الأول (أكتوبر) عام 2006 كاد الحوار يتحول إلى مشادة بيني وبين الصديق فؤاد ميرزا بسبب اختلاف وجهات نظرنا أثناء عملنا في إعداد المواد لموقعي الكاتب والفنان العراقي.. قطع الحوار جرس الهاتف.. رفعت السماعة وكان صوت الطبيبة المختصة بالأمراض الصدرية.. فرحتُ لها:

- ما هذه المفاجأة حضرة الدكتورة؟

= أرجو أن تتفضلوا بالمجيء إلى المستشفى!.

- ما الحكاية... هل ظهرت نتيجة تحليل الأنسجة؟

= نعم.. ولكن هذا ليس كلام تليفون.. الأفضل في المستشفى.

- أرجوك دكتورة.. أخبريني هل النتيجة سيئة؟

= للأسف نعم.. الورم خبيث.

- حسنا.. سنأتي غدًا.

ركنت التليفون جانبًا.. أين اختفى صوتي؟ قبل دقيقة كان يلعلع مع فؤاد. التفت نحو الكمبيوتر وكان فؤاد بانتظاري.

- فؤاد.. فؤاد...

- نعم.. نعم عزيزتي شنو المشكلة؟

- نتيجة التحليل سيئة... الورم خبيث.. يعني سرطان بالرئة.

- كيف.. شنو؟ ما ممكن لأن لو كان سرطان كان انتشر من زمان.. وبعدين أنت صار لك تاخذين علاج بالمضادات الحيوية من شهر شباط.

غالبت دمعتي.

- بس الفحص الأخير أثبت أن البقعة بقيت مثل ما هي لذلك عملنا فحص جديد والنتيجة عرفتها الآن.

رحت أوضح لفؤاد أشياء لم يعرفها من قبل لكني لم أسمع له صوتًا، ولا أي رد فعل على كلامي فسألته:

- فؤاد هل أنت موجود وهل تسمعني؟

- نعم عزيزتي.. أسمعك.

عرفت من حشرجة صوته المتقطع أنه كان يبكي.

لو كان البكاء يشفي يا فؤاد لبكينا ليل نهار.. كانت مهمتي عسيرة جدًا كيف سأخبر زوجي روبرت وابنتي الوحيدة هانّا التي عندما سمعتُ الخبر قلت:

- كنت أتمنى أن أحتفل بعيد ميلادها الثامن عشر.

كانت المرة الأولى التي وافقت فيها على قبول دعوة للمشاركة في مناسبة ثقافية في هولندا وكان موعد السفر في الثالث والعشرين من تشرين الأول. كانت صباحاتي تبدأ في المستشفى حتى ينتهي النهار بانتظار نتيجة فحص جديد ولا بد من العثور على مصدر الورم في عضو آخر لأنهم قالوا: إنه الثانوي ولكن أين الأول الرئيسي؟ بسبب سفرتي أجلنا فحص العظام.. وهكذا حملت الخبيث معي ليشاركني فرحتي بلقاء أصدقاء ومعارف لم أرهم منذ سبع وعشرين سنة. مرت الأيام والليالي بسرعة بصحبة الأصدقاء وكنا نضحك من القلب أو نتألم بعمق.. لكن لا أحد يدري ربما ستكون هذه سفرة الوداع الأخيرة.

رفضتُ أن أكون مصابة بمرض مميت ولم يتملكني شعور بالمرض قط.. لم أفقد طاقتي ولا حيويتي.. لن يهدني أكبر خبيث في الوجود لأنني قررت أن أبقى وأرعى ابنتي. بهذه الأفكار والروحية نزلت من الطائرة عائدة إلى بودابست لأبدأ الفحوص المؤجلة.

اليوم... أخر أمل لي.. تمددتُ على سرير تحت جهاز فحص العظام. انحنت علي السيدة المختصة لتسألني عن سبب الفحص وحينما عرفتْ الموضوع وأنه بدأ قبل تسعة أشهر، راحت تشهق باكية، حدقت إلى عينيها باستغراب فقالت:

- زوجي أيضًا مات بسرطان الرئة.. لم يبق غير ستة أشهر.

كان وقع كلامها كوخزة في القلب، كيف استطاعت أن تقول ذلك لمريض يحمل نفس العلة؟ ومع ذلك نهضت لأواسيها مؤكدة لها بأن الحياة تخبئ المفاجآت وستجد يومًا ربما إنسانًا أقرب إلى قلبها من زوجها المتوفى. ثم رجوتها قبل أن ترسل التقرير لطبيبتي أن تخبرني بالنتيجة. مسحت دموعها.. أرتني الفيلم وأعلنت عن عدم وجود أي خبيث في العظام. لقد تأزم الوضع لدى الأطباء بعد فحصي من جمجمتي حتى أخمص قدمي ولا أثر لمنبع المرض.

- سيدي! لم تر المستشفى في تاريخ حياتها (١٠٦ سنوات) مثل حالة زوجتكم. اندهشنا جميعًا بعد تسعة أشهر من علاجها بالمضادات الحيوية التي لم تؤثر على البقعة والذي اعتقدناه حسب أكبر الاحتمالات تدرنًا رئويًا ثم اكتشاف الورم الخبيث وبالرغم من كل ذلك لا تزال تتمتع بصحة جيدة ولم تفقد وزنها وهي بكامل قوتها وحيويتها وحسب فحوصاتنا لم ينتشر في عضو آخر، لذا سنعقد اجتماعًا للنظر في حالتها وستقرر اللجنة تحويلها إلى

الفحص بأدق جهاز للفحص المقطعي ربما يعثر على مصدر المرض، وبعد ذلك نبدأ العلاج - أوضحت الطبيبة المختصة - كان علينا أن ننتظر يوم الفحص.. مضى أسبوعان... ولم نبلغ بالموعد. نسي زوجي شيئًا اسمه النوم.. وفي نهاية الأسبوع الثالث تسلم زمام الأمور ولم يعتمد لا على المستشفى ولا على المعهد الخاص بالجهاز فبحث بكل طرقه عن عنوانه ورقم تليفونه واتصل بهم ولحسن الحظ كان أحد المرضى قد ألغى موعده وحصلت على الموعد في نفس اليوم.

وصلنا في الموعد المحدد وقبل أن أدخل الفحص كان ينبغي علينا أولاً مقابلة رئيس الأطباء والمعهد. دخلنا فباغتنا بسؤاله:

- من المريض؟

- أنا - قلتها مبتسمة.

اطَّلع على التقارير الطبية ونتائج الفحوص والتحاليل.

- منذ متى بدأتم المراجعة؟

- منذ شهر شباط (فبراير).

تفحصني بنظرات غريبة ثم أردف قائلاً:

- هذا غير ممكن.

- ما هو ؟

- لابد من وجود خطأ ما لأن هذا المرض وبالذات في الرئة يستمر أقصى فترة هي سنة ونصف.

- يعني لازم.. شرط أن يموت المريض؟ سألته ضاحكة على مضض.

- هكذا تقول الإحصائيات... لذا أقترح تحليل العينة في مكان آخر - قلب الأوراق - وكما أرى أنهم يبحثون عن الرئيسي.. ربما لن نجده أو ربما كان، لكن جهاز مناعتها قوي إلى درجة قضى عليه فظهر بعد ذلك في الرئة. على أي حال يستغرق الفحص أكثر من ثلاث ساعات بعد تناول السوائل المخصصة وزرق الإبرة في الوريد وهذه أشياء ليست مريحة.

خرجنا من غرفته.. قبلني زوجي ونزل إلى صالة الانتظار ودخلت الغرفة المخصصة لي. لحسن الحظ كنت أحتفظ بمجموعة شعرية في حقيبتي فقرأتها مرتين ثم رحت أفكر بكلام الطبيب وأحدث نفسي:

"بالله أكو طبيب حمار مثل هذا؟.. بدل ما يطمئن المريض راح يخبره ويبشره أنه أقصى فترة يبقى على قيد الحياة هي سنة ونص.. طاح حظ اللي منحك الشهادة. لا ومسوين جو الغرفة رومانسي ضوء خافت وموسيقى بعد ما يرعبون الإنسان"

وأخيرًا نودي باسمي، ولكن قبل ذلك سمعت صوت المختصة صارخة تطلب النجدة من الطبيب. لم أهتم للأمر لأنني كنت منشغلة تمامًا بنفسي.

إذن هذا هو الجهاز العجيب الذي بخلوا به علينا لأن ثمن الفحص يكلف ألف دولار وانتظروا حتى آخر فحص بعشرات الأجهزة. تمددتُ تحته شاعرة وكأنني في مركبة فضائية وبدأ العمل من أخمص القدم حتى الصدر وكلما صور جزءًا كنت أردد في نفسي "لن يجد هنا أي شيء.. ولا هنا..لا.. لن" وصل إلى الرأس، كان صوته يدوي برتابة حتى أفقت على صوت المختصة:

- شكرًا لقد انتهينا.

- يا الهي! غفوت.

نهضت مسرعة وشكرت الموظفة التي أعدت صحنًا من الفاكهة والحلوى يقدمونها للمريض بعد الفحص. اعتذرت عن تناولها لكني أخذت الشكولاتة لابنتي.

نزلت فوجدت زوجي ينتظر عند نهاية السلم قلقًا مضطربًا وأخبرته بأنني نمت خلال الفحص فاندهشت العاملات وحسبما عرفت بأن الرجلين اللذين سبقاني كان قد أغمى عليهما خلال الفحص. فعلقت ضاحكة أمام زوجي:

- طبعا الرجال أبطال بالبيت.

كان انتظار النتائج أقسى من المرض نفسه، منهكًا للروح.. فإذا كان المرض يأكل الجسد فالانتظار ينخر الأعصاب والروح والأعتى من ذلك ليس روح المريض فحسب بل أقربائه ومحبيه.

كانت الورقة التي صورها الجهاز أشبه بلوحة تجريدية بخلفية سوداء بخطوط متموجة بيضاء وبقع حمراء وصفراء. فالحمراء هي الخطر بحد ذاته. ظهر الخبيث في الرئة اليسرى على شكل هلال أحمر اللون محاطًا بهالة هلامية وفي الجهة اليمنى ظهرت بقع حمراء صغيرة جدًا ربما أنها النجوم؟. في العنق بقعة حمراء اعتقدوا أنها مصدر الخبث ولكن بعد تحليلها لم تكن ذلك.

لم أتمالك أعصابي هذه المرة حين عودتي إلى المستشفى من معهد الأورام الخبيثة لأواجه البروفيسور مدير المستشفى:

- دكتور.. ممكن أعرف ما الذي سيحصل معي؟ قلتم لي بأنه ثانوي في الرئة ولم نجد الرئيسي لحد الآن.. فما العمل؟

- ليس المهم ثانوي أو رئيسي المهم وجدناه في الرئة ويجب علينا مقاومته.

قال ذلك وبدا كأنه امتعض من كلامي. لا طريق للخلاص سوى طريق واحد هو العلاج الكيميائي.

(الصديقة العزيزة اعتقال..

آثرتني رسالتك ولكن هل تعرفين أن كل شيء سيتوقف على عزيمتك، فإن تكون قوية سوف تجتازين كل هذا. وكم من الناس نعرفهم تخلصوا من حالات مشابهة وعادوا إلى أعمالهم بقوة أكثر. من الذين يحضرني اسمهم الآن ومعروفين عالميًا الرياضي

في سباق الدراجات الأمريكي آرمسترونك والذي عاد للسباق ليكون ٦ مرات بطل العالم. لا تفكري كل صباح ومساء بالغد، اطردي هذا التفكير كلما جاء فمن منا يعرف ما سيكون غدًا؟ وفكري بإبداع قصة جديدة أو بصقل ما هو في طور العمل. فإن العمل الأدبي والفني هو الذي سيعطيك السعادة ومن ثم القوة على مواجهة هذه المتاعب.

أمس مرَّت عاصفة على باريس لمدة ساعة وكان أحد المتجولين على الرصيف تحت إعلان حديدي وزجاجي سقط بفعل الرياح على رأسه فأوقفت حياته وبعد ذلك بربع ساعة توقفت العاصفة وأشرقت الشمس. فالرياح التي تلقح الأزهار لتعطي الثمار هي نفسها أوقفت حياة هذا الإنسان...

وأخيرًا أرد على تساؤلاتك عن العدل على الأرض. فيا عزيزتي نحن شهود على كل ما حدث لأبناء شعبنا كل السنين الماضية. فلم أعد أؤمن بالعدالة على الأرض. إنما الصدف تحدد ذلك وأين نكون.. ولكن كل ما مررنا به شَحَذَ وَعينا وهذا أحسن هدية لنا من القدر. ولابد أن نأمل بالعمل الكثير الذي سنقدمه عبر الأدب والفن: وكما يقول هيراكليت: "بدون الأمل لا يمكن الوصول إلى اللاموٴتمل"

الألم يدفع الإنسان لملامسة قعر أعماق العذاب فيتعرف على أسرار لا يمكن الوصول إليها بسهولة ولكن لابد من طاقه كبرى للصعود

إلى النور وعدم البقاء طويلاً في القعر المظلم. أشدُ على يديك بحرارة مع تمنياتي لك ولعائلتك الهدوء والصفاء.)

حسن المسعود

2006.12. 10

قبل بدء العلاج كان لا بد من مقابلة رئيسة أطباء عيادة الأمراض الصدرية والتي أشرفت على علاجي من شباط - فبراير حتى تشرين الثاني - نوفمبر٢٠٠٦ حسب تعاليم المستشفى. بكت حينما رأتني. لم تتفق في البداية مع المستشفى على تشخيص مرضي وكانت على يقين بأنه ليس تدرنًا رئويًا خاصة حينما سألتها بعد ثلاثة أشهر من تلقي العلاج عن نتيجة زرع عينة من اللعاب.

- دكتورة.. ماذا حل بنتيجة تحليل البلغم؟ يعني حتى لو الأرنب كان ولد بعد ثلاثة أشهر.. وزرع العينة استغرق أكثر من هذا الوقت..

اضطربت في البداية ثم ردت باستياء متذمرة من المستشفى:

- نعم بالضبط.. لا أدري ماذا يفعلون.. إذا كنا لا نستطيع إنقاذ المريض، فلا يجب علينا أن نضره بهذا الكم الهائل من المضادات الحيوية.. ثم إنهم لم يعثروا على عصيات كوخ لماذا إذن العلاج ضد السل؟ سأتصل بالبروفيسور لإيقاف العلاج لأنه أضر بالكبد.

اقترحت طبيبتي تبديل أحد أنواع المضادات الحيوية إلى ثلاثين إبرة استمرت لمدة شهرين وكنت أسخر أمامها:

- تحولت مؤخرتي إلى منخل صرت أرى العالم من خلاله.

ضحكت معلقة على كلامي:

- هو العالم الآن لا يستحق إلا أن ترينه من خلاله. في الحقيقة أنا أعمل في عيادة الأمراض الصدرية منذ ما يقارب الثلاثين عامًا، لكني لم أر مريضًا مثلك قط.

تصادقنا حتى أنني في زياراتي لها كنا نتحدث عن كل شيء ناسين المرض. وفي سياق حديثنا عن الكتابة قالت بإن هناك كُتَّابًا يكتبون بشكل أفضل حينما يشربون أو يدخنون فقاطعتها:

- نعم وآخرون يبدعون بعد تناول المضادات الحيوية وخاصة الإبرة.

كانت تعتقد بأني أمزح بقولي ذلك، لكني نورتها بأن مفعول الإبرة كمفعول المخدر أو شراب الكحول.

* * *

حُدد موعد تلقي العلاج الكيميائي في الخامس العشر من كانون الأول أي قبل أعياد الميلاد بتسعة أيام وقبل حفل تخرج ابنتي من الثانوية بثلاثة أسابيع. أي سيكون شعري قد سقط نصفه. كان همي الكبير هو ابنتي.

لقد سمعنا عن قبعة تسمى بالقبعة الثلجية توضع على رأس المريض أثناء تناوله الكيميائي لتمنع تساقط شعره (وعلى الأقل بعد حضور الحفل). نقب زوجي عنها في الإنترنت ودليل التلفونات حتى حصل على عنوان المحل الذي يقع على أطراف بودابست ويبيعها بمبلغ باهظ الثمن. حاولت إقناعه بعدم شرائها لأنني أعرف أنها لن تنفع ولكن دون جدوى. جاء بالقبعة فوضعتها في الحقيبة مع عدة المستشفى.

كان صديقنا الدكتور السوري مصطفى موسى أول من سعى إلى مساعدتي منذ أول فحص وصولاً إلى الخبيث وقبل أول جرعة كيميائي اتصل بي ودعاني لتناول الشاي في مقهى ليقوي من عزيمتي.. تحدث عن كل شيء إلا المرض. بالرغم من أنه من أكراد سوريا الذي تعلم اللغة العربية في الصف الأول إلا أنه كان يجيدها أفضل من أغلب العرب نتيجة قراءاته المتواصلة. وقبل أن ننهي جلستنا قال:

- اسمعي! إنتِ بعد العلاج عيشي حياتك بشكل طبيعي وما تقعدي بالبيت ولا تفكري بالمرض واستمري بكتابة ذاكرتك وقصصك حتى نقراها!

- مصطفى! آني راح أموت.

- أهووو.. يا ستي صلي عالنبي.. سعد الله ونوس كتب أجمل أعماله من كان مصاب بالسرطان وعاش خمس سنين.

- خمس سنين... زينة.. يا ريت.

فتح باب سيارته واضعًا في يدي الأعمال الكاملة لسعد الله ونوس. شكرته على كل شيء على أمل أن نلتقي بعد العلاج.

في يوم الأربعاء المصادف الرابع عشر من كانون الأول دخلت المستشفى.. إن وضع مستشفى الأمراض الصدرية القديم إلى جانب وضع المجر الاقتصادي لا يمكن الحصول فيه على غرفة بسرير واحد.. لكن طبيبتي سعت لأكون في غرفة من سريرين بقي أحدهما شاغرًا.

أجريتْ الفحوص الروتينية في اليوم الأول لتهيئة المريض قبل أخذ جرعة السم. لقد ندمت على توقيع عقد مع المستشفى للموافقة على الدخول في تجربة بحث أمريكية على المصابين بسرطان الرئة وهو أن يزرق المريض أسبوعيًا بإبرة لتقوية جهاز المناعة وكانت أعراضها الجانبية مشابهة للكيميائي خاصة وأن الطبيبة المشاركة بالبرنامج جاءت فرحة لتخبرني بأن الكمبيوتر في أمريكا اختارني لأشمل بالتجربة وكنت الرقم ٨٠١ في جميع أنحاء العالم.

كان يجب أن أتهيأ نفسيًا.. خالجني شعور مزدوج بين القبول والرفض وباعتقادي أن هذا الشعور يراود كل مريض مصاب بمرض مميت وهو القبول بجرعات الكيميائي لأنها ستبقيه - ربما - على قيد الحياة والرفض لما يؤول إليه من معاناة جسدية وشكلية، ولكي أبعد كل ما يمت للعلاج بصلة فتحت كتاب

المجموعة الكاملة لسعد الله ونّوس وبدأت أقرأ مقدمته وكلمته التي ألقاها في مهرجان المسرح العالمي. أهدى أعماله لابنته، وبقيت جملته الشهيرة تتردد في رأسي: "نحن محكومون بالأمل".

في عام ١٩٨٨ رن جرس هاتفي لأفاجأ بصوت الصديق فيصل الدراج في بودابست ثانية.. اتفقنا على موعد والتقينا. لم يكن وحيدًا عرَّفني على صديقه:

- الكاتب المسرحي سعد الله ونوس.. صديقتنا اعتقال عراقية.

كنت أتمنى ألا يظهر رد فعلي الداخلي عندما رأيت سعد الله ونوس، لأنني كنت قد رسمت صورة مغايرة تمامًا له بعد قراءاتي لمسرحياته ومشاهدة إن لم تخني ذاكرتي مسرحيته على خشبة المسرح القومي في بغداد "حفلة سمر من أجل خمسة حزيران" بوغت بهذا العملاق في أدبه بضآلة حجمه وصوته الهادئ ورقته. لا أتذكر أننا جلسنا في مقهى لقد شغلنا نحن الثلاثة مقعدًا خشبيًا على حافة بحيرة صغيرة وعميقة جدًا تستكين وسط حديقة بين البنايات والشوارع بمواجهة كنيسة كبيرة قريبة من مكان سكني.

بدأنا الثرثرة والحكايات مع فيصل حتى عرفت أن سعد الله ونوس مصاب بداء الكآبة وعسى أن هذه السفرة تنتشله منها. عند ذلك وضعت ما يسمونه في قاموسنا الأخلاقي بالحياء جانبًا تاركة حديث الثقافة ورحت أروي للكاتب الغارق في كآبته ولفيصل الدراج الذي كلما كبر في السن، ازداد طفولة حكاية عن سائح

كويتي سكن في الشقة المجاورة للشقة التي كنت أستأجر فيها غرفة.. استعانت صاحبة البيت بترجمتي لكلام الكويتي ضيفها الذي ترك عائلته وجاء يستجم وحيدًا. كان طوله مساويًا لعرضه، يمشي كالبطريق، داكن البشرة وكان الزر الوسطاني لقميصه مفتوحًا دائمًا.. يكرع يوميًا زجاجة ويسكي وبهذا تتفجر رغبته بالحصول على امرأة. هذا ما أفهمتني به صاحبة البيت من خلال لغة إشاراته لها.

في نهار الأحد تفاقمت وحدته وجاء طالبًا مساعدتي لأدله على مكان يتناول فيه وجبة محترمة ويلهو فيه كمطعم أو ما شابه ذلك فشرحت له بالتفصيل كيفية الذهاب إلى أحد الفنادق الشهيرة لأن بإمكانه أخذ الترام من أمام البيت وليعدّ المحطات ثم ينزل. لم تمضِ ساعة وإذا به يطرق بابي..

- ها.. شو رجعت بسرعة؟

- ضيعت.

- غريبة!.. حتى الورقة عندك مكتوب عليها اسم الفندق والمطعم.

- مو هاي المشكلة.

- لعد شنو اللي صار؟

- صعد الترام ولد وبنت.. وهذا الولد ملعون الوالدين حاضن البنت ويمصمص بشفايفها وآنه ما أعرف وين أنطي ويهي.. ويبوّس الولد وآنة انثار وتهيّج.. إي هذا ما يخلص ماي ظهره؟

وعلى هالحال طول الطريق... يا يابه.. يا يابه وآنه انثار وتهيّج وضيعت الطريق واريعت بنفس الترام.

عند هذا الجزء من الحكاية كاد يغمى على سعد الله ونوس وفيصل من الضحك حتى دمعت عيناهما.. سكتا ثم قال:

- يمكن صار لي سنين ما ضاحك مثل هذا الضحك.. شكرًا اعتقال.

تحدث قليلاً عن مرض الكآبة فسألته إن كان لديه أولاد.

- نعم عندي بنت صغيرة فكرنا ربما بمجيئها يتحسن الوضع.. ولكن ما في فايدة.

لم نشعر بخيوط الليل وهي تهبط على البحيرة لأنه كان فرحًا لضحكاته وفيصل أشد فرحًا منه. كانا كطفلين ضائعين.. نفدت قمصانهما النظيفة ولم يعرفا ما يفعلان فطلبت منهما أن يأتيا بها، غسلتها وكويتها. أعطيتها لهما وودعتهما.

أغلقت الكتاب وأطلقت تنهيدة كما كانت تقول أمي "من تحت ضلوعي"

"ليش.. ليش؟ راح مع الأسف"

وتراءت لي أخر صورة له وهو حليق الرأس.. فقفزت من سريري كي أعطي القبعة الثلجية للطبيبة لتضعها في الفريزر ولتكون درجة برودتها ١٣ تحت الصفر وتصبح صالحة للاستعمال صباح الغد. لم أعد إلى الغرفة بسرعة وفكرت أن أتمشى في الحديقة الجبلية.. عدت لأجد السرير الفارغ قد شغلته امرأة لتتناول جرعة

الكيميائي بصحبة والدتها مفضلة العودة بسرعة إلى بيتهما في الريف.

في الصباح كان أول القادمين زوجي.. من السخف أن أسأله إن كان قد نام جيدًا. مرت الدقائق بطيئة جدًا.. حتى جاءت طبيبتي الشابة مع الممرضة لتهيئة الوريد والحقن بإبرة ضد الحساسية.. جلبتْ قبعة الثلج معها.. ربطتْ شعري وألبستني إياها فعلقتُ ضاحكة:

- أتمنى أن ما يجمد الفهم والعلم برأسي بدرجة ١٣ تحت الصفر.

رد فعل الطبيبة وتعبير وجهها لا يمكنني وصفه.

- حتى في هذه اللحظة وأنت تنكتين؟ - وملتفتة نحو زوجي - هذا الذي يعجبني فيها دائما مبتسمة.. هذا الفرق بين عربية ومجري.

"يرقص الطير مذبوحًا من الألم"

أربع ساعات.. قطرة.. قطرة من الخليط العجيب الذي سيحرق الأخضر بسعر اليابس. لم أفضل أن تراني ابنتي في المستشفى.. ما أردت لقلبها أن ينكسر. كانت تستعد لامتحانات السنة الأخيرة في الثانوية لتقدم إلى الجامعة.

قرأتُ عن الأعراض الجانبية لخليط الكيميائي وإبرة تقوية المناعة وأصبت بالهلع عندما عرفت أنه ربما يسبب انسداد بين الحلق والحنجرة وفضلت أن أكون مع مريضة أخرى.. ماذا لو حصل ذلك

بالفعل؟.. لكن سرعان ما دخلت ممرضة ضخمة ملامحها لا تبعث الطمأنينة في النفس لتقول:

- سأجلب الصحن الكلوي.

- لا لست بحاجة له لأنني أستطيع الذهاب إلى الحمام.

- هذا الصحن ليس للتبول وإنما للتقيؤ.. لأنك ستتقيئين!

- ومن قال إني سأتقيأ؟ لا أريده.

جلبته وكان شكله يشبه شكل الكلية..

أخفيته وصرت أردد "لن أتقيأ... لن أتقيأ.. لن.. لن..."

ولم أتقيأ كالآخرين.

في صباح اليوم التالي الجمعة لم أشعر بشيء، جمعت أغراضي منتظرة التقرير الطبي قبل العودة إلى البيت.. في المستشفى كان الجميع بانتظار رد الفعل لأن الخلطة كما يبدو جديدة. عدت إلى البيت دون أن أعلم ما الذي سينتظرني من أعراض جانبية. لم أهتم للعلاج وأسرعت في التحضير لأعياد الميلاد.

في ليل السبت دق ناقوس العذاب وها هو الجحيم يسلط لسان لهبه كسوط ليجلد وينهش الجسد بأكمله. لم يتعب ولم يكف لخمسة أيام متتالية. ورحت أكظم غيظي وألمي من أجلهما حتى خف الألم ومرت أعياد الميلاد حزينة كئيبة..

كانت ابنتي تستعد لحفلة ما قبل التخرج وهي أن البنات يرتدين فساتين بيضاء كفساتين العرس والأولاد بدلات سموكنغ سوداء ليرقصوا الفالس في حفل كبير يحضره أولياء الأمور والأقرباء المدعوون، ثم يُمنح كل منهم شريطًا أشبه بالشعار يُعلّق على صدورهم رمزًا للمدرسة التي يتخرجون منها.

رجتني ابنتي أن أرافقها إلى المحل الذي استأجرتْ منه الثوب كي تلبسه أمامي منتظرة رأيي، وقبل مغادرتنا المحل عرضت علي أن نذهب إلى محل آخر كانت قد بحثت عنه في نفس وقت اختيار الثوب.. محل الباروكات. طفلتي كان يهمها ويشغلها شعري أكثر من ثوبها إذن؟ واخترنا باروكة مشابهة لشعري.

قبل رأس السنة بدأت خصلات شعري بالتساقط لكني حرصت على ألا أمشطه كي يبقى حتى بداية العام الجديد، وفي أول يوم من العام الجديد شجعت نفسي على غسله.. وغسلته واضعة المشط فيه فبقيت الخصلات بيدي.. خرجت من الحمام وقبل أن أدخل الغرفة ناديتهما:

- لا تتفاجآ لقد سقط شعري!!

كنت أحمله على كفي كأم تحمل وليدها الميت. ركض زوجي نحو المطبخ وابنتي نحو غرفتها وكلاهما يبكي. لم أنكسر وبقيت محتفظة بروح الفكاهة حتى على نفسي، ولم يهدأ أو يكف قلمي عن الكتابة. كنت أسابق الألم في كتابة ذاكرة شيء جديد أو قصة.

أضحك من القلب مع الأصدقاء الذين كنا نعمل معًا.. كنت أتوجّع وأضحك. وكلما تطلعت في المرآة قلت:

- آآآآخ!! رحمة الله عليك يا أمي.. لحسن حظك غادرتِ أبدًا ولم تريني.. أنت يا من أصابعك وضعت أول عجينة حناء على شعري.

فتحت الكمبيوتر لأطلع على رسائل الأهل والأصدقاء فوجدت ردًا من زميل الدراسة والصديق فراس عبد المجيد على سؤال لي "إن عمر معرفتنا وصداقتنا هي أربعون عامًا بالتمام والكمال"، لم أخبر فراس في البداية عن مرضي لذلك اندهشت عندما وجدت قصيدة أهداها لي عنوانها "خصلة شعر" اختارها من الدفتر القديم.

كنا في السنة الثانية في أكاديمية الفنون الجميلة نتبادل الكتابات أقرأ قصائده ويقرأ قصصي، جاءني بهذه القصيدة طالبًا سماع رأيي بها فرحت أدندن لحن إيقاعها الذي بقي في مسامعه بعد أربعين عامًا ليهديها لي دون أن يعلم أن تلك الخصلة تناثرت وانطلقت ساقطة هامدة في كيس نايلون وخالدة في القصيدة:

إلى العزيزة اعتقال

خصلة شعر

- ١ -

تمرّدي
تجمّعي.. وانفردي
تقرّبي.. وابتعدي
يا زخةً رائعةً من المطرْ
يا غيمةً، روعتها: تحجب جانبا من القمرْ
يا رقة الشلال حين يبلغ القعرْ
يا ضحكةً رنينها في خلدي
يا نغمة إيقاعها في كبدي
يا موجة ثائرة.. ترفعني
تطير بي، تحملني
للأبعدِ..
للأبعدِ
كانون الثاني ١٩٦٩

- ٢ -

أموت لو تلفها غلالة رقيقة
كما تلفّ كذبةٌ حقيقة..
وإن بدَت طليقة،
ترف فوق صفحة اللجينْ
أموت يا صديقتي..
أموت مرتينْ
٦ شباط ١٩٦٩

- ٣ -

لأنها كطائر على شغاف خافقي يحومْ
لأنها رائعة كالشمس، كالأقمار، كالنجومْ
لأنني كل صباح ألتقي بسحرها الجميلْ
وأختبي بظلها الظليلْ..
لأنني كل صباح موعدي مع الشموس،
والأقمار،
والنجومْ..
فكل يوم (يا صديقتي) أموت

.. كل يوم

١٦ آذار ١٩٦٩

- ٤ -

قادوا خطاه نحو غابة مجهولة

قادته ألف غولة وغولة

وأوثقوا الحبال في الأغصان (كان الوقت قبل الفجر)

والتفت الحبال حول عنقه، تأرجحت رجلاه

وأسبلت عيناه..

قلن له:

"لا شيء.. محض رعشة، وينتهي – من بعد ذاك - الأمر"

وكان أنْ قد انتهى "من بعد ذاك الأمر"

ملاحظة :

الحبل كان خصلةً من شَعرْ!

١٦ تشرين الثاني ١٩٦٩

***

عبثًا طلبت من الطبيبة تأجيل الجرعة الثانية من الكيميائي لأنها ستصادف قبل يومين من حفل ابنتي. في اليوم التالي بعد عودتي من المستشفى ارتديت الباروكة وذهبنا لحضور الحفل وكانت أجمل البنات، ترقص الفالس وكأنها تطير كفراشة.. شاهقة الطول رشيقة، شعرها الداكن الطويل يكاد يلامس كفلها، لكنها حزينة. في تلك الساعة بدأت الآلام.. جلست على مضض وكانت سكاكين الألم تطغي على الموسيقى وتمزق الغبطة في الروح حتى انتهى الحفل.. ومن المتعارف عليه بعد الحفل الرسمي يراقص الآباء بناتهم.. لكنَّ أباها ودَّعها وسط الحشد معتذرًا ليعيدني إلى البيت.

لم أعر اهتمامًا للألم ولا للخدر وكنت أمارس حياتي بشكل طبيعي كي أقوي من عزيمتهما.. كنت أرى الأسى والبؤس في عينيهما فأروي لهما طرائف ونكات لم تحرك فيهما شيئًا حتى أن زوجي أكد ذلك في قوله: لا أستطيع أن أضحك.

لم تعلم ابنتي أنني كنت أراها من شرخ صغير تمسح دموعها أمام الكمبيوتر وعندما شعرت بوجودي تصنعت الحرقة في عينيها.. كنت أرتدي ثوبًا مغربيًا طويلاً أبيض اللون مطرزًا بالذهبي والأبيض ذكرني بلباس جماعة كرشنيا الذين يحلقون رؤوسهم فنزعت المنديل من على رأسي ووضعت أقراطًا كبيرة في أذني وباغتها بالأغنية التي يرددونها بإيقاع رافعة يدي كالدعاء:

- هالي.. هالي كريشنا.

ضحكتْ بصوت عالٍ ثم قالت بنبرة عتاب:

- ماما.. ماما حتى بهذا الوضع تسخرين من نفسك؟

كانت قدماي تدكان الأرض بالرغم من خدرهما وأنا أجوب الطرقات المجاورة لبيتنا:

- يجب أن أقضي عليه.. لا يمكن أن يكون هو الخبيث بعينه يسكن رئتي.. وإلا من أين لي كل هذه الطاقة وما زلت أعبّ من الهواء قدر المستطاع؟ مستحيل.. مستحيل..

بالرغم من أن موعد الجرعات يتم كل ثلاثة أسابيع إلا أن إبرة المناعة كانت أسبوعية فما كان للألم فرصة ليهجع وأهجع بدونه. كنت أسابقه وأسرق الوقت على غفلة منه لأكتب ذاكرة جديدة ولأعبر له عن إهمالي وعدم احترامي له بإثبات وجودي على رغم أنفه.

"الصديقة العزيزة اعتقال..

تحياتي واحترامي،

كم كنتُ قلقًا عليك.. لم أكتب إليك لأنني لا أريد أن أثقل عليك وكنت مترددًا لأني انتظرت منك بعض الكلمات... لا أدري ولكني هكذا فكرت. في الأسبوع الأخير من العام الماضي أرسلتُ لك أكبر كتاب عملته وقلت ربما ستعلمينني بوصوله.. لأنني قلت إن إرسال هدية صور لوحات أفضل من الشكولا فهل وصلك؟ لكم أفرحني أنك

تتمتعين بمعنويات عالية.. إنني أدرك أن هذا النوع من العلاج مُنهك، لكن الشاعر رنيه شار يقول: "لكي تكبر لابد أن ترتعد".
كلنا في أحداث الحياة نواجه ظروفًا من هذا النوع ولا بد من أن تكون هذه المرحلة المادة التي تجعلنا نطرح سؤالاً: ما هو الإنسان؟ إنه مادة عملنا الأدبي والفني.. وإن الألم والمتاعب تقودنا إلى أماكن لا نفكر سابقًا بالاقتراب منها.. ولكن يجب أن نفكر أيضًا بالحياة وأن نستفيد من هذه التجارب القاسية ونوظفها في خلق فني، فلم يعد الألم آنذاك ألمًا.

كنتُ سعيدًا بقراءة ذاكرة الأشياء فعلى الرغم من قصرها لكنها تجمع بين الدراماتيكية والسخرية. منذ بضعة أيام وجدت بعض الهدوء وانغلقت في الريف لعمل مجموعة جديدة من الخطوط وكانت كلها بالرمادي.. حتمًا أنها تعكس جو المناخ والجو الداخلي "النفسي" ولكن عندما نتعرف على ما يعكر الصفو.. عند ذاك لم يعد الصفو معكرًا.

لا تُكلفي نفسك يا عزيزتي بتعب إضافي بموضوع "سلطان الصورة". أريد منك أن تسجلي كل لحظة لتكون فيما بعد مادة للكتابة تُعبِّرين فيها عن إنسانيتك التي هي إنسانية العالم. أكرر تمنياتي الطيبة بتجاوز هذه المرحلة بسرعة ولك ولعائلتك ألف تحية

حسن المسعود

كانون الثاني ٢٠٠٧

في ذلك الشتاء لم يهطل الثلج، وكعادتي لم أبقَ في السرير الأبيض بل أقضي النهار قبل حلول الظلام المبكر في حديقة المستشفى. شاركتني الغرفة هذه المرة سيدة في الستين من عمرها وكنت أحسد من تجاوز الستين. كان اسمها ماجدولنا "المجدلية" تعيش بنصف رئة منذ عام وشهرين.. أصبحت المستشفى بيتها الحقيقي. تتنفس بواسطة قنينة الأوكسجين أثناء نومها. لم تسمح لي بفتح النافذة لتغيير هواء الغرفة الراكد البتة معتبرة ذلك عدوانًا ضدها وأنها لو أخذت بردًا ستموت.

بينما كانت تتهيأ للنزول من أجل إجراء الأشعة المقطعية C T وصل زوجي الذي رآها مسبقًا بشعر أسود قصير يخطه الشيب، وإذا بها تُخرج باروكة قصيرة شقراء من خزانتها لتضعها على رأسها. فاجأني زوجي برد فعله حينما خاطبها:

- سيدتي لستِ بحاجة لهذه الباروكة لأن شعرك أجمل بكثير!

لم توافقه الرأي وإرضاء لغرورها ارتدتها وجلست في الكرسي المعد لها نازلة برفقة الممرض. في تلك اللحظة شعرت بقيمة زوجي الإنسانية لأنه أصلاً ليس من صنف الرجال الذين يكيلون المديح أو الإطراء للنساء بمبرر وبدونه.. كان يعرف جيدًا في تلك اللحظة متى يقول لمن وكيف.

عادت ماجدولنا إلى الغرفة وقبل أن تدخل سريرها تناولت حقيبتها اليدوية لتخرج منها صورة.

- هكذا كنت بالشعر الأشقر!

لو لم تقل إنها صورتها لما عرفناها.. التُقِطت الصورة قبل اكتشاف مرضها مباشرة.. كانت تبدو أصغر بعشرين عامًا.. شقراء تحتضن آلة الچلو.. تعزف في دار الأوبرا المجرية حيث كانت تعمل. كنت أحاول مساعدتها بأشياء لم تقو على فعلها، فاطمأنت إلي وبدأت تروي لي أشياء عن حياتها الخاصة.

لقد أحبت ماجدولنا الشابة عازفة الچلو المبتدئة رئيس فرقتها وتزوجا، لكنها أرادت تطوير نفسها إلى جانبه وهمها هو الموسيقى والسفر لإحياء حفلات موسيقية في داخل الوطن وخارجه ممتنعة عن الإنجاب.. لذا تركها زوجها ليرتبط بامرأة أخرى أنجبت له ثلاثة أولاد.

لم تتزوج ماجدولنا مجددًا بل ارتبطت بعلاقة مع رجل أحبته بإخلاص دون زواج، وبهذا تفرغت للموسيقى.

- ليتني أعرف سبب تركه لي قبل عامين، لم يكن بيننا أي خلاف وكنت أحبه بصدق. وبعد أن هجرني بفترة قصيرة سافرت إلى الصين مع الفرقة وهناك بدأت أسعل بلا هوادة. لم أدخن في حياتي أبدًا. لكني كنت بائسة حزينة. وكانت النتيجة سرطان في الرئة.

وصلت أختها الطبيبة المقيمة في ألمانيا لتعرف النتيجة التي كما أظن لم تخبر أختها بها. جلست عند سريرها تطمئنها كما اعتاد

الأصحاء متجاهلة الحديث عن الورم الجديد. التفتت نحوي لتسألني عن أشياء تخصني ولتتحدث بشكل عام عن طريقة عيشها في ألمانيا، وإذا بماجدولنا تثور مستجمعة كل طاقاتها لتوبخ أختها:

- لماذا تتكلمين معها.. هل هي أختك؟. جئت تزورينني أنا وليست هي.. أنت أيضا تريدين موتي لأنك وافقتِ على فتح الشباك.

سكتنا.

كانت النافذة عدوها اللدود وبالنسبة لي هي المنفذ الوحيد نحو الحياة، نحو الوجود.. لقد حرمتني من التقاط صورة لطائر أحمر اللون حط على غصن الشجرة المتكئ على النافذة. يقال عادة إن الإنسان المريض يصبح أكثر أنانية من الأصحاء، لكن سلوك ماجدولنا يثبت أنها كانت غارقة في أنانيتها على الدوام وهذا سبب رفض إنجابها طفلٍ لزوجها: ولا عجب من ترك الأخير لها.. تخيلت تملكها له. هذه الأفكار جعلتني أن أتخذ قرارًا بعدم مخاطبتها، لكني في المساء وعندما رأيتها تتلقف الهواء تخليت عن سخطي وحقدي عليها فجلست عند سريرها أروي لها حكايات كالأطفال كي تهدأ وتنام.

إلى جانبها كنت أعد اللحظات وليس الساعات كي أعود إلى البيت بعد تناول السم. تُرى هل كانت ماجدولنا متفائلة بشفائها؟ كانت تحب نفسها إلى أبعد الحدود وعلى الرغم من خفوت قوتها إلا أنها لم تنس أن تعتني بنعومة جلدها وتتذمر من كونها لم تدهن سيقانها بالكريم ذاك المساء.

"نحن النساء لم نتخل عن عاداتنا الأنثوية حتى في أسوأ الظروف" قالتها ماجدولنا مبتسمة.

احتفظت جمجمتي بست شعرات لا غير وكنت أتركها تتدلى من تحت المنديل مموهة للآخرين عدم تخيل رأسي الحليق. ولم أنس كحل العين بعد أن بدأت الرموش بالتساقط.

في الجناح ذاته توجد غرفة أخرى وضع فيها البراد المشترك. طرقت الباب داخلة لأفاجأ بوجود رجل وامرأة.. طلبت الزوجة السماح لها بمرافقة زوجها الذي جلب معه الكمبيوتر باحثًا عن مواضيع تخص علاجه في الإنترنت. بدأنا الحديث وبالطبع عن نوعية مرضه.. لكن الرجل كان قد استسلم للمرض تمامًا:

- أنا انتهيت... انتهى كل شيء.. لم انتظر شيئًا من الحياة.

قاطعته زوجته لائمة:

- لا تقل ذلك! ها أنا ذا أجلس أمامك وكنت مصابة بسرطان الثدي منذ ثلاث سنوات.

- لا.. لا لم يعد يهمني ما يحصل لي.. لقد انتهيت - موجهًا كلامه لي - طبعًا سهل بالنسبة لحضرتك لأنك لستِ مصابة بنفس المرض كما أعتقد.

- حضرتك مخطئ.. أنا أيضا انتهيت للتو من جرعة الكيميائي وسأغادر غدًا.

ألقيت التحية متمنية له حظًا أوفر في تخفيف المرض.. لأنني لو تمنيت له الشفاء لسخر مني، لذلك تجنبت قول ذلك.
عدت إلى غرفتي وكانت ماجدولنا تجلس على حرف سريرها تأكل الموز لأنها تود أن تستعيد بعضًا من وزنها ولتحصل على شيء من الطاقة. نظرت إلي مبتسمة.
- يبدو أنكِ حصلتِ على أصدقاء أفضل مني في الغرفة المجاورة.
يا إلهي وين أروح؟ ماجدولنا أشبه بالشرطي والجار يوقظ في الإحساس بالمرض والموت، لذا قررت ألا أتفوه بكلمة سوى السلام. لملمت حاجياتي قبل النوم كي أهرب في الصباح.

* * *

بعد أسبوع عدت لفحص الدم وزرق الإبرة ولم يطاوعني قلبي أن أخرج دون أن أتفقد ماجدولنا التي جلست على سريرها تتلقف الهواء الراكد وحين لمحتني أشارت إلي بيدها أن أعود لأنها مصابة بالزكام. وفي الأسبوع الثاني وقفتُ عند بابها ثم تراجعتُ دون أن أسأل عنها.

مرت الأسابيع الثلاثة كسابقاتها.. وكانت ابنتي منهمكة في امتحانات القبول في الجامعة.. لقد فاجأتني باختيارها لكلية الآداب قسم اللغات الشرقية لتتخصص في اللغة العربية والعبرية والإعلام. كانت تخطط منذ صغرها كما قالت لتتخصص بالشرق الأوسط.. لكنها لم تخبرني بذلك قط.

في غرفة الأشعة المقطعية C T بينما كانت السيدة المختصة تجهز الوريد لمادة اليود وشوشت في أذني:

- السيدة التي فحصت العظام سألت عنكِ هل أخبرها بوصولك؟

- طبعًا.. طبعًا.

خرجتُ إلى غرفة الانتظار وإذا بها تسرع نحوي لتلقي التحية بابتسامة تشع بالبهجة:

- تصوري.. تصوري لم أكن أعرف أنك تتنبئين بالغيب.. لقد حصل بالفعل ما قلته لي.. لم أصدق عقلي بأني وجدت الرجل الذي بحثت عنه طوال حياتي؟

- عظيم.. رائع.. تهانينا.

كان علي أن أجاملها وأنا متعبة. سألني زوجي من تكون تلك السيدة.

- هذه المرأة بكت زوجها الذي مات قبل أقل من عام.. تتذكر حكيت لك عنها.. والآن وجدت فتى أحلامها!!

بدت علامات الاستهجان على وجهه وقال بالمجرية ما يشابه عندنا:

- ما شاء الله.. مسكين زوجها!

- ألم أقل لك إن الحياة تستمر والراحل هو الخاسر؟

عدت لأجدني في الجناح نفسه - في مكان الرجل الذي قرر أن ينتهي - مناصفة مع امرأة روسية مات زوجها المجري وتعيش

مع ولديها التاجرين. هذه السيدة تكرمت بالرد على سؤالي بعد أن عرفت أنني لست مجرية لأنها حسبما قالت قررت ألا تتكلم مع المجريين.. من يراها يرى الموت بعينه. لم ترد التحية لا لزوجي ولا لأي ممرضة. تقوقعت على نفسها مستسلمة لقدرها وكانت تعزو تطور مرضها إلى المجريين الذين لم يشخصوا المرض بسرعة.. "أتفق معها بالرأي". كنت أعتقد أن ماجدولنا ما زالت مقيمة في غرفتها المجاورة لنا لذا استفسرت من السيدة الروسية عنها:

- ماتت.. اختنقت.. وكان تأثير موتها علي سلبيًا.

مسكينة ماجدولنا "المجدلية" تُرى هل ماتت شقراء أم بشعر أسود أشيب.. وهل دهنت سيقانها بالكريم المرطب قبل موتها؟

أخرجتُ المجموعة القصصية لغسان كنفاني "أرض البرتقال الحزين" وبدأت أعيد قراءتها وغبت في حلم لم أتذكره لأني استيقظت فزعة على صوت ابن السيدة الروسية الذي جاء ليأخذ والدته إلى البيت صباحًا. غادرتْ دون سلام، لكن تردد صوتها الهزيل المرتعش بقي يرن في أذني:

- نحن لم نوافق على تطبيق تجربة البحث عليّ ولم أوقع على عقد.. يعتقدون بأننا فئران يمكنهم تطبيق تجاربهم وأبحاثهم علينا في أمريكا.

كانت تعني العلاج الذي وافقتُ عليه أنا.

كان يجب تغيير هواء الغرفة المشبع بالموت، وبالرغم من برودة الجو فتحتُ النافذة على مصراعيها وأسرعت راكضة لأندس تحت الغطاء ولم أعرف لماذا انتابني شعور غريب هو مزيج من الحرية والوجود.. الإحساس بالحياة.. ورحت أتنفس بعمق الهواء البارد المندى بالرذاذ وأزفر بشدة هواء الغرفة المحتضِر.

توصلت إلى أن أشد ما يتعبني بالرغم من أنني لم أشعر بالمرض أبدًا هو الحالات التي رأيتها في المستشفى. أضع رأسي على الوسادة وبين لحظة وأخرى تخطف أمام عيني صور الناس الذين عانوا وحصل لهم ما حصل، لكني حالما أهش وأبعد كل تلك الأفكار والصور القادرة على أن تشل أي فرد رآها.

عدت إلى البيت شاعرة بأنني غبت عنه دهرًا من الزمن. سأعد الأسابيع الثلاثة القادمة للبدء بالجرعة الرابعة التي قرر الأطباء إن لم يتغير الوضع بعدها وستظل البقعة كما هي، سنترك هذا النوع من العلاج وربما سيبدلونه بكيميائي آخر... لا أدري هل جاءهم القرار من أمريكا أم أنهم قرروا ذلك!

ماذا ألمّ بزوجي وابنتي. وجدتُ زوجي ينقل فيلم الفيديو لزواجنا من الشريط إلى اسطوانة D V D وابنتي تضع ألبوم الصور في حضنها لتتفرج على صور الزفاف وصورها منذ أسابيعها الأولى حتى كبرت. كنت قد علمتها مصطلح "عبادة الفرد" بالمجرية منذ

صغرها لأنها تعبد التفرج على صورها، طالبة مني دائمًا أن أعيد لها كيف ولدت وكبرت، حتى أنها تردد دائما بأنها ولدت يوم مات الخميني.. لأنني رويت لها عندما سمعت الخبر في غرفة الولادة، وُلدتْ هي بعد خمس دقائق، إلا أنها هذه المرة استفسرت بالرغم من أنني حكيت لها من قبل عن الشاهد في زواجنا:

- هذا عمو مريد.. مريد البرغوثي.

- هو عراقي؟

- لا.. فلسطيني. وإذا تتذكرين قرأت لك ما كتب عن زواجنا وعنك في كتابه "رأيت رام الله" كنتِ صغيرة ما تتذكرين لما زارنا وحتى ابنه تميم حملك على إيديه من كان عمرك ثلاثة أشهر.

- ها.. يعني هو من رام الله؟

- نعم ورجع يزورها بعد فراق طويل.

- مثلك من رجعتِ للعراق.

- صح.

في الصورة أربعة العروس والعريس وإلى جانبيهما الشاهدان، أخت العريس ومريد. مسكت رضوى بالصورة:

- شايفه؟ شايفه يا اعتقال مريد قاعد إزاي؟ شايل راسو بفخر وكأنو عايز يقول : أنا أنا أهل العروسة.

لم ترَ رضوى في الصورة غير مريد. ولمريد كل ما تفعله رضوى هو الكمال.

ذات يوم عبَّر لي بشكل غير مباشر عن اشتياقه لها عندما أخرج ما يشبه الكراسة القديمة ليحكي لي قصة القصيدة المكتوبة فيها عندما شجع رضوى على السفر إلى أمريكا للحصول على شهادة الدكتوراه. أوصلها إلى المطار وعاد إلى بيته الذي وجده قاحلاً بدونها فراح ينتحب بصوت سمعه الجيران..

"كيف ولك كيف عملت هيك.. رحت بإيدك هذي موصلها للمطار ومش مصدق إنها راح تروح من إيدك إلى أبعد مكان في الدنيا كيف؟؟"

وولدت القصيدة الطويلة التي قرأها لي. كان يمتدح رضوى بشكل رومانسي واصفًا إياها بأنها إنسانة جميلة من الداخل. مريد يُشعِر ويوقظ في المرأة إنسانيتها قبل كل شيء ويكره تسلط الذكور عليهن. وفي إحدى زياراتي لهم أخبرتني رضوى بنبرة غريبة وكأنها تخشى أن يسمعها مريد بأنها استطاعت أن ترتب الأوجه الثمانية للمكعب المجري الشهير روبيك كل حسب لونه، وإذا بمريد يفتخر بأنه أيضًا استطاع ذلك وليبرهن أنه الرجل الذي لا يمكن أن تدحر ذكاءه امرأة، لكن رضوى لم تسكت على ذلك فأجابته:

- لا يا مريد انت ما قدرتش تعملها، أنت فسخت المكعب وركبتو من جديد.

ضحكت ابنتي على هذه الحكاية.

كانت لمريد جمل يبالغ فيها للتعبير عن رغباته:

- تعرفي تطبخي بامية؟

- طبعًا.

- لو طبختيلي بامية في هذا اليوم الفضيل.. راح أضحي بالقضية الفلسطينية!!

كانت تربطني به صداقة حميمة وكان هو ورضوى شاهدين على أشياء كثيرة في حياتي، لذا ليس من العجب أن أختاره شاهدًا على زواجي حيث كان يعلق:

- أنا شاهد ما شافش حاجة.

أحنت ابنتي رأسها على كتفي. فتحتُ الكتاب لأقرأ لها ما كتبه مريد في كتابه "رأيت رام الله" وانطباعه عن زواجي الموحش الخالي من التقاليد.....

ذات يوم لم تكن خيوط الشمس قد صوبت شعاعها على نافذتي بعد.. استيقظت مرتعبة على صوت الهاتف، لم أتعرف على الصوت للوهلة الأولى كان أشبه بالنشيج:

- اعتقال.. يا اعتقال.. مات أبي...

لم يقل أكثر من ذلك وراح يبكي بحرقة. كان بأمَّس الحاجة لإنسان يشعر به يشاركه مأساته. لم يخطر ببالي شيء سوى أن أكون بجانبه.

فتح الباب.. في مثل هذه الظروف تبدو المؤاساة تافهة، فالتزمت الصمت لأن المهم هو وجودي الذي ربما سيخفف من غربته وتشرده ووحدته.

- مات أبي خيتي اعتقال ومش قادر حتى أحضر دفنه.

- عيني مريد اهدأ شوية.. يعني هو لو البكاء يفيد كان بكينا طول عمرنا.. وقبل أن أكمل جملتي رن جرس الهاتف، وجاء صوت رضوى من بعيد.

- .....

- مش وحدي عندي اعتقال.

ناولني السماعة.

- أهلا اعتقال خلي بالك من مريد حاولي تهدئيه.

- طبعًا.. طبعًا اطمئني.

لم ينم منذ سماع الخبر فطلبت منه أن يرتاح قليلاً وإن استطاع فلينم. سمع كلامي كطفل وديع فدخل غرفته وغاب في نوم عميق. جلست في الصالة أحرس حلمه. وهل حضرت أنا دفن أبي والأحباء؟ بكيتهم.

بعد ما يقارب الساعة استيقظ مريد مرعوبًا ربما من كابوس الموت، نهض قادمًا إلى الصالة ليحدق إلى وجهي ويسألني:

- شو وجهك تغير.. ما كان هيك من جيتي؟

لم أقل له إنني بكيت.. لكنه ربما خمن ذلك فسكت، ثم بدأ يولول ثانية... إن ما يحز في قلبه هو عدم المقدرة على فعل شيء. "يعيشون ويموتون وهم بعيدون عنا نحن المشردون".

كان النهار قد انتصف وكان علي أن أذهب فودعته تاركة إياه مع جليسه الدائم.. الغربة. في اليوم التالي ذهب إلى عمله في منظمة التحرير الفلسطينية وليس إلى مأتم أبيه.. فالمأتم في الغربة كالعرس "قليل و بلا تقاليد".

أخذت ابنتي الكتاب من يدي طالبة مني أن أنام لأرتاح.

* * *

كانت الجرعة الرابعة هديتي في الثامن من آذار يوم المرأة العالمي، وقبل أن أذهب إلى المستشفى كنت أدعو من كل قلبي ألا أكون في غرفة ماجدولنا لكني وخلال سحب الدم من وريدي سألتُ الممرضة عن مكاني مؤكدة قولي لها:

- أتمنى ألا أكون في غرفة ماجدولنا!

ضحكت الممرضة:

- في الحقيقة ستكونين في غرفتها وفي سريرها بالذات.

اقشعر جسدي لوقع الخبر:

- ليس بودي ذلك.. لأنها ماتت به.

- لو فكرتِ بهذا الشكل لما استطعتِ النوم في أي سرير لأن في جميع الأسرة ماتوا بلا استثناء.

فكرت بشكل منطقي وقبلت بمصيري. شغلتْ السرير الذي نمتُ فيه من قبل مع ماجدولنا امرأة عندما لمح زوجي رأسها الحليق أغمض عينيه مستديرًا. كان اسمها Éva إيفا "حواء"...

- غريبة! مرة مع المجدلية وأخرى مع حواء.. ما هذه المصادفة العجيبة؟ - فكرت -

كان الخبيث يجول في جسدها.. بدأ في الرئة وانقشع ليظهر في الدماغ ويزول بعد جلسات الإشعاع الذري.. لكنه الآن ينخر العظام. كانت إيفا في الخمسينات من عمرها لها ابنة متزوجة لكن الوالدة باتت تعاملها بقسوة عمدًا كي تبعدها عنها كما قالت لكني أفهمها بشكل آخر وهو أنها تحاول بسلوكها هذا أن تحد من تعلقها بها. كانت في البداية حذرة في التعامل معي خوفًا من وقوعها في مشاكل هي في غنى عنها.

- الحمد لله أن سلوكنا ومطالبنا متشابهة لأنني عانيت الكثير مع ماجدولنا. قالت.

- ماتت المسكينة. آخر مرة رأيتها فيها كانت مصابة بالزكام.

- نعم كنت معها وكانت تلقي اللوم علي لأنني السبب في مرضها أو بالأحرى اتهمت ابنتي بنقل الزكام لها خلال زيارتها لي.

سألتُ إيفا إن كانت قادرة على السير لأنني كعادتي وددت قضاء ما بعد الظهيرة في التمشي في حديقة المستشفى الجبلية. اتضح أنها تعرج ولا تقوى على السير بعد أن دخلت طبيبتها لتلصق على

كتفها لاصق المورفين. فضلت مغادرة الغرفة في الحال ولم أنس الكاميرا.

التقطت صورا لأنواع كبيرة من الفطر الذي يتطفل على جذوع الأشجار وللتماثيل البرونزية مع الغروب. كانت السماء كبركان تفجر للتو وكانت أمي تسمي هذه الظاهرة بشمس الموتى. يا إلهي لا أريد أن أصل إلى حالة إيفا!!

عدت إلى الغرفة محملة بطاقة لا توصف.. جلس رجل يتصف بالوسامة عند سرير إيفا يحمل أصيصًا صغيرًا جدًا فيه زهرة تولب يتيمة بمناسبة يوم المرأة. إنه زوجها. في هذه المناسبة طلبت من روبرت بعد زواجنا بسنتين ألا يجلب لي وردًا لأنني لا أحب المناسبات العامة الرسمية التي يؤديها الرجال كواجب مفروض عليهم وكيلا يشعروا بالخجل أمام الآخرين إن لم يقوموا به. بعد سنوات أضفت له عيد الحب "فالنتاين" الذي هو دخيل علينا.. ومن يحب بصدق لا يحتاج إلى فالنتاين كي يبرهن عنه بتقديم وردة.

عندما تركتُ إيفا وحدها كانت تحيك قبعة "قلنسوة" جديدة وكما يبدو أنهتها قبل وصول زوجها لتستقبله بها. كاد الدم يتفجر من وجنتيها بينما يدا زوجها تحتضن كفها. كيف سينقضي الليل مع النوم في سرير ماجدولنا الهامدة في قبرها؟

غادر الرجل.. تناولنا العشاء وتم الاستعداد إلى الخلود إلى النوم.. اعتادت شريكة غرفتي النوم في الثامنة ليلاً وأنا عادة أبدأ في الليل. أخرجت كتابي وبدأت القراءة.. وبين الحين والآخر يتهادى إلى مسامعي صوت فقاعات الأوكسجين التي أصدرتها القنينة المسعفة لماجدولنا. بدأت أكلم نفسي وألومها وأن ما قالته الممرضة هو عين الصواب وفي كل سرير مات أحد ما. التفت نحو سرير إيفا معتقدة أنها تخاطبني فلمحت هاتفها النقال ما زال يُشحن، لقد نسيته. نهضت لأسحبه وأخبرها بذلك: لكنها كانت تحاكي زوجها في حلمها. شعرت بي فاستيقظت شاكرة إياي على ذلك. اعتذرت منها وأخبرتها أنها كانت تنادي زوجها في منامها. وضعت التليفون عند رأسها وإذا به يرن:

- لماذا اتصلتِ بي يا عزيزتي؟

- أنا لم أتصل بكَ.

كنت أنا السبب لأنني كما يبدو قد ضغطت على رقم دون عمد أثناء سحبه، فرنّ عند زوجها.

- ماذا تفعل؟ سألتْه

- كنت نائمًا.

- وحدك؟

- طبعًا عزيزتي.

- تصور أخبرتني شريكتي في الغرفة أنني كنت أناديك في حلمي.

- .....

- وأنت أيضًا عزيزي.

ونحن أيضًا تمنينا أن نصبح على خير. ألقيت الكتاب جانبًا وقررت النوم مبكرًا لأن في انتظاري يومًا عصيبًا. غبت في نوم هادئ عميق لم يسبق له مثيل، سببه التحدي لكلمة يهابها ويخافها الجميع "الموت".

في الصباح وقبل أن يحكم علي بالسجن في سريري وقبل تناول الجرعة فتحت النافذة لأدخر من الأوكسجين بما استطعت من قوة. بينما كان يسري السم في عروقي رن جرس هاتفي:

- وينِك عيني وينِك؟

- بالمستشفى آخذ الجرعة الرابعة.

- يلله.. إن شاء الله تطيبين.. ولو آني لحد الآن ما مصدقة بالأطباء.. ما يخالف راح ينتهي وتصيرين مثل الورد!

قالتها أختي ابتسام من بغداد بحرقة ولهفة واضطراب. إنها الوحيدة التي كانت تعرف بمرضي من بين أخوتي وأخواتي. أخر مرة احتفلنا بعيد ميلادنا معًا في بغداد في آذار عام ٢٠٠٤

- أكيد.. أكيد. وانتو ديروا بالكم على نفسكم.. شكرًا.. شكرًا عزيزتي. بوساتي للجميع.. مع السلامة.

اندهشت إيفا لعدد إخوتي وأخواتي من أم وأب، وراحت تروي لي عن أختيها غير الشقيقتين ووالدتها وكم يحبونها.. ثم تطلعت إلى وجهها في المرآة لتقول:

- يقولون إنني أبدو بحال حسن وبشرتي صافية ورائقة.

- بالأمس كان وجهكِ متوردًا.. علقتُ.

- نعم لأن زوجي كان هنا.. يا إلهي سيسمحون لي بقضاء نهاية الأسبوع في البيت وسأنام في فراشنا. تصوري بالرغم من أنني الآن أنام إلى جانب المدفأة إلا أنني أشعر بالبرد.. وعندما أنام في فراشي جنب زوجي أحس بحرارة تتدفق من كل مساماتي. أحس وكأن جسده ينفث نارًا أتدفأ بها!

انتهت مراسيم الكيميائي. والغريب كنت أشعر بجوع رهيب شجع إيفا على أن تجرب محاولتها الأخيرة لبلع لقيمات صغيرة ولكن دون جدوى. تذكرت أن ثمة جزرات ولبن في البراد المشترك في الغرفة المجاورة.. طرقت الباب.. رجلان أحدهما نحيف جدًا والآخر بدين يضع أمامه صحنًا صغيرًا من الجوز واللوز.. لم يبدُ عليه مريضًا.. رحبا بي وبدأ النحيف الكلام لكنه بين الحين والآخر تتوقف الكلمات في حنجرته فيعتذر قائلاً:

- عفوًا أن الورم في دماغي أثر على عصب الكلام ثم ركض نحو الحمام ليتقيأ فرأيته يسير كإنسان آلي فقد بعض براغيه وهذا دليل على أن الخبيث في العظم أيضًا.

بضع دقائق وكان في سريره وبدأ البدين يروي:

- قبل ثلاث سنوات أزالوا الورم من الرئة.. ولكنه ظهر الآن في الدماغ والعظم.

قاطعه النحيف ليذكره باسم نوع سرطانه.. ولما تلفظه بدأت يداي ترتعشان ففتحت البراد لآخذ الجزر واللبن هاربة إلى غرفتي.. شعرت بأن قدمي لم تحملاني فاستعنت بالكرسي.. إنه السرطان الذي أحمله.. ثلاث سنوات لا بأس بها.. وبدأت أقشر الجزر وآكله مع كريم اللبن. فتحت حقيبتي اليدوية باحثة عن ورقة فيها عدد كبير من النكات أرسلها إلي الصديق الفنان ورسام الكاريكاتير رضا حسن رضا جمعها لي قبل الذهاب لتلقي الكيميائي.

"الأخت الغالية اعتقال!

عزيزتي.. لدي ثقة قوية بك وبالإرادة القوية التي تتمتعين بها وهذا شيء أكثر من الرائع.. أنا أتذكر جيدًا قلقك السابق.. تقبلي الكيميائي الذي لا مفر منه، ولكني استحلفك بكل عزيز أن لا تفقدي الأمل أو تلتوي عزيمتك فتضعف إرادتك الحديدية، لا تجعلي نفسك حبيسة الأفكار السوداء والقلق المدمر.. استمري بالإبداع الرائع واضحكي كما اعتدت.. اهتمي بنفسك وبعائلتك وتجنبي المشاكل الخارجية. أرجوك.. أرجوك كوني قوية كما عهدتك ولا تدعي اليأس يسمم أفكارك. كلنا أحباؤك وإخوانك ويشهد الله كم أنت عزيزة علينا.

وحتى لا تنقهرين أبعث لك هذه النكات تنوسي بها قبل ما تروحين للمستشفى يا اعتقال الوردة. تحياتي لك ولعائلتك.

أخوك رضا

بدأت بقراءتها وسالت الدموع من عيني من شدة الضحك وصرت أترجم ما يترجم منها إلى المجرية لتضحك معي تلك السيدة المسكينة.

"اضحكي يلعن أبو المرض! وبعدين يعني هو الموت بحاجة إلى مرض؟ والعراقيين الأصحاء من أطفال وشباب ونساء وكلهم كلهم ماتوا بالتعذيب ودفنوا في مقابر جماعية واليوم يموتون بالتفجيرات والاغتيالات والخطف وهم مفعمين بالقوة وحب الحياة.. ليش يا ربي ليش ما تسمع نداء الثكالى والأرامل والأطفال ليش؟"

لم تقو إيفا على تجهيز حقيبتها بمفردها فساعدتها وجهزت حقيبتي أيضا كي نغادر في صباح الغد. كتبت إيفا عنوانها ورقم هاتفها على قصاصة ورق تركتُها في كتابي حتى هذه الساعة. لم أتصل بها لأنني ما أردت سماع خبر مؤلم وبقيت صورتها كما هي. علمتني المستشفى ألا أسأل عن التفاصيل لأنها ستسكن الذاكرة ويتخيل الفرد نفسه في مكانهم ويبقى مرعوبًا أبدًا.

بعد عودتي من المستشفى بسبعة أيام كان يوم ميلادي. لم أسمه بعيد ميلادٍ كما اعتدنا لأنه من قال كان عيد يوم وُلدتُ؟ كانت التورتا (الكعكة) التي أعدتها ابنتي بيديها من ألذ وأجمل ما رأيت.. رششت من رذاذ العطر المفضل هدية زوجي متمنيين لي العمر الطويل.. بدت زجاجة العطر كبيرة في تلك اللحظة التي تمنيت بها استعمالها حتى آخر قطرة.. هكذا صار العمر يقاس بمدة عمر زجاجة عطر! غابت الكاميرا

* * *

"أيتها الصديقة العزيزة اعتقال!

أتمنى لك أيامًا سعيدة مع عائلتك في ظروفك الصعبة. لابد أن يبقى الأمل يغذي وجودنا لنستمر بالعمل الفكري والفني والذي سوف يكون العراقيون بحاجة إليه.. قرأت بسعادة عزيمتك وثقتك بالنفس فهي الأهم للحظات المعاشة.

نعم يجب أن تعطي اللحظات المعاشة الطاقة والنور الأكثر زهاءً وسيكون المستقبل أفضل حتمًا.. يجب أن تعيشي باتساع أيامك والساعات والدقائق.. تمنياتي القلبية بالشفاء

حسن المسعود"

* * *

حان موعد العودة إلى المستشفى التي ضجَّت بالمرضى ولم يوجد سرير فارغ سوى في غرفة بأربعة أسرة.. يعني ذلك أنني سأشهد هذه المرة أربع حالات مرضية سواء رضيت أم أبيت.

القرار الصعب سيتخذ بعد ظهور نتيجة فحص الأشعة المقطعية في اليوم الثاني.. أي أنني لم أعرف إن كنت سأتلقى الجرعة الخامسة أم لا. لم أجد في الغرفة سوى امرأة لم تبدُ في السبعين من عمرها رشيقة.. أنيقة. كانت كتلة من القلق والاضطراب لم تعرف نتيجة فحص الناظور بعد، وما هو نوع الورم أو البقعة في رئتها. بدأنا التحدث ورحت أطمئنها وأحدُّ من قلقها حتى وصلتُ إلى حكاية النكات وكانت تكركر ناسية ما حصل معها. ثم راحت تروي لي عن حفيديها بفخر واعتزاز بعدما عرفتُ تفاصيل كثيرة عن حياتها وأمراضها. ولما عرفتْ بمرضي ونوع العلاج لم تصدق أذنيها.

وصلتْ في الوقت نفسه شريكة غرفتنا معلمة في الثانية والخمسين من عمرها كان وجهها ينضح بكآبة العالم بأسره. أفرغت من حقيبتها ألتارًا من الحليب وكما يبدو رأت الاستغراب في عيوننا فقالت:

- أنا مسرورة لأنني أستطيع شرب الحليب لا غير.

لم أعلق على ذلك وتذكرت إيفا وفقدانها للشهية والغثيان. أي أن المرض في تطور.

ارتدت ملابس المستشفى وذهبت برفقة طبيبتها للفحص بغرز الإبرة في الكتف وصولاً إلى الرئة. عادت بصحبة طبيبتها التي زودتها بلاصق المورفين على كتفها فنامت لتستيقظ بعد فترة قصيرة وتروي قصة مرضها. وكالمعتاد يتشبث مرضى السرطان بكل ما يصفونه لهم من أعشاب طبية وأنواع علاج غريبة، لكن المهم هو الإيمان بها. بالرغم من أن المعلمة ماريانا تعرف ذلك لكنها استسلمت لمثل تلك الأشياء التي يسميها البعض بالشعوذة والخدع. عند ذاك اعتذرتُ مقدمًا على ما سوف أقوله لهن ردًا على كلام زوجي عندما علق على هذا النوع من العلاجات فأجبته:

- اسمع عزيزي! معذرة.. لو قيل للإنسان المصاب بمرض عضال كالسرطان مثلاً: كل خراك وستشفى.. سيأكله. طبعًا من السهل على غير المريض قول ذلك، ولكن صدقت أمي عندما كانت تقول: النار ما تحرق إلا رجل واطئها.

ابتسمت ماريانا هازة رأسها.. وأيدت الجدة. كانت ماريانا تلوب من الألم لأنه لم يعد في رئتيها اللتين امتلأتا بالماء إلا مساحة صغيرة جدًا. وكانت تتمنى أن تحصل على الكيميائي بعد شفطه. أما الجدة ألاً Ella فكانت تجلس عند سريري مستمتعة بحوارها معي مصغية كالطفل إلى ردودي على أسئلتها عن العرب والعراق وكنتُ لها شهرزاد التي سكتت عن الكلام المباح دون أن يقبل الصباح بعد أن رن جرس هاتف ماريانا النقال فعادت الجدة إلى

سريرها وعدت إلى كتابي. ساعتان متواصلتان وماريانا تُصغي إلى هاتفها عبر سماعة الأذن تضطجع تارة وتجلس تارة أخرى. لا أنكر كان لدي فضول كبير لمعرفة ما يدور لأنه ليس حوارًا بين اثنين وإنما من طرف واحد وماريانا لم تنطق بكلمة البتة.

- شكرًا تصبحون على خير.

هذا كل ما قالته لمن اتصل بها.

اعتدلت في جلستها ثم قالت:

- المتصل زوجي ولكن من كان يكلمني هو قس يحاول إن يخاطب روحي لأن باعتقاد زوجي أن هذا سيؤدي إلى شفائي - سحبت نفسًا بصعوبة ثم أكملت - تريدين الحقيقة؟ إن أول شيء حقيقي يقال هو ما سمعته منكِ اليوم وهو جوابك لزوجك. نعم مريض السرطان مستعد لقبول كل شيء من أجل البقاء.

بقي السرير الرابع شاغرًا لأن صاحبته أجرت التحليلات مفضلة النوم في البيت لتعود في اليوم التالي لأخذ أخر جرعة كيميائي. كل ما فعلتُه هو من أجل إشغال نفسي التي يساورها قلق على نتيجة الفحص.. حتى أصبح الصباح.

كانت الجدة القلقة أول المستيقظين. لكن زيارة البروفيسور والأطباء تبدأ بعد التاسعة بنصف ساعة وقبل ذلك كان علينا أن ننهي مهماتنا الصباحية ونستعد لاستقبالهم لمعرفة مصائرنا في العلاج.

دخلت سريري لأهدئ أعصابي بموسيقى كلاسيكية فعادت الجدة من الحمام لتسرح شعرها وإذا بالسيدة الرابعة تفتح الباب لتضع حقيبتها شاغلة السرير الرابع. ألقت التحية مقدمة نفسها لنا فوقفت الجدة مرحبة بها وقبل كل شيء وبحركة بهلوانية رفعت الباروكة من على رأسها اللامع لتقذف بها بعصبية في خزانتها.. ارتعبت الجدة واختل توازنها من المشهد فهوت على سريرها. استدرت نحو الجدار خافية وجهي تحت الغطاء كاتمة ضحكتي.

قبل الزيارة جاءت الطبيبة المشتركة في البحث الأمريكي لتخبرني بنتيجة الفحص وهو لا تغيير في النتيجة والمرض راكد. لم تفهم السيدات الثلاث الحكاية إلا بعد أن وصل وفد البروفيسور مع الأطباء الذين يشرحون له عن كل حالة مريض وجاء دور طبيبتي:

- دكتور إتكال تلقت أربع جرعات كيميائي مع إبرة المناعة وكانت النتيجة كما هي وسنستمر في العلاج.

ابتسم لي البروفيسور فرحًا بركود المرض وقبل أن يستدير طلبت الإذن بالكلام:

- بروفيسور كان من المتفق عليه هو إيقاف هذا النوع من العلاج الكيميائي لأنه لم يؤثر بالمرض وبقي كل شيء مثل ما هو.. إذن لماذا الاستمرار؟

- ليس المهم يؤثر أو لم يؤثر.. يجب علينا أن نكبح جماحه ولا نسمح له بالتطور.. ستأخذين الجرعة الخامسة الآن وانتظري السادسة!

كانت الجدة فخورة بي لأني لم أسكت. ولكن ما الفائدة؟ لقد شرحت للسيدات بأنهم لم ولن يستطيعوا إيقاف العلاج دون أمر من مركز الأبحاث في أمريكا الذي يجري التجربة. بدأت السيدة الرابعة بروايتها عن تطور مرضها الذي ظهر في البداية عبارة عن ورم بسيط في الكتف ولكنهم ما لبثوا إهماله حتى ظهر في الرئة. لذا قررت أن ترفع دعوة ضدهم.

"بعد خراب البصرة" قلت في نفسي.

انتهت جولة الأطباء كما يبدو وبدأت الممرضات بتأدية وتنفيذ ما مكتوب في جدول العمل. سلمت أمري للواحد القهار باسطة ذراعي لاستقبال جرعة السم. تدهورَ الوضع النفسي للجدة ألا لأن حالتها مشابهة لوضع السيدة الرابعة من ناحية وجود مكان الأورام.

- انظري! لا يمكن أن تتخيلي أنك مصابة بكل أنواع أمراض من في الغرفة دون أن تعرفي نتيجة زرع العينة لأنك بذلك ستتدهورين نفسيا ثم جسديًا. - حاولت تهدئتها -

- لا.. لا.. أنا بعد ما رأيت الذي حصل معكم قررت حتى لو كان الورم خبيثًا لن أسمح أو أوافق على تلقي العلاج الكيميائي. عشت

بما فيه الكفاية ورأيت أحفادي.. ماذا أريد من الدنيا أكثر من ذلك؟ إضافة إلى أنني أفضل أن أموت كما أنا.

كانت تقصد التغيير الخارجي الذي يخلفه الكيميائي.

التفتت نحوي ماريانا لتقول:

- لديك فرصة أكبر من فرصتي للبقاء على قيد الحياة.

- كيف؟

- لأنك تحصلين على إبرة تقوية جهاز المناعة.

- ههه.. إنها مجرد تجربة يا عزيزتي وربما مضارها أكثر من محاسنها.

- كم عمر ابنتك؟ - أضافت -

- في حزيران ستدخل الثامنة عشرة.

- أها.. إنها بحاجة لكِ... الحمد لله ابني في السابعة والعشرين من عمره ولم يعد محتاجًا لي.

لم أتوقع البتة أن ماريانا في وضعها ذلك تكنُّ الحسد لمريض آخر ربما مصيره مشابه لمصيرها. تداركتْ الموقف وأرادت تغيير الموضوع فسألتني عن معنى "إتكال" شرحت لها معنى الكلمة الحرفي ولكني تلفظت اسمي بالعربية وترجمت لها معناه. اندهشن.

لو كان القائم بالأعمال في إحدى السفارات العربية في بودابست يعرف بتغيير اسمي لفرح.

قدمت له نفسي متحدثة عن إمكانياتي في مجالات العمل، أصغى إلي وفجأة نهض ليرفع من على الرف مبخرة أشعلها وراح يبخر الغرفة ثم رافعًا ذراعيه بالتناوب كي يبخر تحت إبطيه مارًا بقربي ليسألني إن كنت أرغب بالتبخير ثم خارجًا من الغرفة نحو الخزانة ليبخر معطفه. كانت عيناي تتبعانه وهو يجول في المكان ويبخر كدرويش وأنا أردد بداخلي:

"الله حي.. الله حي"

وأخيرا وضع المبخرة على المنضدة ليقول:

- هنا بأوروبا ما يعرفون البخور - ثم مضيفًا - زين الرسول صلى الله عليه وسلم قال:

"لكل امرئ من اسمه نصيب".. أنا أقترح عليك أن تشتري خروف وتذبحينه وتغيرين اسمك!!

- زين أستاذ شكرًا.. مع السلامة.

خرجت.. اللهم صلي على محمد وآل محمد.. جروا صلوات.. هو إحنة ليش طاح حظنه؟ لأن هذي النماذج - كما كانت تلفظها بائعة الحليب في مدينتنا بابل - تمسك بدفة الأمور. شعرت بالغثيان وبدأ الصداع النصفي فغيرت اتجاهي نحو سوق الخضار الجميل لأزور العجوز صاحبة الورد والخضار التي لم تسمح لها ظروفها بأن تدخل كلية الزراعة لكنها تسمي النباتات باللاتينية وتقرأ أكثر مما قرأه قائد الدفة الذي بالنسبة له الإنسان اسم لا غير.

دنت الجدة ألالاّ من سريري لتهمس:

- شكرًا.. أنا ممتنة لك لأنك أعدتِ إليَّ الحياة ولولاك لمِتُ قهرًا.. صدقيني وثقي أنك ستبقين على قيد الحياة لأن هذا النوع من البشر يجب أن يعيش وسترين ما أقوله سيتحقق.

- أللاّ.. أنا لا أشعر بالمرض ولا أحسب نفسي عليلة وهذا السبب أنني سأبقى.. لذا أريد منك أن تفكري بنفس الطريقة لأنك لست مصابة بالسرطان وليس كل ورم هو خبيث.

- لا أدري.. لا أدري سيأتي زوجي وسيتحدث مع الطبيب.

كان زوجها بحارًا ودودًا ومرحًا.. يعشق الكمبيوتر لذا أهدته ابنته لاب توب كي يأخذه معه حيثما ذهب. وكانت زوجته تستاء من الجهاز الذي يضعه في حضنه فعلقتُ على كلامها:

- شايفة؟ الرجال عندما يكبرون يضعون الكمبيوتر في أحضانهم.

كركرتْ ألاّ..

- والله صحيح سأقول له ذلك عندما يأتي.

وأتى.. ألقى علينا التحية بوجه رحب وابتسامة عريضة ثم اصطحبته ليجلسا أو يتمشيا في الخارج. حان وقت العشاء وعلى الزوار مغادرة المستشفى فعادت ألاّ إلى الغرفة بمعنويات أعلى وكان رد فعل زوجها على رفضها للكيميائي وكلماته مطابقة تمامًا لكلماتي.

كنا ننتظر الصبح بفارغ الصبر.. تبادلت مع ألا أرقام هواتفنا وبالفعل بقينا على اتصال دائم وتحقق ما قلته لها فنتيجة الفحص سلبية ولا وجود لأي خبيث في جسمها.

* * *

لقد تضامنت الطبيعة معي من شدة حبي لها، فلم يكن شتاء ٢٠٠٧ قارص البرودة، ولم يهطل الثلج البتة مما سهل علي التمشي في حديقة المستشفى وفي الشوارع القريبة من دارنا برجلين بات الخدر ملازمًا لهما.

بدأ الشهر الثاني من ربيع ٢٠٠٧ وبه ستنتهي جرعة الكيميائي السادسة التي تزامن موعدها مع موعد جلسة قضائية لزوجي. وعندما عرفت ذلك لم أخبره بأن همًا كبيرًا انقشع عن قلبي، لأنه لن يكون في المستشفى.. لقد كانت حالته النفسية تتعبني أكثر من العلاج نفسه وكنت أود ألا يراني بذلك الوضع ويتألم:

- أرجوك لا تنظر إلي هكذا لأنني أشعر بنظراتك هذه وكأنك تودعني!

كان الأسى قد سيطر عليه تمامًا حتى أنني لم أكشف عن رأسي الحليق خوفًا على مشاعره وذات يوم غفوت ولم يكن المنديل على رأسي فدخل دون أن أسمعه.. جفلتُ وتخبطت يداي باحثة عن المنديل، لكنه انحنى ليقبل رأسي:

- هل تعتقدين أن سقوط شعرك غيَّر من جمالك؟ لا يهمني أن تكوني بشعر أو بدونه المهم أن تبقي معي!

عدت إلى من حيث بدأت في الغرفة ذاتها وفي نفس السرير الذي بدأ فيه العلاج. جلستْ على السرير الآخر سيدة تحيك بالصنارة مفرشًا صغيرًا هدية لابنتها. لقد فقد فمها أسنانه في وقت مبكر. لسوء حظها كان شكلها من النماذج البعيدة عن قلبي بالرغم من لطفها. شعرت عند أخر جرعة بأن صبري قد نفد خاصة وأن لا دليل على تأثير العلاج بشكل إيجابي. لذا التزمت الصمت ولأقرأ آخر كتاب "لحنا مينا".

كانت السيدة تأكل بنهم ما طبخه زوجها مع شاي من أعشاب الغابات المطرية الذي أعده في البيت حسب الوصفة المحددة. إن فقدانها لأسنانها جعلها تبدو أكبر سنًا من زوجها الوسيم ناهيك عن فقدانها لنصف رئتها وانتشار المرض في الغدد الليمفاوية. إن رواية المرضى عن مرضهم أشبه بقراءة الكتب المقررة على الطلاب في السنة الدراسية فلا مفر منها أبدًا. كان زوجها نقيضًا لروبرت زوجي.. بدخوله الغرفة وحالاً يبدأ المزاح معها ويروي لها النكات، والغريب كان ذلك سببًا لاستيائها من سلوكه فتصبح عصبية وحادة معه وهذا ما يجعله يعود أدراجه لتظل تبكي بعده. لم تنم طوال الليل وكانت تردد:

- ليخونني.. ليخونني.. لم يعد يهمني. سيان عندي...

كانت تتوسل إلي أن أرفع المنديل من على رأسي كي تعرف مسبقًا ماذا سيحل بها.. ولكن غروري منعني من ذلك. طلبت من الطبيبة أن نبدأ العلاج مبكرًا قبل أن يأتي زوجي، لكن أمور المستشفى حالت دون ذلك مما أدى إلى أن أفقد أعصابي وبدا التوتر واضحًا على سلوكي فسألتني شريكة غرفتي:

- لماذا أنت مستعجلة وأعصابك متوترة؟

- لأنني أريد أن أنتهي منه قبل أن يأتي زوجي، لأن هذا مؤلم جدًا له ويصبح متوترًا إلى درجة لا أحتملها.

- غريبة! لماذا لا تفكرين بنفسك أولاً؟ من المريض أنت أم هو؟ اهدئي واهتمي بنفسك وكوني أنانية بعض الشيء!

- أنت على حق.

يبدو أن توتري أثر على السائل الذي لم تعد قطراته تنزل بنفس الإيقاع، لذا طالت مدته من أربع ساعات إلى سبع ساعات أشبه بالموت البطئ وحمدت الله لأن روبرت مشغول ولن يأتي إلا في صباح الغد الذي قدم فيه زوج السيدة ليستفسر من طبيبها عن وضعها ومتى يبدأ العلاج. كنت قد لملمت أغراضي واستعديت للذهاب منتظرة التقرير الطبي وزوجي الذي سبقني إلى الطبيبة. ودَّعتُ السيدة متمنية لها الشفاء. وقبل أن أركب السيارة تمنيت من كل قلبي ألا أنام مجددًا في أي سرير لهذه المستشفى.

في الأسبوع التالي عدتُ من أجل تحليل الدم وإبرة المناعة مع إبرة ترفع من معدل الكريات البيض التي تتلاشى بعد العلاج. كان يعز علي أن أغادر قبل أن أسأل عن أخر سيدة شاركتني الغرفة فوجدت زوجها نائمًا في السرير الآخر لأنه تكفل بالسهر عليها بعدما عرف أنها لا تحتمل العلاج وكاد يغمى عليها. لم يستطع ذلك الرجل ترك رفيقة صباه ابنة الجار التي أحبها وهي في الخامسة عشرة من عمرها ولا يزالان معًا بالرغم من شكوكها بأنه يخونها.

* * *

بعد كل تلك المعاناة الجسدية والروحية كانت نتيجة العلاج صفرًا، لأن كل شيء بقي على حاله كما وجدوه في أول صورة أشعة للرئة قبل أكثر من سنة.

- لقد أرسلنا نتيجة تحليل الدم مع نتيجة الأشعة المقطعية C T إلى أمريكا ولم يبق لنا حل آخر سوى إبرة المناعة عسى أن تأثيرها يقوي من جهاز المناعة ويقضي على الورم- قالت الطبيبة المشاركة في البحث -.

- نعرف أنه راكد الآن، ولكن ماذا لو تطور المرض؟ - سألها زوجي -

- سنبدأ علاجًا كيميائيًا آخر.

كان وقع كلامها علي كالصاعقة تجتثُ قلبي من مكانه.. بقيت صامتة. تطلعت الطبيبة إلي مع طيف ابتسامة مؤاساة لتشير إلي بالدخول إلى الغرفة المجاورة لزرق إبرة المناعة.

كان نهار الخميس يمضي سريعًا وقبل الغروب يبدأ الألم بقرع نواقيسه والحمى أول نذير لسوء الحال فأهمد في الفراش كمن يغيب عن الوعي دون أكل أو شراب إلا إذا استطعت فتح عيني لأسعَفَ بقطرات من الماء.. لم أرَ يوم الجمعة إلا في الحلم حتى نهوضي يوم السبت.

بعد الأسبوع الخامس من انتهاء العلاج بدأنا نراقب نمو الشعر.. لا أثر له ولم نستطع رؤيته بالعين المجردة، وبينما كنت أجلس أمام الكمبيوتر أقرأ شيئًا مهمًا إلى درجة لم أع فيها وجود زوجي الذي مسك بالمكبرة منحنيًا فوق رأسي باحثًا عن منابع الشعر وإذا به يصيح:

- لقد نما.. لقد نما شعركِ.. ولكن للأسف أبيض اللون!

ركضت ابنتي من غرفتها لتأخذ المكبرة من يد أبيها وراحت تتحسس رأسي لتقول:

لا.. بابا لا هذا ليس الشعر هذا زغب يظهر أولا مثل أفراخ الطيور وبعدين الريش.. تعال وانظر إلى هذه النقاط السوداء النابعة من المسامات هذا شعر ماما الأسود.

ضحكتُ على تشبيهها لي بالكتاكيت.. لا حول ولا قوة إلا بالله.

اقترب موعد حفلة تخرجها النهائي من الثانوية وأمها تحولت إلى حيوان من ذوي الدم البارد، شعر الرأس يُحل بباروكة وماذا عن الحاجبين والرموش؟ ذهبت ابنتي لتعود برموش اصطناعية لأنها كانت تود أن ترى صورة أمها القديمة أمام أصدقائها. لم استطع لصقها فجاءت لتساعدني وعندما تطلعتُ في المرآة كدت أسقط أرضا من الضحك ورحت أرمش لها مشبهة نفسي بالفارة "مِنّي" عندما تغوي ميكي ماوس برموشها.

- ماما قولي بصراحة إنتِ تريدين تجين للحفلة لو ما تريدين يشوفوكِ بهذا الوضع؟

- طبعًا.. طبعًا بنتي أجي بس أتمنى ما يكون بنفس وقت الإبرة.

قبل كل شيء ذهبت إلى صديقتي بائعة الورد لتعد لي باقة من الروز الأصفر الذي يتدرج إلى البرتقالي مع زهور الأستروميليا الحمراء الغامقة المفضلة لتضفي دفئًا للباقة.

حان يوم الحفلة فاقترحتُ على ابنتي بأن تسبقنا إلى المدرسة. وقفت أمام المرآة أرسم لوحة عنوانها "وجهي" بدأت برسم الحاجبين شعرة شعرة وسعيت بماكياج العين أن تبدو برموش. وضعت الباروكة ورششت من رذاذ العطر. وقفت أمام زوجي منتظرة رأيه.. وهل بإمكانه قول شيء آخر غير:

- آه ممتاز.. صدقيني لن ينتبه أحد للتفاصيل.. ثم هناك مئات من النساء بدون حواجب أو رموش طويلة أما الباروكة فهي موضة.

- أعرف ولكنهن لسن أنا.

كانت المدرسة تضج بالبشر من مختلف الأعمار من الأطفال حتى الجدات وكنت أتخيل أن كل من يسقط نظره علي ينظر إلى الباروكة ووجهي المرسوم حتى دخلنا القاعة ولحسن الحظ جلست بجوار والدة صديقة ابنتي الوحيدة التي عرفت بمرضي فسألتها:

- هل يبدو واضحًا أنها باروكة؟

- إي باروكة؟

يا للغبطة لم تكتشف أنها باروكة.

- هذا ليس شعري.. وسؤالك أثبت أنه يبدو طبيعيًا.. شكرًا. شكرًا.

أخذتُ نفسًا عميقًا شاعرة بالثقة بنفسي ووقفت ذاهبة نحو ابنتي لأهديها باقة الورد وقبل أن أقترب منها رفعت إبهامها فقرأت كلمتها من بعيد:

- أنت حلوة.

تشجعت أكثر وأضحت خطواتي راكزة وأكثر ثقة فأخرجت ماكينة التصوير لالتقاط بعض الصور لها وللحفل. تعبتُ محاولة جهد الإمكان إبقاء عينيّ مفتوحتين لأن أجفاني العارية من الرموش

يلتصقان ببعضهما البعض فأفتح عينيَّ على سعتهما متخيلة أنني أشبه بالمعتوهين وأن كل البشر يتطلعون إلي.
كانت الفرحة بابنتي ترفرف في صدري لكنه كان مثقلاً بغصة من حالتي الصحية التي عرقلت وأبطلت برامج عديدة كان بالإمكان القيام بها بعد الحفلة، لكنها كانت سعيدة ومكتفية بوجودي المهدد بالزوال، لذا عدنا إلى البيت.

أسابيع قليلة وسأشهد عيد ميلادها.. سأراها بالغة سن الرشد ولن أخاف على حقوقها. رفضتْ أن تدعو أصدقاءها. أما أنا فكنت مصرة على عمل التورتا بيدي إلى درجة كنت أود أن أضع فيها قطعة من روحي. أطفأتْ الشموع.. فتحت هديتها ورفضت أن أصورها لأنني لن أظهر في الصورة معها. ما أرادت أن تخلد ذلك اليوم في صورة تحاول مسحها من ذاكرتها.

قدم الصيف بحرارته التي لم أعد أشعر بها بعد الإبرة لأن حرارة الحمى كل أسبوع تفوقه. واستمر الحال على هذا المنوال حتى الأسبوع الثالث من تموز يوم أسرعنا من الريف متوجهين مباشرة نحو المستشفى من أجل الإبرة. استقبلتنا الطبيبة المشرفة على البحث مضطربة تتلكأ في كلماتها:
- للأسف لم استطع الاتصال بكم لأنني قبل ربع ساعة فقط بُلغتُ بأن أوقف إبرة المناعة.

لقد سبقت زوجي بالصعود إلى المستشفى لأنه يدخن سيجارته أولاً ليتهيأ للمصائب. فرددت:

- كيف أوقفوا العلاج.. لماذا وهل نسميه بنقض العقد الذي وقعته والذي ينص على:

"يتوقف العلاج بناءً على طلب وموافقة المريض عليه" أليس كذلك؟

- لكن العقد ينص أيضًا على: يوقف العلاج في حالة "تعرض أغلب المرضى إلى أعراض جانبية خطرة"

في تلك اللحظة وصل زوجي فكررت الطبيبة الخبر ثانية له مضيفة:

- لقد أثَّر على دم المرضى وتكسرت صفائح الدم لذا أوقفوا التجربة.

- وهل أثَّر على دم زوجتي؟

- لا، عليها لم يؤثر.

- إذن لماذا تقطعونه عنها؟

- لسنا من قطعه وإنما الشركة المتعاقدة.

- يعني هذا أنكم تتركون المريض لمصيره.

- لا.. هذا ليس صحيحًا وزوجتكم حصلت على علاج مثل أي مريض في الغرب.

- إذن بم تفكرون الآن؟

- الآن المرض راكد.. سنقوم بالفحوص كل ثلاثة أشهر وأتمنى ألا تتسرب الخلايا الخبيثة إلى الدم أو ينتشر. لم يبق غير أن تتناول المغذيات لتقوية جهاز المناعة.

في ذلك اليوم أغلقنا بابًا كنا نعتقد أنه سيدخل الفرج إلينا. في الحقيقة فرحت وتألمت.. فرحت لأنني تخلصت من العلاج المضني وتألمت لأنني بقيت بلا حماية أسلك دربًا شاقا لم أعلم متى ينتهي وأين.

* * *

القنابل الذكية.. إكسير الحياة

بعد مغادرة المستشفى... كان بودي أن أكون طائرًا يُطلق للريح جناحيه ليحط على ضفاف الفرات عند بساتين النخيل حيث الإخوة والأحبة.. لكن عجلات العربة غيَّرت الاتجاه لتذهب بي إلى الريف الجبلي حيث الحقل الممتد حتى حديقة بيتنا لأركض فيه إن استطعت.. وإن تعبت من الركض سأدخل الحديقة وأشد على قبضة المعول لأقطع شرايين الأرض، صابة فيها جام غضبي.. الأرض هي من ستحتمل طعنة المحراث حينما أدسه بها، فنستكين معًا بعد أن أقبض على حفنة تراب أفتتها شاعرةً بطاقة هائلة تسري في عروق يدي.. الأرض - الأم Gea عند الإغريق - نخرج من رحمها ثم نعود في نهاية المطاف إليها.

قررت أن أنسى حيوانًا ضاريًا اسمه الخبيث ووعدت الأرض بالعودة إليها كل ربيع طالبة منها أن تمنحني القوة ولنتفق معًا على أن نتخلص منه فأرعاها.. أغرس في ثنايا تربتها البذور وأروي شرايينها وأنتظر ثلاثة شهور أداريها.. أراقبها وهي تتفتق فاسحة الطريق عن بادرة خضراء ستكبر وأنعم بثمرها.. وهي الشهور ذاتها التي سأعود بعدها لأخبرها هل سأعيش ثلاثة شهور جديدة إلى جانبها أم لا!!

عندما تقترب الشهور الثلاثة من نهايتها يستبد بنا الخوف، لكنا نكابر ولم نفصح عنه أمام بعضنا البعض. ويحين موعد الفحص الجديد ثم انتظار النتيجة المؤلم حتى النخاع. في تلك الأيام يتحول الهاتف إلى عدو لدود نكره لمسه لأن من خلاله سيأتينا الصوت الذي سينقل إلينا الحقيقة القاسية التي لا مفر منها.

"راكد... راكد.. راكد.. راكد"

مرَّ عام بأكمله وهو خامد.. صار خبر ركوده أجمل خبر نسمعه بالرغم من وجوده متقوقعًا في صدري..

- لم أعد أحتمل.. أعتقد أنني سأصاب بسكتة قلبية في الاتصال التليفوني القادم!

قالها زوجي بصوت مرتعش.

صار انتظار الخبر متعبًا وقاسيًا على بعض الأصدقاء أيضًا.. كان زوجي ينتظر النتيجة عبر هاتفه والصديق حميد العقابي ينتظر على هاتفي وعندما عرف الخبر السار تنهد قائلاً:

- تهانينا.. زاد عمرك يا اعتقال ثلاثة شهور جديدة!

لم تمض فترة قصيرة على أخر فحص فحزمنا أغراضنا وقررنا السفر الذي حُرمنا منه.. وكانت أسوأ سفرة فتغيير الجو والإرهاق أدى إلى وهن ثم مرض في القصبات الهوائية.. ارتعبنا ولم يخطر في بالنا سوى شيء واحد وهو تطور المرض. لكنني حالما شفيت منه بسرعة ولم آبه بالخبيث حتى انتظار موعد الفحص الروتيني

الجديد الذي سبقته فحوص أخرى في تشرين الثاني (نوفمبر) أثبتت عدم انتقاله إلى أعضاء الجسم الأخرى.

أضحى الانتظار أشد قسوة من المرض نفسه.. كنا نتهيأ لاستقبال العام الجديد، مللت من التحضير لأعياد الميلاد على الرغم من أننا لا نبالغ فيها بشراء الهدايا، ومع ذلك كانت منهكة ألقت بأوزارها علي في يوم رأس السنة الذي استقبلته بحمى، حتى قرعت أجراس العام الجديد فصحوت على صوت زوجي وهو يطبع قبلة على رأسي وأبصرت على وجه ابنتي حزنًا وهي تجلس إلى جانبي في السرير تمسح دمعتها.

الحادي والعشرون من كانون الثاني يوم الأربعاء المحدد لفحص الرئة.. كان ينبغي أن نعرف النتيجة يوم الجمعة لكن ذلك لم يحدث لأن الطبيبة اعتذرت لزوجي بسبب عدم معرفتها للنتيجة بعد. صار جو البيت النفسي لا يطاق كنا نشعر جميعًا بأن خطرًا ما يهددنا.. كنا نخفي توترنا عن بعضنا البعض لكني لستُ أدري لماذا كنت على يقين بأن المرض بدأ بالتطور بالرغم من عدم الشعور بأي شيء، حتى جاء صباح الاثنين. لم يقل زوجي هذه المرة إنه لن يتصل بل كان يسألني:

- ألا تتصلي بطبيبتك؟

- سأتصل بعد الظهر.

لم ترد على الهاتف... لم ترد.. لم ترد.. صارت الوساوس تشغل تفكيري إلى درجة لم أعد أعي فيها ما يدور حولي.

عادت ابنتي وقت العصر من الجامعة متلهفة لمعرفة النتيجة ورافضة تناول غدائها. توسلت إليها أن تأكل، أصرت على معرفة النتيجة أولاً.

- ماما ليش ما تتصلين؟

- اتصلت عشرات المرات وتليفون الطبيبة مغلق.. سأحاول الآن.

بدأ يرن.. ارفعيه.. ارفعيه.. ردي!!.. وردت.

- أهلا.. رأيت أنكم اتصلتم كثيرًا.. لكني كنت مشغولة جدًا طوال النهار.

- دكتورة.. هل ظهرت النتيجة؟

خفتَ صوتها..

- نعم.. للأسف ليست جيدة.

- هل تطور المرض وكيف وإلى أي درجة؟

- انتقل إلى الجهة اليمنى من الرئة وكبر قليلاً الورم الأصلي في الجهة اليسرى.

جاهدتُ أن أحافظ على توازني أمامهما خاصة بعد أن رأيت ابنتي تجلس على الأرض بعد معرفة الخبر..

- وما هي الخطوات القادمة؟

- بالطبع بعد معرفتي للنتيجة قمت بكل التدابير فأرسلت فورًا العينة المحتفظين بها في المختبر إلى فحص خاص بالجينات وعلى أساسه سنبدأ بعلاج جديد يؤخذ في شكل أقراص.. على أي حال سنتكلم بالموضوع شخصيًا في المستشفى.

ركنت التليفون وجلست لأخبرهما بما قالت الطبيبة..

بدأت ابنتي النحيب:

- ما معنى العلاج الجديد؟ إحنه متنا حتى نشوف شعرك يطول ويصير حلو مثل قبل وراح يبدون من جديد؟ ماما آني ما أريد أروح لسوريا حتى أدرس عربي ولا حتى أريد أدرس بالجامعة.. آني أريد أمي.

- لا بنتي ما يصير.. إنت لازم تستمرين بحياتك وتنفذين اللي خططتيه سواء كنت موجودة أم لا!

- لا ماما لا، سوريا باقية والجامعة باقية... لكن أنتِ أنتِ.

سكتت للحظات ثم أضافت باكية:

- ماما فهميني إنت من وين عندك هذي القوة.. آني ما شفت مثلك إنسان؟!

دخلت إلى غرفتها مضربة عن الطعام.

فتحت التليفزيون لأفاجأ بالإعلان عن استضافة الشاعر مريد البرغوثي في برنامج "خليك بالبيت".. أخبرت زوجي بذلك وكنت فرحة جدًا لأني سأراه بعد غياب طويل، وستراه هانّا التي سألت عنه.

- آه! لو يعرف مريد ماذا حل بنا!! ... قال زوجي.

فاجأه زاهي وهبي بقراءة رسالتي له فردَّ مندهشًا:

- يا إلهي! كيفها وكيف زوجها وبنتها هانّا أكيد صارت عروسة إن شاء الله تكون بخير.

كان مريد يبتسم بفخر عندما ظهرت صورة تميم الذي اعتبره أبوه بأنه سيصبح شاعر العرب. هززت رأسي مبتسمة حتى كادت الدمعة تطفر من عيني لرؤيته..

عندما تعرفت على رضوى كان تميم في الثالثة من عمره، ترك أباه وجاء ليقف أمامي:

- إنتِ اسمك إيه؟

- اعتقال.

قطب حاجبيه وزم شفتيه لأنه لم يستطع لفظه فقلت له:

- عندي اسم ثاني.. مها.

فكر قليلا ثم رد:

- لأ الاثنين ما يعجبونيش... إنتِ اسمك قمر!

شهقت رضوى منادية على مريد:

- تعال يا مريد اسمع ابنك إزاي بيغازل الستات!

- طالع لأبوه.. شاعر. رد مريد ضاحكًا.

* * *

كانت الطبيبة بانتظارنا.. أطلعتنا على الصور الجديدة ومطمئنة بأن الوضع ليس بتلك الخطورة.

- هناك خمسة شروط يجب أن تتوفر في المريض لكي يحصل على الكيميائي الجديد في شكل أقراص يتناولها في البيت.. المهم أن أربعة شروط متوفرة الآن ونحن بانتظار الخامس الذي أرجو أن يكون متوفرًا أيضًا حتى نبدأ العلاج بأسرع وقت ممكن.. له أعراض جانبية كثيرة سنتحدث عنها لاحقًا.

نظرت في عيني ثم أضافت بنبرة رقيقة:

- لن يسقط شعرك هذه المرة. عندما بدأنا معك العلاج الكيميائي قبل ثلاث سنوات لم يكن هذا الدواء متوفرًا بعد.

قبل عودتنا إلى البيت طلبت من زوجي أن نعرج على أحد المحلات التجارية للتسوق وبالرغم من أننا لا نزال في الشتاء إلا أنني ذهبت خصيصًا لشراء البذور التي سأنثرها في الربيع حتى أنني كنت حريصة على أن أختار النوعية الصالحة للاستعمال حتى عام ٢٠١٢.

عدنا إلى البيت نعد الساعات فمدة التجربة التي ستجرى على العينة ثلاثة أسابيع.

"العزيزة اعتقال

محبتي،،

قلبي المتلعثم معك

أنا واثق من أن روحك الطرية ستقهر المرض

محبتي

محبتي

محبتي

حميد

٢٨-١-٢٠٠٩

بعد أقل من أسبوعين رن جرس هاتفي وكالمعتاد كان صديقنا الدكتور مصطفى الذي تحاشيت الاتصال به هذه المرة قبل ظهور نتيجة فحص العينة.. بالرغم من كونه طبيبًا يعيش حالات مرضية مشابهة، إلا أنه حينما سمع الخبر تلعثم وفضل أن ينهي المكالمة وسيتصل بعد وقت قصير.

- اسمعي تقدري تيجي للمستشفى؟ لأني حكيت مع طبيبة عندنا مختصة بالكيميائي.. على الأقل تعرفك بهذا العلاج ويعني يمكن تفيدك نفسيًا لو حكيتي معها.. وإذا بدك تعالي مع جوزك أنا منتظركم الجمعة.

- شكرًا.. شكرًا عزيزي.. أكلم روبرت وأخبرك مع السلامة.

كان لدي فضول أكبر بمعرفة كيفية فائدتها نفسيًا من تعريفها بالدواء الذي يمكن معرفة كل شيء عنه في الإنترنت.

اصطحبنا مصطفى إلى أخصائية الكيميائي بعد أن همس في أذنها بضع كلمات ثم ودعنا عائدًا إلى قسمه.

ألقينا التحية.

- أهلا بكم من المريض؟

- أنا.

بدأت الحديث معنا عن أشياء عامة عن المرض مرورًا بالعمل الذي أقوم به وطريقة العيش وإذا بها تصرح بما يلي:

- الحقيقة حضرتك بوضع جيد ولا يبدو عليك المرض لا من الخارج ولا من الداخل.. أهنئك على ذلك لأنك تتحدثين عن المرض بشكل طبيعي في الوقت أن الكثير من الناس والمرضى لا يجرؤون على لفظ اسمه. عفوًا.. ما هو المطلوب مني الآن؟

تطلعت بوجه زوجي فبادر بالسؤال عن الدواء الجديد وماذا يعني الشرط الخامس.

- إذا لم يؤثر على الخبيث في العينة بشكل إيجابي يعني أنها لن تتناوله...

- وما هو البديل في مثل هذه الحالة؟ سألتها.

- البديل العلاج الكيميائي.

- لا... لن أقبل به هذه المرة.. قلتها بانفعال.

- سيدتي! هذا غير صحيح لأن الكيميائي سيطيل عمرك وربما سيكتشفون دواءً جديدًا خلال ذلك. هذا ما أستطيع قوله.. أرجو المعذرة لدي عمل وبانتظاري أحد المرضى.. أتمنى الموفقية والشفاء.

- شكرًا جزيلاً.. مع السلامة.

خرجنا نادمين على لقائنا بها.. لأنها ألقت الضوء على نقطة لم نفكر بها.. شعرت بإحباط لم آلفه من قبل.. كان مصطفى يعتقد بأنها ستقوي من عزيمتي وليس العكس.

- ها شو قالت.. عرفت شي؟

- قالت ما تقوله أنت.. أو بالأحرى ما نقوله نحن.. وقويت معنوياتها بدل ما تقوي معنوياتي.. في الحقيقة أنا مليت وإذا لم يتوفر الشرط الخامس لن آخذ الكيميائي.

- لحظة.. لحظة طولي بالك شو تتخذين قرار قبل ما تعرفي النتيجة.. طولي بالك يا ستي!!

ودعناه والحسرة تعتصر قلبي. حاول روبرت هذه المرة أن يتماسك أعصابه فخاطبني بهدوء وهو يسوق السيارة:

- لا تفقدي الأمل كل ما علينا أن ندعو من أجل أن يؤثر الدواء على..

وقبل أن يكمل جملته رن جرس هاتفي.

- هالو.. مرحبًا.. تفضلوا يوم الثلاثاء لأخذ الدواء.. لقد نجح كل شيء!!

- لا أصدق أذني.. شكرًا.. شكرًا جزيلاً..

حبست دمعة الفرح التي نسيتها منذ دهر.

تعلمت من خلال اتصالاتي الهاتفية بالطبيبة المختصة كيف أميز بين نبرات صوتها حينما تنقل لنا خبرًا سيئًا أو مفرحًا.. قالتها وكأنها تغرد بالكلمات التي كانت ذبذباتها مفعمة بالفرح. لم أقو على الانتظار حتى وصولنا البيت فاتصلت بابنتي لأزف لها الخبر.

- شكرًا ماما... تهانينا.. راح أكمل الطبخ ونقدر ناكل... تعالوا بسرعة.

* * *

في البدء كان يعز علي البحث في الإنترنت عن الدواء قبل معرفة النتيجة، لأن ما الفائدة من التعرف على المخلّص الجديد، ربما لن أحظى بإنقاذه من الرحيل الأبدي فيُكسر قلبي دونه. لكني الآن أبحث عنه باللغات التي أعرفها قبل أن أراه وأتحسسه.

استقبلتنا الطبيبة والبشر يطفح من وجهها.. عرفتنا به وبأعراضه الجانبية التي تكاد تكون مرعبة للسامع.. وقعت على عقد بتحمل المسؤولية ثم توجهنا إلى صيدلية المستشفى لاستلامه.. تسعون حبة لثلاثة شهور. لقد استنزف أعصابي استلامه وقراءة الأعراض الجانبية إلى درجة لم أستطع فيها تناوله في ذلك اليوم

مؤجلة البدء بالعلاج إلى يوم الحادي عشر من شباط الذي يتزامن مع يوم ميلاد أختي الأكبر مني مباشرة. أقراص بيضاء ناعمة الملمس إنها "الكيميائي الأنيق" سأتناوله بإرادتي وفي بيتي وسريري نابذة لكل أسرة المستشفى البيضاء التي تنضح بموت المصابين بالخبيث.

فتحت العلبة بتوجس بعد أن جهزت نوعين من الأقراص المخففة إلى الأعراض الجانبية في حالة ظهورها. وضعتها في فمي، كان ازدرادها أشبه بالانتحار.. انتحار يؤدي إلى النجاة. جاءت ابنتي في اللحظة ذاتها طالبة مني مساعدتها على دراسة النحو متجاهلة العقار العجيب.. إكسير الحياة، منشغلة بأدوات الربط.

مرت الأيام الأربعة الأولى بسلام سوى بعض اللسعات في اليدين والقدمين.. ولكن أين ولّت الحشرجة التي رافقتني لسنين طوال أثناء النوم على جنبي الأيسر الذي استوطن فيه الخبيث؟

بالرغم من تعدد قراءتي لطريقة الاستعمال وللأعراض الجانبية للعقار الطبي الجديد في الورقة المرفقة معه، إلا أنني رحت أفتش عنه في الإنترنت حتى توصلت إلى تصريحات بعض الأطباء الذين قاموا بالتجربة حيث قال أحدهم: "إن ظهور الطفح هو علامة النجاح والدليل على تأثيره في القضاء على الخلايا الخبيثة".

في الليلة الخامسة شعرت بنار تسري تحت جلدة الرأس فقلت لأطفئها بالماء.. فتحت عيني لأرى الجزء الأعلى من الجذع قد اصطبغ تمامًا بالأحمر القرمزي وكأن كورة من الزنابير قد غرست فيه دبابيسها.. وفي الصباح غمر الوجه فتناولت التلفون لأخبر طبيبتي حسب ما اتفقنا عليه..

- لا بأس.. هذا مجرد طفح وهو في المرحلة الأولى.. أنا الآن في إجازة.. سيتطور وبعدها سنلتقي. - قالت الطبيبة -

لم أكن أعلم إلى ما سيتطور إليه الطفح.. وبعد عشرة أيام أضحى وجهي أرضًا تشكو البوار، كنت أخشى الابتسام أو تحريك أي عضلة منه خوفًا من أن يتكسر الجلد.. تورم الأنف وانتفخت الجفون وبدأ الطفح يتحول إلى بثور مؤلمة تملأ الرأس والعنق من الخلف انحدارًا إلى الظهر ومنتصف الصدر. لقد تحول رأسي إلى بيت نمل يجول فيه ليل نهار دون هوادة.. لا أستطيع حكه أو حتى ملامسته.. كنت أقف أمام المرآة أنظر إلى بشرتي التي تحولت هذه المرة إلى جلد تمساح لكني لم أقو حتى على البكاء لأنه موجع أيضًا.. التفتُ صباح الأحد نحو ابنتي:

- آني آسفة لأني أسبب لكم الآلام بشكلي هذا!!

- لا ماما لا تنقهرين... ما يخالف هذا أحسن من الصلع - ثم اقتربت مني لترى وجهي في نور الصباح الطبيعي.. نظرتْ في عيني ثم ارتدّت إلى الوراء لتقول: فظيع.. مرعب.

كل شيء تحول إلى هم وألم كلمسة العزيز وبوسة البنت عندما تغادر إلى الجامعة حيث لم تجد مكانًا سالمًا في وجهي ورأسي. الاستحمام أكبر الهموم.. لم يعد الماء الفاتر لذيذًا منعشًا بل تحول إلى دبابيس تُغرس في كل بثرة ومسامة جلد..

لم أقبل مساعدتهما بدهن كتفي بالكريم المرطب لأنني ما أردت أن يرسخ ذلك الملمس في ذهنيهما سواء بقيت أم رحلت. تذكرت مقطعًا لأغنية عراقية تقول:

"ما نام ليل الشته ومگدر على فرگاه"

ما أطول ليل الشتاء، بت أعد دقائقه لأنه لا يمكن أن يظل المرء جالسًا ليل نهار.. كنت كالدرويش الهندي الذي ينام على المسامير.. هكذا كنت أتحمل المسامير إن نمت على ظهري وإن استدرت على الجنب تكسر جلد وجهي وسال الدم من البثور. ومع ذلك كانت الغبطة تطغي على الألم لأن الفكرة التي سيطرت على مجال تفكيري هي "أن العقار يأكل الخبيث.. يحطمه.. يسحقه.. وهذا هو رد الفعل فلأقبل به وأتحمل.. أتحمل.. ولكن هل تستحق الحياة كل هذا العذاب؟؟ إنها غريزة العيش والتشبث بها مهما كان شكلها"

"ألا أيها الليل الطويل ألا أنجل بصبح وما الأصباح منك بأمثل"

كنت أردد بيت الشعر هذا كل صباح.

أصبحت حبيسة البيت، لم أستطع القراءة ولا الكتابة بهذا الرأس. تركت التقنيات الحديثة ورحت استمتع بغسل الصحون والقيام بأعمال المنزل من أجل الحركة خاصة بعد ما منعت من القيام بجهد عضلي مرهق إلى جانب الكيميائي الأنيق الذي حرمني من هذه المتعة بعد أن تفطر الجلد المحيط بالأظافر وانسلخت طبقة من جلد راحة الكفين وباطن القدمين..

لقد استاء زوجي من عدم اتصالي بطبيبتي وشرح الوضع لها لأنني وبالرغم من سلوكي الطبيعي أمامهم إلا أنه كان يشعر بآلامي، لكني كنت مصرة على الانتظار حتى يتفاقم الوضع ومن ثم ستقرر الطبيبة محددة موعدًا للّقاء الذي فرحت به لأنه سيكون في الليل كيلا يرى وجهي البشر في وضح النهار.

في صباح ذلك اليوم كنت وحيدة... قلت لأعتني بنفسي بشكل آخر فوضعت كميات كبيرة من المرطب على وجهي ساعية إلى إزالة طبقات الجلد اليابسة كي أبدو بمظهر أقل بشاعة. وبينما كنت أبحث في خزانة الأسرار وقعت يدي على جوزدان "محفظة نقود" منسوجة من الخرز الناعم.. رحت أتحسسها بيد وبالأخرى جلدي المليء بالطفح والبثور فلم أجد فرقا بين ملمسهما..

عندما كنت أقدم برنامجًا عن السينما في تليفزيون بغداد جاءني أحد موظفي قسم الديكور طالبًا مني بكل لطف أن ألبي طلب

السجناء الذين فرحوا به عند زيارته لقريبه بعد أن عرفوا أنه يعمل معي في نفس القسم قائلاً:

- البارحة كنت في السجن أزور قريبي وعرفت أن السجناء يحبونك وترجوني أن أطلب منك نيابة عنهم أن تقدمي لهم فيلم لشارلي شابلن إذا ممكن أخت اعتقال.

- طبعًا.. طبعًا.. ثم ضاحكة.. اعتقال لازم تنفذ طلب المعتَقلين.

لقد خدمتني الصدفة وهو أننا في ذلك الأسبوع قدمنا فيلم الأزمنة الحديثة لشارلي شابلن وكنت سعيدة بجلب السعادة إلى قلوبهم.

بعد شهر أي بعد الزيارة الثانية لقريبه جاء ليسلمني هدية أعتبرُها إحدى أجمل الهدايا التي استلمتها في حياتي من أناس لم أرهم في حياتي أبدًا وهي محفظة نقود جميلة ذات خلفية بيضاء تتوسط أحد وجهيها جوريتان حمراوان وعلى الوجه الآخر كُتب اسمي الكامل بالأزرق الفاتح والغامق.. تزين الحواف أشكال هندسية بالخرز ذات اللون البرتقالي.. الأزرق.. الأحمر.. الأسود والأخضر. فتشت فيه فوجدت دينارًا عراقيًا قديمًا محترمًا.

إن انشغالي بهذه الذكرى ألهاني وأنساني بعض الشيء الحكة والحرقة.. هززت رأسي متسائلة:

- هل يعلمون أن هديتهم رافقتني إلى الغربة لتشهد عذاباتي ويصبح ملمس جلدي الآن كملمسها؟ وهل صانعها ما زال على قيد الحياة؟

هذه المرة سلِم شعري من السقوط فكنت أشعر بلذة خاصة وأنا أسرحه مرارًا وتكرارًا ربما للتعويض عن النقص وتحاشي المنظر العجيب للجلد، إضافة إلى أن فرشاة الشعر تعوض عن أظافري التي أخشى أن تخدش الطفح في رأسي.. في العلاج الكيميائي الأول كنت أتمتع ببشرة ناعمة ملساء ورأس حليق فأتحسر عليه وهذه المرة أتحسر على نعومة الجلد فرحة بشعري الأسود الذي تحول إلى سياط إن لامست خصلاته وجهي ورقبتي، لذا فضلت ربطه بشريط ابنتي المطاط التي فرحتْ لرؤيته معترفة لي بالسر يوم كانت تتألم عندما سقط شعري شاعرة بتأنيب الضمير لأنها كانت ترفض وتستاء عندما تختفي شرائطها التي كنت أشد بها شعري، إذ كانت تردد في نفسها:

- يا ريت تاخذ كل الأشرطة بس يطول شعرها.

لكم تبدو مثل تلك الأشياء الصغيرة طفولية وتافهة، لكنها في مثل هذه الحالات كبيرة ومؤثرة.

* * *

في المساء لم أرَ طبيبتي من قبل بمثل تلك السعادة وهي تتفحص الطفح مصغية إلى كل التفاصيل ومؤكدة على أن الطفح هو دليل نجاح العلاج وبالطبع سنتأكد من ذلك بعد أسبوعين بالفحوص الشهرية للدم وأشعة X للرئة.

لم ينفع المرهم الحاوي على المضادات الحيوية في التخفيف من أعراض الطفح بل صار الجلد يستعر كجذوة لا يمكن إخمادها. علي أن أصبر.. كما صبر أيوب من قبلنا.. أسبوعان ونعرف النتيجة الأولى لإكسير الحياة الجديد. وسيطرق الربيع أبوابنا ومهما كانت النتيجة قررت الذهاب إلى الريف بعيدًا عن عيون الناس والتكنولوجيا الحديثة وبالذات الإنترنت الذي أرفض دخوله إلى هناك لتبقى الطبيعة سيدة المكان.

هناك تواريخ لم ينسها العراقيون مثل ١١ آذار عيد التآخي بين عرب وكورد العراق الذي تحتفل به عائلة إحدى أخواتي ليس حبًا بالتآخي ولكنه يوم ميلاد أمهم. في هذا اليوم اتصلت بي صديقتي مارغريت التي ما تزال مصرة على زيارة العراق وربما بعد خمس سنوات في الستين من عمرها علها تعثر على "علي" الذي عشقته في السادسة والعشرين من عمرها.. تمنيت لها طول العمر ولعل عيد ميلادها الذي سيصادف غدًا في نفس موعد إجراء الفحص الأول في ١٢ آذار سيكون فألاً حسنًا لي.

- اسمعي! هذا الدواء وُجِدَ من أجلك ولا بد من أنه سيقضي على الخبيث.. أرى الآن أمامي صورة رئتك سيقضي أولاً على الأورام الصغيرة وسترين أن البقعة العنيدة قد صغرت أيضًا.. السرطان ليس مرضًا مميتًا لكن الخوف منه يدهور حالة المصاب به فيستفحل المرض فاتكًا به. وهذا ما لا ينطبق عليكِ. أما أعراضه

الجانبية الإيجابية فستتحملينها لأنك تحملت الكثير من قبل.. ستتذكرينني عندما تصبحين عجوزًا شمطاء وستموتين بشيء آخر غير السرطان. أهم شيء هو الصمود ثم الصمود.

لن أستسلم.. ولو تخاذلت أمام الخبيث من قبل لغدوت في عالم النسيان ولم أحظ بالعلاج بإكسير الحياة الجديد. سأدخل المستشفى وأنا واثقة من أنه في طريقه إلى الاندحار.. بهذه الأفكار دخلنا المستشفى لإجراء الفحص.

عرفت فورًا نتيجة الإيكو "كل شيء على ما يرام في أحشاء البطن ولم ينتقل لها" تنفست بعمق متجهة نحو فحص الرئة ومن ثم تحليل الدم. انتهت الفحوص قبل العاشرة صباحًا وفي انتظارنا العذاب الحقيقي وهو معرفة النتيجة.. ولكن كيف والطبيبة في اجتماع مطول مع البروفيسور مدير المستشفى؟ أكلتُ وشربتُ وبدأنا نعد الساعات.. بعد ساعة طلبت من زوجي أن نخرج إلى حديقة المستشفى للتمشي ولننفس عن التوتر الذي كنت أخشى أن يسبب مكروهًا له. رفض ذلك مُصرًا على الانتظار في الممر لعل الطبيبة تأتي ولن ترانا. اعتذرت منه وخرجت أسير بسرعة عادَّة خطواتي التي تعدت الألفين.. دخلت لأجده يائسًا من الوضع فرجوته أن يخرج إلى الحديقة وسأناوب بدله. كانت الساعة قد جاوزت منتصف الظهيرة ولا خبر لطبيبتي. أصبحت أجساد

المنتظرين مثلنا كالقنابل الموقوتة من شدة التوتر. كل ينتظر النتيجة التي سيُحدد بموجبها مصيره المحتوم.

وأخيرًا وصل ملاك الرحمة.. في تلك اللحظة ينتاب الجميع شعور بالفرح لوصولها والأمل بنتيجة حسنة والخوف من تردي الوضع. جاءنا الدور بعد ثلاث ساعات ونصف من الانتظار نرقب فيها تعابير وجوه من عرفوا بنتيجتهم حين خروجهم من غرفة الطبيبة. لم أرَ الطبيبة بهذا الارتباك من قبل إلى درجة راحت تخلط بين صور الأشعة في الكمبيوتر.. وأخيرًا.. قسمت الشاشة إلى نصفين لتقارن بين الصورتين ما قبل العلاج وبعده بشهر..

- لنر إذن ماذا حصل!.. قالتها بصوت مضطرب خافت.

كنت أجلس بجانبها وروبرت خلفي شاحبًا اختفت أخر قطرة دم في وجهه.

- انظروا! لقد اختفت الأورام الصغيرة في الجهة اليمنى.. وصغرت البقعة في الجهة اليسرى واستعادت الرئة اليسرى شكلها الطبيعي من الأسفل لأن الخبيث سحبها إلى الأعلى.. وأخيرًا.. أخيرًا تكسر الجليد.. ماذا نريد أكثر من هذا؟

لم أقو على الكلام لأن غصة البكاء منعت ذلك فراحت الطبيبة تمسد على يدي.

- هذا ما قالته صديقتي أمس. - قلت -

صعد الدم إلى وجه روبرت فتنهد من الأعماق:

- الحمد لله وأخيرًا.. نتمنى أن يستمر ذلك.

حددت الطبيبة موعد الفحص القادم بعد عيد الفصح في الربيع وستكون البراعم قد تفتحت بعد أن تحملت الأشجار العارية البرد وشربت مياه الثلج الذي وّلى مع الشتاء وستكون الحديقة في انتظاري لأنها تعلم بأنني لا أكترث بتعاليم الأطباء وسأغمرها برعايتي ضمن حدود طاقتي.. ستنهض من سباتها مهللة بعودتي لها.

كانت ذبذبات صوت ابنتي في الهاتف قلقة مرتعشة:

- ها... ماما.. خبريني بالعجل شنو النتيجة وبالعربي لأن ما أريد الطلاب يسمعون.

- تصوري هانّا رويحتي.. الدوا الجديد أثر عالمرض وبدا يقضي عليه!!

- ياي ماما آني كلش فرحانة لأني كنت طول الوقت خايفة وبعد شوية يبدي الامتحان..

- لا تخافين حبيبتي وأكلي قبل ما تدخلين الامتحان.. وأكيد راح يصير خمسة.

لم أصدق ما رأته عيني.. هل من المعقول أن يحدث ذلك بعدما قرأت عن الدواء وبأنه لن يشفي من المرض بل يطيل حياة المريض؟.. لقد خُذلت في خضم الوجع والمعاناة. لكني الآن صرت على يقين بأنه سيقضي عليه وفي انتظاري شهران لإنهاء الوجبة

الأولى من الأقراص العجيبة المسماة بـــ "تارسيفا". أسرعت إلى البيت كي أكتب بسرعة إلى الأحبة من أقارب وأصدقاء حتى كانت بي رغبة ملحة تدفعني إلى أن أخرج إلى الشارع لأزور صديقتي بائعة الورد غير آبهة بمظهر جلدي لكني ترددت مكتفية بمكالمتها بالهاتف.

في العصر حان تناول الكيميائي الأنيق (إكسير الحياة).. فتحت العلبة بكل ود لألتقط حبة منه متحسسة ملمسه الناعم الذي يخفي في داخله سمًا قاتلاً للخبيث دون سواه. إنه بالفعل القنابل الذكية التي تصيب الهدف وليست القنابل التي رميت على أرض العراق وسميت بنفس الاسم، تلك القنابل تشبه العلاج الكيميائي الاعتيادي الذي لا يفرق بين خبيث أو حميد. لذا صرت أحب قنابلي القاتلة والمنقذة في نفس الوقت.. تآخيت معها وصرت أخاطبها قبل تناولها بأن تبذل جهدها كي تسحقه. في تلك اللحظات كنت أؤمن بعظمة الإنسان ككائن باستطاعته استغلال طاقاته من أجل الخير وفي الوقت ذاته قادرًا على أن يكون دنيئًا وقاتلاً. لكن الوساوس ستظل بين الحين والآخر تراود نفوسنا التي تتأرجح بين الشك واليقين لنتساءل:

"هل سيستمر الدواء بتأدية واجبه على هذا المنوال؟"

كنت أطمئن نفسي بأنه سيقضي عليه أبدًا لأن في انتظاري مهمات يجب علي إنجازها في هذه الدنيا. لم أكن أعلم أن للخبر المفرح

ردود فعل جسدية ونفسية منهكة بقدر ما ينهك المرء الخبر السيء. لمحت زوجي وابنتي يوشوشان بعضهما البعض، في الحقيقية كنت منشغلة بأفكاري ولم أدع الفضول يسلبني منها حتى غبت في إغفاءة لذيذة بعد نهار صارم قاس. فتحت عيني لأجد ابنتي تجلس على حرف السرير.

- ماما! ما يخالف أحضر التورتا لعيد ميلادك نهاية الأسبوع؟ لأن بيوم عيد ميلادك عندي امتحان.

- لا عيني مو مشكلة حتى لو ما تحضريها وبعدين مو مهم عيد ميلادي.

- بالعكس بعد هذا الخبر... وتتذكرين العام الماضي تمنيتي أن تشوفين عيد ميلادك الجاي. احتفلا بيوم ميلادي وقبل أن أطفئ شمعتين ملونتين اختارتهما ابنتي تحملان رقمًا طالما تمنيت الوصول إليه طلبت مني أن أتمنى في داخل نفسي شيئًا لن يعرفه أحدًا غيري.. وتمنيت.

كانت المفارقة هي أن الهدية ماكينة تصوير لم نستعملها في تلك المناسبة التي لم نعد نرى صورها منذ ثلاث سنوات، فوجهي لا يمكن تصويره في تلك اللحظة. كانت الهدية كفأل حسن أوحى لي بأنهم مؤمنون بأنني سأبقى إلى جانبهم وأخلد صورًا وذكريات سنعود إليها بعد سنين طوال. لا أشك بأن الزمن سيغدر بي ويهدر كل ما خططت له.

قررت الذهاب إلى الريف ليس هربًا من عواطف الشفقة من الأصحاء التي رفضتها في الفترة الأولى من مرضي والعلاج المضني لأنني سبق وأن مررت بتلك التجربة مع مريضة بالسرطان عندما واسيتها بالرغم من أن الموت كان يصرخ هاتفًا منذرًا بقدومه القريب:

- لا.. لا ستشفين وتعود صحتك إلى ما كانت عليه.

ابتسمت بسخرية:

- هه.. نعم.. طبعًا.. أكيد.

ماتت بعد أقل من أسبوع.. فشعرت بتفاهة كلماتي وضآلتي وقتذاك.. أما كان الأجدر بي أن أسكت؟ رقدت في مقبرة الريف الجبلي الجميل التي لم أستطع كبح جماح رغبتي في تصويرها يوم زيارة الموتى حيث تحولت إلى كتلة من الشموع والزهور.. هناك كل شيء جميل حتى المقبرة المتكئة على المنحدر تحرسها أشجار الغابة من صنوبر وزان.

لقد أصر الربيع على بقائه بعيدًا عنا والطبيعة ما زالت نائمة تحت الثلج الذي أبى الذوبان، لكنه يظل أجمل من شوارع العاصمة الملوثة بالغازات من كل صوب. في الأسبوع الأخير لآذار كان صمت الغابة والحقل محفزًا على الغناء خاصة وأن الأرض امتصت أخر قطرة ماء ثلج أذابه قدوم الربيع المفاجئ بدفئه، لكني لم أجرؤ على تخديش وكسر ذلك السكون السماوي.. دخلت الدار

شاعرة بأنني قادرة على التنفس بعمق ودون إرادة مني رحت أجرب إمكانية رئتي مطلقة جناحي صوتي بأغنية فيروز "أعطني الناي وغني"

حتى وصلت مقطع:

"أعطني الناي وغني وانس داءً ودواء"

" إنما الناس سطور كتبت لكن بماء"

يا إلهي! صرت قادرة على ترديد هذا المقطع الطويل بدون توقف!! هذا يعني أنها صارت تستوعب كميات أكبر من الأوكسجين.

عرف زوجي بالخبر فضمني إلى صدره:

- لقد تمزق قلبي قبل بدء العلاج عندما بدأتِ ذات يوم الغناء لكنك التفتِ نحوي لتقولي شاكية: لا أستطيع الغناء بنفس طويل.

شمرت عن ساعدي وبدأت العمل في الحديقة بشكل بسيط حذرة من نور الشمس الذي يتعارض مع العلاج لأنه يفاقم من الحرقة والحكة في الطفح.

لقد طلبت من طبيبتي تأجيل الفحص الثاني إلى ما بعد عطلة نصف السنة وعيد الفصح مفضلة البقاء في الريف مع عائلتي الصغيرة ولنستمتع بالوقت معًا قبل معرفة أي نتيجة كانت. كان العمل في الحديقة أفضل دواء شافٍ للتوتر الذي يسبق الفحص لنا جميعًا.. وحتى ابنتي وضعت كتبها جانبًا لتساعدني بحرث الأرض مكتشفة بأنني على حق لأنها صارت تشعر بتحسن جسدي ونفسي.

أطعمنا الأرض البذور وسقيناها وكان يعز علي تركها دون ماء لأنني لا أعرف البتة ماذا سيحل بي بعد كل فحص.

* * *

- منذ سنوات لم أر ذاك الجزء من الرئة بهذا الصفاء ولكن علينا الانتظار حتى الفحص الثالث للرئة بالأشعة المقطعية C T وأتمنى أن يرينا نتيجة جيدة أفضل من هذه في الشهر القادم.. أما بالنسبة للطفح فهناك أنواع من المراهم الحاوية على مضادات حيوية باستطاعتي وصفها... قالت الطبيبة.

- شكرًا لا أريد منها، إضافة إلى أن في داخلي شعورًا مزدوجًا وهو الألم وتحمله والآخر فرحي بظهور الطفح لأنه دليل على أن الدواء يعمل بشكل إيجابي.. فلأتحمل.. ولكن إلى متى سيستمر هذا الوضع؟ سألتها.

- سيعتاد الجسم عليه وتختفي الأعراض تدريجيًا.

- في الحقيقة كنت أتوقع رؤية الأشعة بهذا الشكل. قلتُ..

- طبعا وبالتأكيد لأنكِ ركزتِ على الرئة وأوحيت للبقعة بأن تصغر.

* * *

شحنة جديدة من الأمل المطعّم بالألم الذي تطغي عليه فرحة الأحبة والأصدقاء والكتابة.

عدت إلى الحديقة بعد أسبوع ساخن يذكر بحرارة الصيف فوجدت البادرات الخضراء فاتحة وريقاتها كمناقير أفراخ الطيور بانتظار الماء. أزهرت الطبيعة وتلونت بألف لون يبعث البهجة في الروح، لكن المطر نسي أن يهطل فشعرت وكأننا في جو الوطن، وظل النسيم باردًا ليخفف من حدة الحرقة والألم. كنت أتحاشى الشمس في أوقات الظهيرة فأكتب أجزاءً من ذاكرة أشيائي أو أعتني بالشتلات التي حضرتها وكانت بينهن هي.. أجل هي النخلة الميتة - الحية..

قبل ثلاثة أعوام بينما كنت أرعى الزرع وأحرره من الدغل والنباتات البرية، لامست أصابعي نبتة عرفت ملمسها في الفور فلم أجتثها من جسد الأرض.. نخلة نبتت في أرض لا تشبه أرضها.. سعدتُ بها تاركة إياها تكبر، لكن الغيمات الباردة أنذرت بقدوم الصقيع فقلعتها مندهشة لطول جذرها الذي تعدى طول قامتها. وضعتها في أصيص عميق لأخبئها في مكان دافئ ورحت أداريها دون جدوى.. لقد فقدت اخضرارها وبدأت تجف يومًا بعد آخر حتى تحولت إلى عود أسمر ومع ذلك احتفظتُ بها وكلما سقيتُ أترابها من النبتات رويتها هي أيضًا لكنها وقفت بشموخ يابسة.. احتفظتُ بها إلى هذا اليوم.. أرى نفسي بها..

علمتنا الغربة أن نحب أشياء لم نعرف قيمتها عندما كانت في متناول أيدينا ونحب أغانيَ كنا نسخر من كلماتها التي صارت

تبكينا، ونستشهد بأمثال وأقوال أمهاتنا الحكيمات اللواتي لا يقوين على فك الحرف. وصار الرجال تبكي حرقة وندمًا على تعسفهم وقسوتهم مع أخواتهم فبينهن من ماتت ظلمًا أو جوعًا أو من الهم والقهر وهم بعيدون عنهن يعيشون حياتهم على نمط البلد الذي اغتربوا فيه. بودهم لو ذهبوا لينحنوا أمام قبورهن باكين طالبين العفو والمعذرة بعد فوات الأوان.

كل تلك الأمور تجعلني أرعى النخلة اليابسة لأنها تظل نخلة حتى وإن ماتت. سأذهب إلى الفحص القادم للرئة ومهما كانت النتيجة سأظل واقفة مثلها.

* * *

أجهل شيئًا واحدًا وهو بالرغم من أننا نعلم بتفاصيل المرض حال تطوره أو تراجعه الحالي، يستنزف قوانا اقتراب الفحص التالي. لقد بات كل شيء واضحًا لكن الأزمة أضحت كالهواء الذي نستنشق.

- لماذا كل هذا التوتر وأنت تعلم بأن الدواء الجديد قد بدأ بالقضاء عليه؟ سألت زوجي.

- أعرف ذلك ولكن نتيجة فحص الأشعة المقطعية C T ستحسم الموقف ولا أريد الحكم مسبقًا.

سررت بموعد الفحص في وقت مبكر لأنني سأكون الأولى، لذا قررنا الوصول قبل الوقت المحدد للحصول على ورقة التحويل إلى

مكان الفحص، ولكن لا وجود لطبيبتي.. حان موعد الفحص الذي شغله مريض آخر وبدأت رحى أعصابنا بالدوران حتى ظهرت الطبيبة التي ناولتني الأوراق مبتسمة.

نزلنا مسرعين لنقف في الطابور. وصل دوري وبدأت الموظفة تبحث في الكمبيوتر ثم استعانت بالتليفون.. سئمتُ الانتظار:

- هل لي أن أعرف ما المشكلة؟

- أعطت الطبيبة تحويلاً خاطئًا وعليَّ الاتصال بها لتصحيح الخطأ لأن الموظفات هنا لن يقبلنه ولا يمكنهن إجراء الفحص. لذا أرجو الانتظار لأن الطبيبة الآن مع البروفيسور في زيارة المرضى.

اختصارًا للوقت دسست عبر النافذة المجاورة التحويل الآخر للحصول على رقم لفحص الإيكو. خلال ذلك بدأ التوتر بالتكثف في أعصاب زوجي، ولكي أخفف من حدته اتجهت نحو قسم آخر لتحليل الدم وبهذا أكون قد انتهيت من أحد الفحوص. ثم عدت إلى النافذة لأجد أن المشكلة ما زالت قائمة حتى خرجت الموظفة المختصة فشرحت لها الوضع ومن خلال جوابها عرفت في تلك اللحظة:

- إنك تخضعين لعلاج تجريبي تابع لمعهد مختص بالدواء وهذا ما لم تذكره طبيبتك. لأن الحساب سيكون مختلفًا. سأتدبر الأمر بنفسي.. أكملي الفحوص الباقية ولا تقلقي!

كنت على علاقة طيبة مع الموظفات وكانت تجري بيننا حوارات أثناء الإعداد للفحص فصرنا نعرف قليلاً عن الأشياء الخاصة كالوضع العائلي والأولاد وكانت بينهن من لم تتزوج بعد بالرغم من تجاوزها السابعة والثلاثين وكانت تتمنى أن يكون لها طفلاً، وبما أنني أعلم أن الولادة بدون زواج لا تسبب لهم مشكلة كما عندنا فسألتها خلال آخر فحص:

- لا يوجد صديق أو رجل تأتمنين إليه يمكنك إنجاب طفل منه؟

- آه.. هذه ليست مشكلة.. ممكن الحصول على مثل هذا الرجل.

بعد انتهاء الفحص تمنيت لها أن تحقق أمنيتها:

- آمل في الفحص القادم أن أراك حاملاً.. كما أتمنى أن أكون بوضع أفضل.

بعد ثلاثة شهور رأيتها بتنورة طويلة سوداء وبلوزة حمراء ترافق موظفًا يقومان بجرد المواد المستعملة في القسم.. وبينما كنت أنتظر دوري عند الإيكو تقدمت نحوي لتنحني وتوشوش في أذني بوجنتين متوردتين وصوت مضطرب مرتجف:

- لقد صدقت نبوءتك.. سيأتي البيبي في ديسمبر.. لقد نجح كل شيء!!

شعرت بقشعريرة تسري في جسدي حال سماعي الخبر فهنأتها شاعرة بفرح صادق. هل كان الفرح من أجلها أم من أجل عبارة "لقد صدقت نبوءتك"؟ وهل ستصدُق معي أيضًا؟

هنأني طبيب الإيكو على سلامة بقية الأعضاء من أي ورم. اتجهت نحو غرفة انتظار فحص الأشعة المقطعية حتى جاءني الدور بعد ساعتين من الموعد المحدد. دخلت واستقبلتني الموظفة بكل ود وبينما هي تجهز الوريد لمادة اليود دخلت أم المستقبل لتسأل عن وضعي الصحي ولتخبرني بأن زميلتها حثتها على أن تزف خبرها المفرح لي لأنني تنبأت بذلك لها. مسدت على يدي ورأسي متمنية الشفاء العاجل.

في تلك اللحظة كانت دقات قلبي ربما قد تجاوزت المائتين من شدة التوتر والتعب والجوع فرحت أهدئ نفسي بأساليبي التي اعتدت عليها، ولكن كيف وقد سمعت الممرضة عبر الجهاز وهي تناديني قائلة: سننتظر لحظات حتى تصعد مادة "الكونتراست" إلى الدماغ لأننا سنصوره أيضًا.

والله غريب هذا الإنسان! لماذا فزعت من كلامها بالرغم من أنني أعلم أن هذه المادة تتسرب عبر الوريد إلى كل مسارات الدم؟ ثم أنني لم أعلم بفحص الدماغ.. هل لأنها نطقتها بصوت عالٍ؟. هكذا نخدع أنفسنا وإلا لمتنا منذ أول فحص هلعًا.

في تلك اللحظة تذكرت كلام ابنتي وهي تقل أدبها مازحة معي ومداعبة رأسي يوم عبّرتُ لها عن خوفي من وصول المرض إلى الدماغ: "لا ماما ما يروح لهناك لأن راسك مليان بالخبالات وما بقى مكان يدخل بي".

"يا ريت يكون....." قلت في نفسي.

في المرآة لمحت بقعة بيضاء محاطة بهالة حمراء ارتفعت عن سطح الجلد في صدري فأريتها للمختصة التي ركضت لتعالج الحالة بمضاد للحساسية التي تظهر لأول مرة كرد فعل على مادة اليود وكان السبب هو العلاج الذي يتعارض معه. أما روبرت فازداد رعبًا حين رؤيته لي خاصة وأنني أمضيت وقتًا أطول من المعتاد في الفحص إضافة إلى كلام المختصة التي أخبرتني بألا أخاف إن أصبح لدي ضيق في التنفس أو تورم في الشفاه ولأنتظر قليلاً قبل الذهاب إلى مقابلة الطبيبة. لم تخرج الإبرة الموصلة بالوريد علني أحتاج إلى مضاد يزرق عبره.

- لا تخف لن يحصل أي شيء!! طمأنت زوجي.

مضت فترة انتظار قصيرة ثم صعدنا إلى الطبيبة وكما يبدو أنها اختفت من الوجود. بعد بحث طويل ظهرت للعيان بصحبة البروفيسور الذي حياني بلهفة:

- مرحبًا سيدتي! لم أركِ منذ وقت طويل كيف الحال؟

- شكرًا أنا بخير سوى ما حدث الآن في الفحص بسبب الدواء الذي أتناوله.

طلب مني أن أبقى أمام عيونهم لمتابعة وضع الحساسية.

- والله ما عدهم إحساس من يتكلمون مع المريض... يريد دائمًا يشوفني.. وكأن المريض يتمنى أن يكون بالمستشفى دائمًا... غبي!!

فقد زوجي أعصابه بالكامل وراح يلعن ويتذمر متمردًا على رقيب لسانه وضاربًا عرض الحائط كل القيم:

- تلومينني لأني فقدت أعصابي؟ كيف لا أفقدها بعد أن رأيت وجهك المتقد كالنار وعدم مبالاة الطبيبة بالأمر؟ هذا البروفيسور مدير المستشفى برأيي لا يعرف شيئًا عن المرضى. والله لو سلموا زمام أمور المستشفى بيدي لعلمتهم ما هو النظام.

حاولت تهدئته مبتسمة لأخبره بحكاية المرأة الحامل فسألني هل تزوجت.

- يجب أن يكون الإنسان ذكيًا ولا يسأل مثل هذا السؤال لأنها يا عزيزي لو تزوجت لبدأت الخبر به ثم بحملها أليس كذلك؟

- صح.

- تعرف سوف يوظفونني في هذي المستشفى بعد ما أشفى؟.

لم يسأل لكني رددت على سؤال عينيه اللتين نظرتا إلي باندهاش.

- طبعا راح أشتغل منبئة.. هههه.

لا أدري ماذا حل بطبيبتي ذاك النهار وكأنها لا تعي ما تقول حتى أننا فهمنا بصعوبة متى سنعرف النتيجة وكيف.

أمضينا نهارًا سقيمًا بلا زاد ولا شراب. دخلنا البيت متعبين منهكين وكأننا جُلدنا بسياط علينا تضميد جراحها استعدادًا لتحمل انتظار النتيجة في صباح الخميس أي بعد ثلاثة أيام في الرابع عشر من أيار ٢٠٠٩ وبهذا أكون قد أنهيت الوجبة الأولى من إكسير الحياة. لا أود تكرار ما كتبته عن أيام الانتظار الموجعة.

موعد المكالمة العاشرة صباحًا لكني كنت أفضل دائمًا التأخير بالاتصال. هكذا علمتني التجارب، إلا أن زوجي ينطلق من ذاته معتقدًا بأن الناس مثله مضبوطون بالمواعيد حد الثانية فناولني هاتفي مشيرًا إلى الساعة.

- أفضل الاتصال بعد قليل.

ثارت ثائرته.

- لماذا؟ ألم تقل في العاشرة؟

- يبدو أنك لم تتعلم من التجارب.. وإذا أردت... اتصل أنت!

اتصلَ وكان هاتف الطبيبة مغلقًا.

قلت انتظر!!

قال لن أتصل.

قلت اجلس واهدأ!

غادر الغرفة غاضبًا ولاعنًا....

عاد راكضًا لسماع رنة جرس هاتفي.

- مرحبًا.. تفضلوا بالمجيء إلى المستشفى لأخذ الوجبة الثانية من الدواء.

- أهلاً.. وهل النتيجة جيدة؟

- جدًا.

فرحنا... وفي تلك اللحظة كتبت ابنتي SMS من قاعة الجامعة تود معرفة النتيجة. وكتبت لها متجهة صوب الكمبيوتر لأكتب لمن ينتظر من الأحبة والأصدقاء.

* * *

- تفضلي اجلسي إلى جانبي لنشاهد الصور في الكمبيوتر! قالت الطبيبة فرحة.

رأيت جمجمتي متخيلة كيف ستبدو في جنات الخلود.. لكني مسكت لساني لأن الوقت غير مناسب لمثل تلك التعليقات.

- انظري! لك قلب كبير.. جميل..

- طبعًا قلبي كبير! لندع المزاح.. ماذا يعني ذلك؟

- يعني أنه سليم جدًا.

وصلنا إلى الرئة وصارت ترينا تراجع المرض شارحة كيف كان وكيف أصبح.

لا أنكر أنني لم أفهم شيئًا من قراءة الأشعة المقطعية C T وكنت كالأطرش بالزفة.. المهم قرأنا التقرير الذي نص على تراجع المرض بشكل ملحوظ ولا وجود له في أي غدة أخرى. شكرنا الطبيبة نازلين نحو صيدلية المستشفى لاستلام الوجبة الثانية لثلاثة شهور جديدة. استلم زوجي الكنز واضعًا إياه في الجيب

الداخلي لسترته وكان يخشى تركه في السيارة لأنني طلبت منه أن نذهب للتسوق وفي الحقيقة كنت أود شراء مغذٍ للنباتات.

- هل تدري بمَ يذكرني وضعك للدواء في الجهة اليسرى للجيب الداخلي؟

- بماذا؟

- رأيت منذ زمن بعيد تمثيلية للنشاط المدرسي في تليفزيون بغداد ورسخ في ذهني مشهد الولد الذي يسأله المعلم:

"أين وضعت خارطة فلسطين يا أحمد؟"

"وضعتها في جيبي الأيسر.. ملاصقة للقلب وقريبة من الروح!".

لكني لا أريد مقارنة وضعي الصحي بقضية فلسطين لأنني لا أستطيع الانتظار ستين عامًا بدون حل بعد أن صار عمري يحسب بثلاثة أشهر قابلة للتمديد.

"العزيزة اعتقال!

لن أقول لك كسبت ثلاثة أشهر.. كسبت العمر كله.. روح مثلك أقوى من المرض.. سعيد جدًا بالخبر.. محبتي

حميد

١٥-٥-٢٠٠٩

• • •

الشموع

جلست أرتب الأكياس الصغيرة للبذور التي قررت نثرها في النصف الثاني من آيار فوجدت أنني تأخرت على بذر حبات الباقلاء البابلية وتذكرت عندما زرت العراق في آذار عام ٢٠٠٤ كانت الباقلاء تباع في الأسواق.. أخرجتها من الكيس متحسسة ملمسها فترامى صوت ابنتي في يوم ميلادي:

- تمني شيئًا في نفسك قبل أن تطفئي الشموع!!

"أن أعود إلى العراق.. وأغرس شتلة في حديقة النساء في بابل"

كانت عيناي تطوفان في مدينة الحلة - بابل باحثة عن موطئ قدميْ الفتاة الصغيرة حيث كانت تلعب في حديقة النساء التي كانت أشبه بجنينة لا يمكن رسمها الآن إلا في الخيال.

- وين حديقة النساء؟ سألت أخي الأصغر.

- هذي قدامك.

- معقولة؟ هذي حديقة النساء؟

أرض يابسة وقفت عليها بضع نخلات يتيمات.

كانت الحديقة تمتد على ضفاف الفرات أمام بيتنا. مُصمّمَة على الطراز الإنجليزي. تمتد بقع الورود كلوحة تشكيلية أبدعها فلاحون

برعوا في عملهم بالفطرة. محاطة بسور حديدي جميل ولا يدخلها سوى النساء وأطفالهن بعد الظهر حتى الغسق.. يلعبون ويمرحون فيها محافظين على نظافتها وجمالها. تقفل أبوابها في الليل.

لم أتعرف على مدينتي التي تحولت إلى خرابة..

- منذ خمسة وعشرين عامًا لم تُمد يد لإنقاذ هذه المدينة التي فرض العقاب عليها النظام السابق - قال أخي.

لم يعد الفرات عذبًا.. لقد أمسى مستنقعًا جف ماؤه.. الجسر القديم غدا كرجل كهل فقد عكازه ويكاد يهوي في النهر.. هذا هو الجسر الذي عبرته أمي مشيًا يوم زفافها في الثانية عشرة من عمرها قيدتْ ماسكين بيدها من الصوب الكبير إلى الصغير وقبل أن تدخل بيت زوجها تعثرت قدمها بدكة الباب فسقطت على وجهها لأنها كانت تعتقد بأن على العروس أن تسير طوال الطريق مغمضة العينين.. لذا لعنوها بعد أن استلمت أول ضربة على رأسها لأن سقوطها ذاك نحس ينذر بالشؤم.

عبرنا الجسر الجديد إلى حي بابل حيث بيتنا الذي ودعته عام ١٩٧٩.. لم يعد مقابلاً لبستان النخيل بل حوصر بالبيوت من كل صوب حتى أنني لم أتعرف على المكان إلا حينما توقفت السيارة ليقول أخي:

- هذا بيتنا.. أو بالأحرى كان بيتنا.

نزل أكبر أخوتي من السيارة متعكزًا على عصاه التي تخلى عنها ليدفع بها باب البيت الحديدي المفتوح.. داخلاً الحديقة بلا إذن... إنه مدرس اللغة العربية القاسي مع طلابه.. لم أره في حياتي أبدًا بهذا الانكسار حينما لمح السيدة مالكة البيت ليطلب منها بلهجة متوسلة:

- سلام عليكم.. هذا كان بيتنا وهذي أختي صار لها ٢٥ سنة بالخارج ورجعت تريد تشوف البيت إذا تسمحوا لنا!

- أهلا وسهلا.. تفضلوا طبعًا.. هله ومرحبه.. ثم منادية على ابنتها كي تجلب لها شيئًا تغطي به رأسها.

لقد أصبت بالحرج أمام الصحفي المجري الذي رافقته لأنني لم أقو على الترجمة ولم يسمع مني سوى نحيبي. جلسنا في غرفة الضيوف كضيوف في بيتنا الذي لم يعد بيتنا. كان يجب أن أكف عن البكاء بعد ما بدأ الصحفي عمله والاستفسار من أهل البيت عن قاعدة القوات الدولية المجاورة لهم والتي سببت قلقًا وخوفًا لأهالي المنطقة الذين قرروا هجرة بيوتهم سلامة على حياتهم. كنت أترجم كماكينة لأن عقلي وروحي وكل ذرة من حواسي تتوق إلى أن تجوب البيت بحثًا عن سنين الطفولة والمراهقة الحلوة.. لبَّت العائلة الطلب فركضت مع أخي الأصغر غازين البيت الكبير.. وأخي يردد في كل ركن منه:

"تتذكرين... تتذكرين. تتذك..رييييين؟؟"

صعدت إلى غرفتي، كانت تطل شرفتها على بستان النخيل.. فيها كنت أحفظ أنشودة المطر والوصية "لبدر شاكر السياب" وأبكيه. وفي نافذتها أقرأ ديوان "طفولة نهد" لنزار قباني وأكتب القصص. ماذا لو نطقت جدرانها الآن بخبايا وأسرار الصبية التي هجرت الدار والبلاد؟

شربنا الشاي ثم غادرنا الدار معززين مكرّمين لأن أصحاب البيت كانوا يعرفوننا منذ الصغر وسعوا إلى أن يشعرونا بأن البيت بيتنا.
- أصلاً آتي ما كنت أسمع صوت أصحاب البيت.. طول الوقت كنت أسمع أصوات أخوتي وأخواتي. قال أخي الأصغر قصي.
وعند الباب طلب مني أصحاب الدار التقاط صور معهم. وقبل أن نركب السيارة تطلعت إلى وجه أخي الأكبر الذي بلغ الثامنة والسبعين وإلى دارنا فرددت بيت شعر امرئ القيس:
"قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل"

لم نستطع زيارة بابل القديمة لأنها أصبحت قاعدة عسكرية للقوات البولندية وغيرها التي تحرس باب عشتار. منذ خمسة وعشرين عامًا لم أذق طعم ذلك الإحساس الجميل وهو أنني لست غريبة حينما كنت أسمع من ناس مدينتي حيثما دخلت: "هذي بنتنا".

عدنا إلى بغداد التي نسيت ملامحها الحقيقية.. شاخت وتدهورت.. لو لم يبق نصب الحرية شامخًا لما عرفت أنها ساحة التحرير.. أي

تحرير؟ كانت مدورة. تاجها نصب الحرية تزينها الأشجار الباسقة.. استوطن أرضها الحمام.. وفي إحدى جهاتها انتصبت جدارية للرسام فائق حسن. كنا نمر يوميًا من تحت النصب الذي لم أستطع حتى هذا اليوم أن أهضم موت صانعه النحات جواد سليم الذي كان لنا جميعًا مدرسة في النحت.

في عام ١٩٦٩ عندما كنت طالبة في أكاديمية الفنون الجميلة أدرس النحت جاء رئيس الاتحاد الوطني ليأمرنا بالذهاب مع جميع الطلاب للمشاركة في تظاهرة وطنية للتنديد بالجواسيس الخونة الذين شنقوا وعلقوا في ساحة التحرير. ارتعبت من تخيل المشهد رافضة الذهاب، إلا أنهم هددوا بالعقاب فانضممت إلى القطيع لنشاهد "مناظر خلابة!!" نستفيد منها في إبداعنا. كان أحدهم يهتف صارخًا "ماذا تريدون؟" فترد حشود الناس : "قطع رؤوس الخونة" كانت النساء البسيطات تفترش الأرض ومن بينهن من جلبت معها قنينة غاز صغيرة تعد عليها الأكل للأطفال الذين بحلقت عيونهم في رقاب المشنوقين الزرقاء التي استطالت إلى ضعف طولها.. كن يزغردن ويرضعن الوليد الحليب وصورة البشاعة التي ستظل مرصعة في ذاكرته.

لماذا نتشبث بالوطن؟ هذا الوطن الذي أهاننا وذلنا... أوجعنا وأبكانا ثم شردنا. وهل الوطن أرض وبيت ونخيل على ضفاف نهريه؟ الوطن ليس إلا ذاكرة ناس وأماكن وأشياء تسكن قلبي

كلما رأيتها أو تذكرتها انتشلتني من غربتي جارية بي إليه وكلما اقتربت منه ابتعد مع من أحن إليهم.
أضحى حلمًا. والعمر يُعَدُّ بالشهور.

رحت أجري لألحق بنهار الغد بعد أن اشتريت عشرين شمعة. وقفت أرقب مياه الدانوب ولن أدع الشموع تطفو على موجاته الناعمة كما وضعتها أمي على سطح ماء الفرات لتذهب إلى "الخِضْر" الذي سيستجيب لنداء استغاثتها ونذرها، بل سأضعها لتضيء كعكة عيد ميلاد ابنتي فرحة لأنني سأراها في الرابع من حزيران وهي تدخل عامها العشرين.

٩-٦-٢٠٠٩

الكاتبة في سطور

- كاتبة وفنانة وإعلامية عراقية من مواليد مدينة الحلة (بابل). ومقيمة حاليًا في هنغاريا - بودابست.
- تخرجت من أكاديمية الفنون الجميلة عام ١٩٧٢ فرع النحت.
- عملت نحاتة في تليفزيون بغداد بين الأعوام ١٩٧٢ - ١٩٧٨ وفي نفس الوقت مقدمة لبرنامج ثقافي مختص بالفن السينمائي (السينما والناس).
- في ١٩٧٨ عملت في مركز الحرف والصناعات الشعبية كنحاتة لأكثر من سنة.
- غادرت العراق إلى هنغاريا في ١٩٧٩.
- أكملت دراستها في الفن السينمائي لتحصل على شهادة الدكتوراه من أكاديمية العلوم المجرية.
- كتبت عن السينما العربية والمجرية.
- عملت في المعهد العالي للسينما والمسرح المجري لمدة سنتين.
- ترجمت العديد من القصص العربية القصيرة إلى المجرية لمجلة مختصة بالأدب العالمي.

- ترجمت كتاب "يوميات في العراق" لمراسل صحفي مجري.
- ترجمت مختارات من الشعر المجري وقصص قصيرة نُشرت في عدد من المجلات العربية وعلى الإنترنت.
- أعدت للإذاعة المجرية مواد عن بعض الكتاب العرب كنجيب محفوظ وفؤاد التكرلي ويوسف إدريس مع ترجمة قصص قصيرة لهم مُثلت وأذيعت.
- ترجمت قصص فلسطينية قصيرة مختارة إلى المجرية لتُنشر في كتاب.
- ترجمت وشاركت بكتابة سيناريو وحوار فيلمي كارتون (حي بن يقظان) للكاتب ابن طفيل، وفيلم "أصيلة" (الفَرَس) إضافة إلى دراماتورجيا فيلم أصيلة من إنتاج الفنان مروان الرحباني.
- تكتب القصة القصيرة. ولها رواية في طور الكتابة.

- البريد الإلكتروني : itikalmaha@yahoo.co.uk

شمس للنشر والإعلام

رؤية جديدة في عالم النشر

في مسعى جاد لتقديم رؤية جديدة تسهم في تصحيح العديد من المسارات في مجال النشر، تم تأسيس "مؤسسة شمس للنشر والإعلام" كخطوة على طريق إرساء أسس مشروع ثقافي متكامل يهدف إلى نشر الإبداع العربي في كافة التخصصات، وإثراء صناعة النشر، وتقديم إضافة حقيقية إلى مسيرة الكتاب العربي، وفق رؤى متوازنة تجمع ما بين طبيعة عملها كمؤسسة تجارية تتطلع إلى تحقيق الربح والانتشار، ومابين تحقيق رسالتها الثقافية.

وتهدف "مؤسسة شمس للنشر والإعلام" إلى تحقيق عدد من الغايات:

- إتاحة الثقافة الرفيعة للقارئ العربي، وتلبية حاجاته من المعرفة.
- الإسهام الفعال في نشر الإبداع العربي، من خلال سياسات ترويج وتوزيع تتلاءم ومقتضيات العصر.
- تفعيل حركة النشر، خاصة لشباب المؤلفين، ورعاية وتشجيع المبدعين، ودعم قدراتهم الفكرية والأدبية، والعمل على نشرها وإبرازها.
- حماية الحقوق الفكرية والمادية للكتّاب، وإعادة صياغة أسس التعامل المادي مع المؤلفين وفق قواعد أكثر إنصافاً.

- التعريف بالكاتب والكتاب إعلامياً وجماهيرياً، ومد جسور التواصل بين المبدع والمتلقي.
- إثراء الحياة الثقافية بالأنشطة والندوات والفعاليات، من خلال رؤى تنظيمية وترويجية تضمن نجاحها والمشاركة الفاعلة فيها.
- الوصول بالإبداع العربي إلى القارئ غير العربي، من خلال ترجمة الإصدارات العربية المتميزة إلى لغات مختلفة، والعمل على خلق آفاق عالمية لنشرها بالتعاون مع دور نشر احترافية في العديد من الدول.
- توثيق الصلات بين دور النشر المحلية والعربية والدولية، وكذلك بين الكتاب والمثقفين العرب، والتواصل الفاعل مع المهتمين على اختلاف توجهاتهم، وفق صيغ تعاون إيجابية.
- إعادة نشر التراث المعرفي العربي ذي الإفادة في عصرنا، وتحقيقه وتدقيقه.

ويرتكز عمل المؤسسة على منهاج "احترام الكاتب والكتاب" مادياً وأدبياً ومعنوياً، وفق عدة معايير تقوم على الالتزام التام بأخلاقيات مهنة النشر. وتسعى لتقديم رؤية جديدة لصناعة الكتاب تشمل الدقة في انتقاء المحتوى، والجودة في إخراجه وتصميمه وتنفيذه وطباعته، والاهتمام بنشره وترويجه إعلامياً ودعائياً، بما يضمن له؛ في النهاية؛ مكاناً بارزاً في مكتبة القارئ.

شمس للنشر والإعلام

www.shams-group.net

(+2) 02 27270004 - (+2) 0188890065

n

١. باقلاء الفرات ٧

٢. ولمسة الرمانة ١١

٣. شاي عراقي ١٤

٤. حفنة تراب من النجف ٢٥

٥. خصلة شعر ٢٩

٦. كذبة الحزام الأبيض ٣٤

٧. حمام النسوان ٤٣

٨. قطرة العين ٤٨

٩. التنور ٥٤

١٠. الناظور ٦٠

١١. جميلة ٦٤

١٢. الجرح ٧٨

١٣. حمامة السلام ٨٤

١٤. الخروف العنيد ٩٠
١٥. عقال أبي ٩٨
١٦. الحشرة والتمثال ١٠٤
١٧. جواز السفر ١١٤
١٨. اللوحة والصحاف ١٤٧
١٩. تليفون السيد النائب ١٧١
٢٠. الباروكة ١٩١
٢١. القنابل الذكية.. إكسير الحياة ٢٤٨
٢٢. الشموع ٢٨٤

• الكاتبة في سطور ٢٩٠
• شمس للنشر والإعلام ٢٩٢
• الفهرس ٢٩٤

شمس
للنشر والتوزيع
(+٢) ٠١٨٨٨٠٠٦٥ (+٢) ٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤
www.shams-group.net